سيد محمود القمنى

حروب دولة الرسول



مدبولي الصغير

حـروب دولـة الرسول

«صلى الله عليه وسلم»

حـروب دولـة الرســول
«صلى الله عليه وسلم»

الناشر: مكتبة مدبولـى الصــغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبدالعزيز

تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ـ ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت: ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع: ٩٥/٩٣٤٧

الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: عاطف منصور

مراجعة لغوية: نبيد عبدالمعطى

الصف والإخراج الفنى: كريم كمبيوتر

سيد محمود القمني

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الناشر: مدبولى الصغير

الإهـــداء:

إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جوارى فى محنتى الصحية:

الأستاذ فاروق حسنى والدكتور جابر عصفور والدكتور فوزى فهمى، والأستاذة فوزية رشيد، والأساتذة عبد العال الباقورى وصحيفة الأهالى، وجمال الغيطانى، ومصطفى بكرى، وسليمان فياض، وفتحى عامر، وعبد الغنى داود، وعبد الله الشرهان، والأصدقاء الذين أحاطونى بالحب والرعاية، كوكبة أطباء الزقازيق: الدكتور أيمن عبد الحارس والدكتور نصر السيد والدكتور أحمد والى، فكانوا إلى جوارى طوال الوقت، ومنحونى من الحب ما هو جدير بهم.

وإلى (عمال) جناح القلب بمستشفى الهرم، وإلى كل من شارك دون أن يعلمنى بدوره، وكل من كتب فى الصحف، أو وقع على بيان، أو شارك بالتمنى الطيب عن بعد.

لهم جميعا كل الحب وكل العرفان.

سيد القمنى

التأسيس

التقريش والإيلاف

«فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم»

[٢٤/ المؤمنون]

حروب دولة الرسول

جزء أول

التقريـــش

يقول القاموس المحيط، إن الملأ هم الأشراف والعلية، وهم القوم ذوو الشارة والمظهر الحسن والشرف[1]، وهم فى المعجم (المنجد) أشراف القوم، الدين يملأون العيون أبهة، والصدور بهجة[2].

هكذا وصف رجال الحكومة القرشية، فى المرحلة القبل إسلامية، فى معاجمنا اللغوية، تلك الحكومة الابتدائية، التى تشكلت من كبار تجار مكة، أثريائها وعلينها، حيث مثل كل فرد منهم قومه فى تلك الحكومة، بقدر ما يملك من إمكانات المظهر الحسن والشرف والأبهة، أى بقدر ما يملك من إمكانات مادية، وهى الحكومة التى تم تكريسها فى (دار الندوة)، وعرف التاريخ أعضاءها باسم (الملأ).

ويلخص لنا (حسين مروة) أمر ندوة الملأ بإيجاز بليغ يقول:

> إن سيطرة أرستقراطية قريش المالية والتجارية، كان لابد لها أن تُنتج بدورها مؤسستها السياسية، المعروفة تاريخياً بدار الندوة، البذرة الأُولى للدولة فى مجتمع مكة، والتى كان من شأنها أن تنظم العلاقات السلطوية لهذه السيطرة، مع الفئات الاجتماعية الأخرى، الخاضعة لاستغلالها الاقتصادى، وأن تضفى على هذه العلاقة وجهها الحقوقى، الملائم للوضع التاريخى آنذاك، كما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها، التى أصبح عليها أن تخضع سياسياً، كما هى خاضعة اقتصادياً، لأرستقراطية قريش الحاكمة ـ الملأ ـ وكانت الندوة مجلساً يمثل الأرستقراطية، وفيها كانت تقضى قريش أمورها[3].

وحكومة الملأ إذن ـ كما هو مبين ـ **كانت مجلساً سلطوياً قام فى مكة، من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية على مختلف الشئون، بغرض تناغمها جميعاً مع** مصالحهم، بحيث يؤدى كل شأن دوره فى حماية تجارتهم، واستمرار سيولتها، وضمان أمنها، دون أى توقف يمكن أن يهددها.

---

(١) القاموس المحيط: باب الهمزة، فصل الميم.

(٢) المنجد: حرف الميم، مادة إملاء.

(٣) د. حسين مروة: النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابى، ط ٦، ١٩٨٨، بيروت، ج ١، ص ٢٣٠.

ولعل أهم الخطوات التى تمت بسبيل تأمين تلك المصالح.هى قيام مجلس الملأ نفسه، الذى ترافق مع خطوات أخرى، بدأت بالتقريش، ليتلوه الإيلاف، فكان التقريش خطوة أولى لتوحيد قبائل مكة وجمعها، أى تقريشها، وذلك زمن (قصىّ بن كلاب)، عندما استطاع مع حلفائه إجلاء قبائل (خزاعة) عن مكة، ليتمركز فيها مع أولئك الحلفاء، نتيجة مجموعة متضافرة من الظروف التاريخية، بدأت آنذاك تفعل فعلها فى جعل مكة زمن (قصىّ)، مركزاً كبيراً لاستراحة القوافل التجارية، على طريق الخط التجارى ما بين الشام واليمن، وعليه فإن نظام التقريش جاء كشكل اجتماعى، أكثر تطوراً بدرجة أعلى قليلاً، من الأنظمة القبلية المتشرذمة المتقاتلة بالجزيرة. وكلون من التنظيم الاجتماعى الذى يجمع القبائل الحليفة لقصى فى أضمومة وحزمة مترابطة بالمصلحة، مع استقلال كل قبيلة بشكلها العشائرى المألوف، وهو ما نفهمه من شرح (ابن كثير) لهذا الشكل المجتمعى التقريشى فى قوله:

> وأما اشتقاق قريش، فقيل: من التقرّش، وهو التجمّع بعد التفرّق.. وقيل سميت قريش قريشاً من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهرى: الكسب والجمع، وقد قَرَشَ يقرُش (نظن المقصود هنا القرش أى الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضاً جمع القروش أى المال). وقال البيهقى: إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون فى البحر، تكون أعظم دوابه يقال لها: القرش، لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته[٤].

وهكذا يأتى هذا التفسير الجامع، معبراً صادقاً عن حال قريش، وحال المرحلة التاريخية متضمناً حال المرحلة المجتمعية، فالتقريش تجمع للقبائل التى حملت اسم قريش بعدما كانت شراذم قبلية متناثرة متصارعة، وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة، وهى التكسب المادى، ذلك التكسب الواضح أنه ناتج التجارة على الخط التجارى، والذى تمثل فى عشور جمركية تقبضها قريش نظير المرور والاستراحة فى مدينتها، للموقع المتميز لمكة على الخط التجارى الدولى، ويحمل التعريف معنى هاماً بربطه المتين والرائع لجمع الناس وجمع المال بالارتباط المصلحى، فالقرش هو مفرد القروش المجموعة، والقرْش هو الكسب المالى، وهو فى الوقت ذاته تجمع الناس فى مجتمع مترابط (هو الكسب، وهو الجمع بعد التفرق)، ليبلغ التعريف كمال تبليغه البلاغى فى تصوير حال هذا الجمع المتكسب، واستعداده للدفاع عن

---

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص١٨٧.

مصالحه، وتطور الأمر إلى حدّ النهم، فهو كالقرش السمك المتوحش لا يمر بشيء إلا أكله، مما يشير بالضرورة إلى وجود فئات أخرى، سقطت في حومة ذلك الحراك الاقتصادي الاجتماعي، وذلك في قرن الجمع والتجمع بالكسب والتقرش وجمع القروش، مع القرش بالأضراس الذى تمثله دابة البحر.

الإيــــلاف

أما التأليف بنظام الإيلاف، فكان - في رأينا واستنتاجنا - الخطوة الثانية والضرورية بعد التقريش، وهو ما طبقته أرستقراطية مكة القرشية بنجاح، للتأليف بين قبائل مكة التجارية أو أثرياء مكة تحديداً، وبين القبائل الضارية على الخط التجارى الواصل بين مكة، وبين حدود الامبراطوريتين: الرومانية والفارسية، ثم تأليف ثانٍ بين قريش وبين القبائل الضارية في باطن الجزيرة في خطوط فرعية، ثم تأليف ثالث بين قريش وبين الامبراطوريتين.

وبالإيلاف، وللإيلاف، كان يتم توزيع المكاسب بشكل تناسبي، بما يضمن حماية طريق الإيلاف من إغارة البدو، وتأمينه لمصلحة الجميع، وهو ما يقول فيه (المسعودى) موجزاً: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن»[٥].

وعلى الطريق التجارى وفروعه الهامة، ارتبطت قريش بالإيلاف والعهود مع شيوخ قبائل الجزيرة، شيوخ قيس، واليمامة، وتميم، وأقيال اليمن، وملوك غسان والحيرة، كما وكلوا عنهم وكلاء في جوش ونجران، وغيرها من المواضع الهامة في شبه الجزيرة[٦]، وقد اتبعت قريش في تأليفها أساليب متنوعة، فهناك من رضى من شيوخ البدو على الطرق التجارية بالهدايا والجعالات، بينما اتفق آخرون على حماية طريق الإيلاف الكبير نظير الاشتراك مع قريش في تجارتها، وهو ما يتضح من إشارة (الجاحظ) لدور (هاشم بن عبد مناف) في تأليف قبائل العرب بإشراكهم في التجارة[٧]، وما رواه (ابن سعد) عن تأليف (هاشم) للقبائل الضارية على الطريق

(٥) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، د. ت، بيروت ج٢ ص٥٩.
(٦) د. سالم عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب في عصر ماقبل الإسلام، دار النهضة، ١٩٨٠، بيروت، ج١، ص٥٠٣، ٥٠٥.
(٧) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣، القاهرة، ص٧٠.

الشامي بحمل بضائعهم دون أجر[٨]، ثم ما ذكره (البلاذرى) عن دور (هاشم) وولده (عبدالمطلب) فى عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير، ودور (عبد شمس) فى تألف نجاشى الحبشة، ثم دور أخيه (نوفل) فى تألف أكاسرة فارس وأخذ عهود الأمن منهم[٩].

وهكذا، كان نظام الإيلاف، تأميناً للطريق، وطمأنةً معلنة للامبراطوريتين المنتظرتين على نهاية خط طريق الإيلاف، للقوافل القادمة من مكة، بحيث ضمنت مكة بإيلافها أمان الرضى الامبراطورى عن دورها، وعن اقتدار ملئها، فى تأمين وصول المواد المطلوبة والسلع الهامة، فى مواقيتها دون تأخير، ولعل ما يعبر عن وعى العرب بهذا المعنى فى نظام الإيلاف، يتضح فى أبيات لمطرود بن كعب وهو ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلاّ نزلت بآل عبد مناف؟
هبلتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك فى جوع ومن إقراف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[١٠].

أما القرآن الكريم، فكان بصدق تبليغه، مفصحاً، موجزاً، مبلغاً ببلاغته أمر الإيلاف وعلاقته بالأمن، وبالبيت الإلهى المكّى، فى قول الآيات - فى سورة تحمل اسم قريش

﴿لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث. وظروف تلاحقت لتتراكم على صفحة المنطقة وتتوزع على خريطتها، حيث كان مركز اليمن الزراعى والتجارى قد تهاوى قبل العصر الجاهلى الأخير بزمان، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية (الغساسنة والمناذرة) فى العصر الجاهلى الأخير، قبل الإسلام بفترة وجيزة، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم، وهو ما أحدث - ولا شك - فراغاً سياسياً فى المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندى جنوباً، وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين فى بادية الشام شمالاً.

وقد ساعد على رسم تلك الخريطة السياسية، انهيار مجموعة طرق أخرى لم يبق آمناً من بينها

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق أوجين متنوخ، دار صادر، ١٩٥٧، بيروت، ج ١، ص ٤٥.
(٩) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٥، القاهرة ج ١، ص ٥٩.
(١٠) نفسه: ص٦٠.

سوى الطريق المار بمكة، قادماً من موانىء اليمن ليتجه شمالاً، ثم يتفرع إلى فرعين نحو فارس شرقاً وروما شمالاً وغرباً في داخل الحدود الفلسطينية والمصرية، وكان انهيار مجموعة الطرق التجارية الأخرى راجعاً إلى تلك الحرب الطويلة الضروس، التى دارت بين الفرس والروم، ومطاردة كل منهما الأخرى في كافة المواضع الممكن الوصول إليها لقطعها، ولم يبق في المنطقة آنذاك طريق مأمون، سوى الطريق البرى المار بمكة، لمنعته الصحراوية على عبر أهله. مما انتهى به إلى طريق أوحد مؤهل للقيام بأمر تجارة العالم، وهو ما أدى إلى تحول مكة عن وضعها زمن (قصيّ بن كلاب) كمحطة ترانزيت كبرى قابضة للعشور، إلى مركز للأرستقراطية المكية التجارية في العصر الجاهلي الأخير، حيث تمكنت تلك الأرستقراطية بتراكم رأس مال العشور والتجارات الصغيرة، من الانتقال عن قبض العشور إلى شراء البضائع القادمة من المحيط الهندى وموانىء اليمن، والاتّجار بها لحساب تلك الأرستقراطية، لتمسك عندها بعنان تجارة عالم ذلك الزمان[11].

ولنا أن نفترض بدء ذلك التحول عن قبض العشور إلى القبض على تجارة العالم. كانت المرحلة التى عمدت فيها قريش إلى إنشاء نظام الإيلاف بعد التقريش، ففى مرحلة التقريش كانت قريش تقبض عشورها، وما كان يعنيها كثيراً أمان الطريق، فهى تتاجر تجارتها البسيطة مع القادمين والآيبين، وتأخذ العشور من السارق والمسروق، ومن ثم تطور الأمر عندما أصبحت التجارة ملكاً كاملاً لها، ذلك التطور الذى استدعى السعى الجدى لتأمين تلك التجارة بنظام الإيلاف، وهى ذات المرحلة التاريخية التى نعتقدها مرحلة الفرز للصراع التنافسى التجارى، ومن ثم السيادى، داخل مكة ذاتها، والذى انتهى، كما هو واضح بالمصادر الإسلامية، إلى سيادة مالية شبه كاملة للفرع الأموى، مع خسران واضح لأبناء عمومتهم، الفرع الهاشمى.

ولنا أن نتصور ذلك التراكم المالى وهو ينزع عن الترانزيت إلى المركزية التجارية، ينمو من خلال خبر (الواقدى) وتأكيده أنهم كانوا يربحون في تجارتهم عن الدينار ديناراً[12]، حتى بلغ رأس مال بعض القوافل مائة ألف دينار للقافلة الواحدة، ويمكن أن نعلم المدى الذى وصل إليه

(11) حول العوامل التى أدت إلى انهيار الأمن على الطرق التجارية القديمة، انظر: د. أحمد شلبى السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٢، ١٩٨٧، القاهرة، ج ١، ص ١٢٤، ١٥٣، انظر أيضاً: أحمد أمين: فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٩٨٧، القاهرة، ص ١٢، ١٣.

(12) الواقدى: مغازى رسول الله، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، القاهرة، ج ١، ص ١٥٧.

تضخم رأس المال القرشي من خبر سلعة واحدة ترفيهية كمالية، هي الطيوب، والتي كان يطلب منها الروم والفرس في العام ما تصل قيمته إلى مائة مليون درهم(١٣).

أما قافلة (أبي سفيان) التي كانت سبباً بعد ذلك في غزوة بدر الكبرى، فقد أسهم فيها البيت الأموي بأربعة أخماس رأس المال، وكان لأسرة (أبي أحيحة) وحدها ما يصل إلى ثلاثين ألف دينار، وهي أسرة أموية، وذلك من مجموع أموال القافلة البالغ خمسين ألف دينار.

تحريم المواسم

وإضافة إلى الإيلاف بعد التقريش، تمكنت مكة، على المستوى الداخلي للجزيرة، من استقطاب القبائل المتناثرة في الباطن والأطراف لسوقها المركزي، بتكتيك تدفعه المصلحة يتجاوز المفاهيم الدينية القبلية المتعصبة، فقامت تستضيف في كعبتها أرباب قبائل الجزيرة على تعددها وتناقضها، تلك الأرباب التي كانت في نظر أصحابها أسلافاً صالحين، وكان الرب هو جد القبيلة البعيد وسيدها ورمزها، ومعبودها، وضامن وحدتها وتماسكها، فكانت تلك الضيافة لسادة القبائل ورموزها، ضيافة حسنة لكل القبائل، وسبيلاً إلى التقريب بين القبائل بتجاور الأرباب من الأسلاف، في فناء معبد واحد، بحيث حاز كل رب نفس القدر من الحرمة، ولم تجد قبائل الجزيرة في تلك الضيافة غضاضة، بل رحبت بدورها بتلك الخطوة وسارعت إليها، وقد بدت تسييداً أوسع، ونشراً لأمر رب كل قبيلة خارج حماه، وخارج دائرة نفوذه القبلي وحدوده الإقليمية، مع الأخذ في الحسبان الاعتبار الأكثر أهمية، وهو انهيار الطرق التجارية الأخرى المارة بمواطن تلك القبائل في بقاع الجزيرة، مما أدى لسقوط معابدها وكعباتها وتدني شأن آلهتها، بفقدها الأساس الاقتصادي مع تحول التجارة عنها، إضافة إلى التنامي الذي حققته الظروف لمكة. وهو ما أضعف شأن الأسواق الأخرى إلى حد التضاؤل والتهميش(١٤).

وعليه؛ فقد كانت ضيافة الكعبة المكية للأرباب القبلية، تأليفاً آخر لقبائل الجزيرة جميعاً، وهو ما ساعد على مزيد من تمركز التجارة بمكة، مع اتصال مكة بفروع للطرق نحو الأسواق الداخلية

(١٣) أحمد عباس صالح: الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام، مجلة الكاتب عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤، القاهرة، ص٢١، نقلاً عن سعيد الأفغاني. أسواق العرب.

(١٤) سيد محمود القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، ١٩٩٠، القاهرة، ص ٢١ : ٢٤.

الضارية فى بطن الجزيرة، وزاد فى المركزة التجارية والدينية والقبلية بل واللغوية لمكة ولهجتها القرشية، بعد أن أصبحت لغة قريش ذات السيادة والانتشار، فأصبحت مكة مزاراً لكل العرب، وحاز موسمها التجارى الأكبر (موسم الحج) مكانة لا تضارع، بعد أن أصبح موسماً لكسبهم وعبادتهم وسمرهم ومرحهم، حتى كادت مكة - على المستوى العرفى - أن تكون عاصمة لجزيرة العرب جميعاً.

وبسبيل مزيد من الحفاظ على المكاسب ودوامها، تمكن الملأ القرشى من تنظيم أسواق بعينها، فى هيئة مواسم منظمة بمواقيت، تتفق ومواسم المحاصيل، سواء فى الجزيرة أو شرق أفريقيا أو الهند، ووفق خطوط الرياح فى المحيط الهندى، وموعد وصول شحنات البحر من الهند وشرق أفريقيا إلى موانىء الساحل اليمنى، ووقت الطلب الشمالى لتلك البضائع والسلع بتقدير دقيق، يأخذ فى اعتباره أصغر العوامل، حتى طبيعة المناخ وموجات الحرارة والبرودة، مع تحريم مواقيت تلك الأسواق إيمانياً ومصلحيا، لضمان الموسم الأكبر (موسم الحج)، الذى تجمع فيه مواد بضائع الساحل اليمنى وأسواق الجزيرة الداخلية، لتشق رحلتها الصيفية إلى الشمال، بحيث أصبحت أشهر الحج والسفر الصيفى أشهراً حراماً، ثم كان فى الإمكان - للمصلحة التجارية، وحسب ظروف تطرأ أحياناً، وحسب الطلب، وتغير مواقيت السنة العربية القمرية مع السنة الشمسية الزراعية المحصولية، ولضبط الأشهر الحرام القمرية مع الرحلتين ومواسم الحصاد - تحريك تلك المواقيت، ونقل الأشهر من مواضعها بالإزاحة، فيما يعرف بنظام النسىء[١٥].

ولمزيد من الضمانات، نظم الملأ نواة أولى لقوات مسلحة من العبيد، ومن الأحابيش كانت مهمتهم الأساسية حماية أصحاب رؤوس الأموال والشخصيات الكبرى، وحراسة بيوت رجال الملأ، ثم المهمة الأساسية، وهى حراسة القوافل التجارية.

وعليه؛ فقد أخذت مكة - بتسارع - تتحول إلى حاضرة تتناقض مع البداوة والقبلية فى داخلها، كما تتناقض مع المحيط المتشرذم حولها فى جزيرة العرب، ومن ثم كان ضرورياً أن تمر مكة بتحولات بنيوية هائلة، فى تركيبتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التى انتهت بها من قبائل متشرذمة، إلى قبائل متقرشة، خاضعة لرجال الندوة من حكومة الملأ، لتنضح - باشتراك المصالح - تقريشها إيلافاً على محيطها القبلى فى الجزيرة، وبخاصة القبائل التى ألفها طريق الإيلاف الأكبر.

(١٥) المسعودى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧، ٥٨.

المتغير الاجتماعى

يروى (ابن سعد) فى طبقاته خبراً، يوافقه عليه جميع رواة السير والأخبار، والخبر يقول: إنه حين تغلبت قريش على خزاعة، وتسلم (قصىّ بن كلاب) - بعد أن كثر ماله وعظم شرفه - رعمه قبائل مكه المتحالفة معه، التى تقرشت، قطع (قصىّ) مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم[١٦]، وقد ذهب الكاتب (برهان الدين دلو) مذهب الباحث (حسين مروة)، فى تحديد المغزى التاريخى لهذا الحدث، بأنه «كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة، بطون قريش وحلفائها، روعى فيه الوضع المالى دون العرف القبلى، إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أدنى أسكن فى الظواهر، وهم قريش الظواهر، وكانت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة»[١٧]، وقد ركن الكاتب هنا، فى تقديره لسوء أحوال «قريش الظواهر» المادية إلى تقرير الباحث المؤرخ (جواد على) فى مفصله عن تاريخ العرب قبل الإسلام[١٨]. ومن ثم استنتج من التصنيف المشار إليه:

> إن الوضع المالى والتجارى لأبناء القبيلة، أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار، فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار فى مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالاً وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية فى قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة، مذ أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانها المالى والتجارى على كثير من قبائل المنطقة العربية خارج مكة، وبفضل مركز أمية المالى والتجارى، فإن أمراء القوافل كانوا منهم[١٩].

ونرى من واجبنا هنا التوضيح - حتى لا يختلط الأمر - حيث كان بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أبناء لقصىّ سيد مكة - المتقرشة - الأول والمطلق النفوذ، والأكثر مالاً، وكان طبيعياً أن يكون ورثته فى مقدمة قريش البطاح، وليس كما ذهب (دلو) لكون وفرة مالهم الأساسى كانت من التجارة، وإنما لورثتهم ألوية التشريف والسيادة عن سلفهم (قصى)، مما أعطاهم فرصة الحصول على النصيب الكامل من المكوس الجمركية لبضائع الترانزيت المارة بمكة، وهى الألوية التى يشرف كل منها على لون من الخدمات المأجورة، التى كانوا يؤدونها للتجار المارين بمكة

(١٦) ابن سعد: سبق ذكره، ج١، ص٧٠، ٧١.

(١٧) برهان الدين دلو: مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى، الفارابى، ١٩٨٥، بيروت، ص٥٩.

(١٨) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، د. ت، ج٤، ص١٩٥.

(١٩) دلو: مساهمة...، سبق ذكره، ص٦٠.

بقوافلهم، والتى حملت أسماء ألوية التشريف التى نظمها (قصّى)، للحصول على النصيب الأعظم من المكوس، وتمثلت فى (السقاية، والرفادة، والحجابة، والسدانة، واللواء، والندوة.. الخ).

والاعتراض من جانبنا يقوم على حجة أن تلك المرحلة كانت قبل انتقال قريش إلى مرحلة التجارة لحسابها، إلا أن إشارة الكاتب (دلو)، التى تؤكد أن الوضع المالى لأبناء القبيلة، قد أصبح يحتل الموقع الأول من الاعتبار، فهو الأمر الذى لا يمكن النزاع حوله.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان طبيعياً، بل كان محتماً، أن تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة فى الظهور بوضوح داخل القبيلة الواحدة، وهو ما انعكس بدوره على الوضع القبلى للقبائل الأخرى بالجزيرة، المرتبطة بحركة مكة التجارية، وهو ما كان العامل الأول فى تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة، وسيولة لزوجتها الجامعة لأفرادها، نتيجة للتطور التجارى، وما صاحبه من تقسيم للعمل، وتضخم ملكيات رؤوس الأموال، مقابل فارق طبقى كبير، نتيجة لتفاوت توزيع الثروة، مع اختلاف الأوضاع والأدوار فى العملية التجارية التى تقودها مكة، أو بالتحديد نفر متبعثر فى قبائلها، شكل الأساس الاقتصادى المتين بينهم رابطة قيادية للعملية التجارية، فتوزعت الأدوار ما بين ملاك للمال، إلى أدّلاء للقوافل، وحراس مسلحين، وعمال تشهيلات للشحن والتفريغ، وآخرين يبتهلون الفرص على الطريق لتقديم الخدمات الضرورية للقوافل، فى نقاط محددة ومحطات قاموا بإنشائها على الطريق للترغيب فى الاستراحة وبيع خدمات الراحة. هذا إضافة إلى المتاجرين الصغار، وشيوخ القبائل الذين يتقاضون الإتاوات، ثم الأهم وهو انتشار التعامل النقدى بعملات الفرس والروم، وهو ما أدى جميعه لفوارق وتفاوت، فكك بالتدريج روابط النظام القبلى القديم، نتيجة حتمية لوجود العبيد والمعدمين على الطرف الآخر غير المستفيد من العملية التجارية القائمة داخل ذات القبيلة، ومن ثم بدأت قيم القبيلة القديمة تتراجع.

والمعلوم أن القيم القبلية القديمة، كانت تقوم على المساواة المطلقة والامتلاك الجماعى لوسائل الإنتاج والثروة، ومن ثم توافقت معها علاقات الإنتاج، فكان الولاء الجماعى للقبيلة، وتماسك الكل فى القبيلة مع أى فرد فيها مهما صغر شأنه ضد الكون جميعاً، فهى تأخذ بثأره حتى لو تآكلت جميعاً، ثم هو معها كترس فى آلة عسكرية متحركة دوماً، لا رابط لها سوى تلك اللزوجة الاجتماعية، والسلف المشترك العزيز على جميع نفوس الأفراد، فكانت القبيلة، وكان السلف، هو الوطن، وكان ذلك اللون من العلاقات الاجتماعية هو الضمان الوحيد لسلامتها كوحدة محاربة متنقلة.

ولكن بعد التطور السريع، واستقرار أكثر القبائل، خاصة القوية، على الطريق التجارى الرئيسى، أو الطرق الفرعية، وظهور الفوارق الطبقية الحادة داخل القبيلة، لم تعد القبيلة مسئولة كل المسئولية عن الفرد فيها، وبدأت تظهر حالات خلع الأفراد الذين يمكن بحمقهم جلب الضرر للقبيلة التى شرعت فى الاستقرار، فظهرت طائفة الخلعاء المتشردين، ثم من جانب آخر ظهرت جماعات الصعاليك، أولئك الأفراد الذين بدأوا بدورهم يرفضون المنطق الجديد، ويهجرون قبائلهم، وأخذ تراكم رأس المال لدى أفراد بذاتهم يفعل فعله فى تحول الولاء عن القبيلة إلى الطبقة، كما أخذت قيم الولاء الجمعى تنداح مخلفة وراءها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً، تمثلت فى الفردية التى اتضحت فى إمكان تحدد قيمة الفرد دون جماعة، مع تحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر إلى قدر ما يملك من مال، وهو ما أفصح عن نفسه فى تكوين جيش العبيد والأحلاف والأحابيش، الذى كان مؤشراً بالغ الدلالة على بدء منطق جديد، يمكن فيه الاستغناء عن النفورة وعزة النفر القبلى، بعد أن بات ممكناً شراء النفر المسلح والمدرب، أو الحليف بالمصلحة المادية، وهو ما بدأ يخرج بالفرد عن القبيلة إلى التحالف المصلحى مع أفراد من قبائل أخرى، وهو شاهد واضح البرهنة على بدء تفجر الأطر القبلية.

وهكذا أمسى ممكناً أن تجمع المصالح بين أصحاب الثروات على تفرقهم بين قبائل مختلفة وعلى أن يجمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين قبائل مختلفة، وهو ما يشهد عليه بدء ظهور تجمعات أكبر من القبيلة، تمثلت فى أحلاف يأتينا خبرها فى أسمائها عبر كتب السير والأخبار، مثل حلف ذى المجاز وتنوخ، وحلف قريش والأحابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرباب، وحلف الحمس.. إلخ، لتشير الظاهرة إلى توجه اجتماعى جديد ينحو نحو التوحد على أساس من المصالح المشتركة.

لكن؛ علينا هنا أن نكون حذرين، فالمرحلة كانت مرحلة بدء، وكل تلك التطورات لم تكن تعنى تفجيراً كاملاً ومبرماً للقديم، لأنه بقليل من الجهد، يمكننا ـ ونحن ندرس مجتمع مكة تحديداً ـ أن نلحظ المحتوى الطبقى الجديد، وهو يتخفى برداء أو شكل قبلى عصبى عشائرى قديم، بمعنى أن الجديد قد تزيّا بالقديم، وسعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتهم بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح وإشراك صغار تجار القبيلة فى قوافلهم التجارية، مما أسفر فى المجتمع المكى تحديداً عن محتوى طبقى يتخفى داخل نسق عشائرى، تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين كبيرين قبليين، بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين ولكن بملامح وقسمات

قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر، وبخاصة فى بيت عبد المطلب، وإن كان من العلمية التوضيح أن ذلك الانقسام بدوره لم يكن تام التحديد بفواصل قاطعة مانعة، بل كان يتضمن بعض التداخل الطبقى بين العشيرتين، فضمت الطبقة الثرية أفراداً من هاشم، مثل العباس بن عبد المطلب، وأبو لهب (عبد العزى)، يشاركون أمية المصلحة الطبقية، ولذلك فإن المحتوى، وإن تغير، فقد ظل يتخفى بأردية عصبية النسق، وظل الشكل القديم محافظاً مع تغير المحتوى، لقد كانت المرحلة مرحلة بدء، بدء تحول، بدء طور انتقالى.

ويمكن للمطالع فى تلك المرحلة، أن يلحظ أمراً له مغزاه، فسيجد فقر هاشم وبنى عبد المطلب طارئاً جديداً، وهو ما يدفع إلى افتراضه متصلاً بالمنافسة التجارية التى يقع فيها البعض بالضرورة خاسراً، كما يفترض اتصاله بالصراع بين البيتين الهاشمى والأموى، الذى يضرب بجذوره فى الماضى إلى أيام الجد (قصىّ بن كلاب)، وهو الصراع الذى استعر حول حيازة ألوية التشريف السيادية، والتى بلا جدال كانت سلطوية فى بعض مناحيها كما فى لواء (الندوة) ولواء (اللواء)، وهى الألوية التى استحر صراع حرور حولها لأنها كانت عاملاً حاسماً فى القسمة الطبقية. بينما اعتمد الأمويون فى تقوية سلطتهم ونفوذهم على مزيد من التراكم الثروى، وعقد الموادعات والتحالفات التى تضمنها المصالح المادية المشتركة مع قبائل أخرى، فإن الهاشميين لجأوا إلى كسب مزيد من التشريف وألويته بتكتيك آخر، زاد فى فقدهم للأساس المادى باستمرار، لكنه كان منحى يهدف إلى كسب ولاء القبائل بالعطاء وبالبذل، لكسب الشرف الرئاسى بالجود والفضل، فهذا هاشم، يضع ثروته جميعها تقريباً فى قافلة قوامها الزاد، لفقراء مكة والقبائل، فى سنوات المجاعة المسنتة، وقام يهشم الثريد باللحم للجوعى بيديه، لذلك لقب هاشماً، أما اسمه الحقيقى فكان (عمرو)، وفى ذلك يقول (ابن كثير):

> .. هاشم واسمه عمرو، سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته..

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف[٢٠]

وإشارة (مطرود بن كعب) هنا، لعلاقة هاشم برحلتى الشتاء والصيف، إضافة لما سبق وأشرنا

(٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٦.

إليه فى أخذه الإيلاف لقريش من الملوك وزعماء القبائل، تلقى ضوءاً على علاقة البيت الهاشمى الوطيدة، القديمة، بالنظام التجارى الملكى، باعتباره أحد المؤسسين لنظام الإيلاف، ودوره فى التجارة العالمية، التى - لا شك - جعلت بيت هاشم أياماً، بيتاً ثرياً ينافس البيت الأموى، وإن أفقره ذلك الأمر غير الواضح بكتبنا التراثية، والذى أرجعناه افتراضاً إلى السقوط فى حلبة المنافسة، وإلى عنصر آخر غير تام الإقناع، وإن كان ذا دور هام، وهو الكرم والعطاء، لإقامة تحالفات مطلوبة فى الصراع، وكسباً للرجال فى حومة مقبلة، وإن كان ذلك العنصر فى منطق الجزيرة وطبعها المجدب الشظف، وخاصة فى تلك المرحلة الطبقية، ربما كان منطقاً مقنعاً للعرب أنفسهم بحق التشريف السيادى لهاشم، فكان للكرم لديهم مغزاه السياسى والاجتماعى، وكان مما يدعم الكريم بالتسييد وما يستتبعه التسييد من سلطة، وهو ما يدل عليه قول (حاتم الطائى) أكرم العرب وأشهرهم فى هذا الضرب السيادى:

يقولون لى: أهلكت مالك فاقتصد   وما كنت - لولا ما يقولون - سيدا[٢١].

ثم يخبرنا التاريخ أن (هاشم) قد دفع بالصراع دفعة كبرى، عندما دعم حلفه ضد (أمية) بزواج شرفى تعاقدى، مع أهل الحرب والدم والحلقة من بنى النجار، خزرج يثرب، وأن أخاه (المطلب) سار على نفس المنحى التكتيكى، وأن (عبد المطلب بن هاشم) قام بدعم آخر لحلف (هاشم / يثرب - الخزرج) بزواج آخر واستمر فى البذل حتى لقبته العرب بالفياض لكثرة جوده[٢٢]، فى الوقت الذى حافظ فيه ولده العباس على ماله، فكان كثير المال، وهو ما يشير إلى ممكنات الثراء فى البيت الهاشمى، لولا بذل هاشم وعبد المطلب وآله، وبخل شديد وحرص فى العباس، حدثتنا عنه كتب السيرة فى أكثر من مناسبة.

المستوى الفكرى

ومع مزيد من التراكم على خط التطور، كان لابد أن يتزايد التناقض بين الشكل والمحتوى، حتى يبلغ مداه التفجيرى للإطار أو الشكل، لصالح المحتوى الجديد، بعد تراكم الجديد داخل إطار ضاق به ولم يعد يسعه، وقد ساعد على زيادة ذلك التناقض بين الشكل والمحتوى، بقاء الشكل

(٢١) حاتم الطائى: (ديوانه)، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، د. ت، بيروت، ص ٥٨.

(٢٢) السهيلى: سيرة ابن هشام (الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، ضبط طه عبدالرءوف، دار المعرفة، ١٩٧٨، بيروت، ج ٢، ص ١٣١، انظر أيضاً: الحلبى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، د. ت، بيروت ج ١، ص ٢٢، ٢٣.

أوالإطار محكوماً بعلاقات استهلكها التطور السريع، فتفسخت القيم القبلية، رغم الإصرار الظاهر على استدامتها، هذا بالطبع مع الإفراز الفكرى للمرحلة التى اصطبغت بالشكل المادى النفعى، فاستبطن المحتوى الجديد، داخل فكر قديم، لكن فقط للمسامرات الفكرية، والندوات الديوانية، والممارسات الطقسية، والتبريرات النفعية، دون إيمان حقيقى، فعلى المستوى الواقعى، أمسى ظاهراً رفض العربى وخاصة المكى، لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة، خاصة إذا ما كان ذلك المكى من الطبقة الثرية الأرستقراطية، المترفة والمتحققة، حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة فى مأثوره الجديد، على لسان الصفوة التى أتاحت لها الثروة التزود بالثقافة الحضارية فى مدارس الامبراطوريات وجامعاتها، مجرد أساطير الأولين، وما كان يتم استدعاؤها عن قناعة، بل من باب التخديم على المصالح المادية، ولم يعد الفكر الدينى ومفاهيمه، سوى أسلوب لتنسيق المكاسب، ومطية لمنافع مادية بحتة.

ومن ثم تخبرنا صدور كتب السير والأخبار، بتسامح مطاط فى قبول أى دين وأى معتقد، مهما بدا شاذاً وغير مألوف، شرط أن يكون دافعاً لمزيد من الحضور التجارى، أو على الأقل شرط ألا يكون متضارباً مع المصلحة التجارية، وكان أمراً مفروغ الحدوث، أن يبلغ ذلك التناقض مداه على كافة المستويات.

فعلى المستوى الاقتصادى: كان تركز الثروة بيد أفراد دون آخرين داخل القبيلة، دافعاً لمزيد من تناقض الشكل القبلى والمحتوى الطبقى، وكان مفترضاً وصول التناقض لمرحلة التفجر لصالح المحتوى الطبقى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية ـ ولمصالح الملأ تحديداً ـ مكسباً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقى، لأن التفكك القبلى وبقاء القبلية وإطالة أمدها، كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهوالأمر الذى يفسره المستوى الفكرى.

وعلى المستوى الفكرى: كان الرب يمثل سيد القبيلة وسلفها ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية، يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، فكان المحتوى الطبقى يسير نحو تفجير الشكل القبلى لصالح توحد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض رب القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عند الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكانت الشريحة الأرستقراطية تنحو نحو التوحد المصلحى الذى احتاج أدلجة، أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ولأنهم السادة والملأ والحكومة، فقد جاء إلههم الجديد

فى مرتبة تتفق ومكانتهم، ليصبح فوق آلهة الكعبة جميعاً، وسيداً مطلقاً للكون الذى أمسكوا عنان تجارته بأيديهم، وراعياً غائباً لمصالحهم.

كذلك كانت فئة المضطهدين والمعدمين والعبيد، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب لا تعدل فى تقسيم الأرزاق، ومن ثم كان رفض تلك الأرباب لدى المضطهدين، قناعة مهيأة للإعلان العملى السافر. وقد برز الاعتقاد المكى فى إله واحد فوق أرباب القبائل وأسلافها المتعددين، الواقفين فى فناء الكعبة، وأمسى معترفاً به بشكل نهائى فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما قررته بعد ذلك آيات القرآن الكريم فى نصوص كثيرة متعددة، نقتصر منها على أمثلة تقول:

- ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾. (٨٦-٨٧/ المؤمنون).

- ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾. (٦١/ العنكبوت).

لذلك ظل التشرذم القبلى قائماً، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاص ومخاض، دون ميلاد حقيقى، يجمع العرب جميعاً فى مصلحة واحدة، ووحدة قومية جامعة فى ظل إله واحد، ولذلك انتشر الاعتقاد فى مهمة باقية لهذه الأرباب القبلية المتفرقة، وهى التشفع لأتباعها لدى الإله الواحد، واتخاذهم إليه زلفى وتقرباً، وهو ما كان ـ على المستوى النفسى ـ إخضاعاً داخلياً ذاتياً للقبائل، لملأ مكة وسيادة ذلك الملأ، عن طريق الاعتراف بسيادة إله الملأ على أرباب القبائل، وقد صورت آيات القرآن الكريم، المعنى الذى انتهى إليه أرباب القبائل بتصوير بليغ، يليق بصدق الوحى الكريم، وتطابقه مع واقع مكة والجزيرة، دون تفاوت ﴿ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾ (٣/ الملك)، بقول يأتى على لسان المشركين:

﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (٣/ الزمر).

وعلى المستوى السياسى؛ تجاوزت حكومة الملأ - أصحاب الندوة - الشكل القبلى القديم، لكنها حرصت على استدامة النقيضين حرصاً على المصلحة المادية، فكانت حكومة الملأ حكومة شبه جمهورية، تتجاوز الشكل المشيخى الرئاسى القبلى القديم، لكنها تستبطنه فى تمثيل رجال الملأ

للتعددية القبلية لبطون قريش، بينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى لصالح توحد كامل لشكل الحكم، بغرض القضاء على التمثيل القبلى والقبلية، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحسبانها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى، لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعاً لجميع عرب الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين الفردية والقبلية، الجديد والقديم، فى مرحلتها الانتقالية، نحو أمة واحدة، وهو ما يخبرنا التاريخ بأنه قد حدث، وذلك مع المرحلة الأولى من المراحل التى مرت بها أطوار الدولة المقبلة.

وقد تمثلت المرحلة الأولى فى تكوين تلك الدولة فى ظهور سلطتها، كسلطة نبوية، فى مكة بنداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعشيرته، بما بين يديه من سلطة نبوية (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، تلك السلطة التى استندت إلى أساسين أولين هما: السلطة النبوية المستمدة من الأساس الثانى والأعظم، وهى سلطة الله الأوحد العليا، الراعى الأقدر للدولة القادمة.

وبالفعل تتجاوز الدعوة الطالعة لمؤسسة الدولة المقبلة، التعدد العشائرى نحو توحد عربى جامع، وذلك بنزوع مبكر، نحو دولة غير اعتيادية، إنما امبراطورية تسد الفراغ السياسى العالمى، وتقضى على ما تبقى من تفريخات منهارة للامبراطوريات القديمة المتصارعة لصالح التطور الأممى الجديد، وهو ما تأتينا نبوءته الصادقة يتردد صداها فى جنبات جزيرة العرب بلسان النبى الأمين:

اتبعونى أجعلكم أنساباً

والذى نفسى بيده

لتملكن كنوز كسرى وقيصر.

وهو المعنى الذى كان يحمل فى طياته غرض كسب ولاء جماعة تضامنية، تشكل الأساس الثالث للدولة، جماعة تشكل نواة تأسيسية للأمة المقبلة.

ظهور الإسلام

كنا نقول حتى الآن: من الطبيعى ومن الحتمى، ومن الضرورى، فالأمر حسب قوانين التاريخ، لابد أن تؤدى مقدماته إلى نتائجه، متى ما توافرت الشروط، لكن هنا قد يجوز القول

لقائل: ومن الغريب أن ينهض بإتمام التطور إلى نهاية نضجه، لصالح الطبقة التجارية، فرد مكّى قرشىّ، هو نبى الإسلام - صلى الله عليه وسلم - محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ووجه الغرابة أنه نشأ يتيماً فقيراً كادحاً، ينتمى إلى فرع هاشم، بل إلى الغصن الأفقر فيه، غصن عبد المطلب وأبى طالب، وأنه لضرورات وظروف نشأته، بدأ حياته العملية من أجل الرزق، وهو لم يتجاوز بعد صباه المبكر، فاشتغل وهو أقرب إلى الطفولة برعى غنم أهله، ورعى غنم أهل مكة، الذين يرفلون فى ثراء النعمة، ثم - مع تجاوز الصبا إلى الرجولة - اشتغل بالتجارة لحساب الأثرياء، وهو ما يصلنا خبره فى رحيله إلى الشام، بتجارة لإحدى شريفات قريش (خديجة بنت خويلد الأسدى).

ومثل ذلك الانتماء كان كفيلاً بجعل أمر قيامه بدفع الأمر نحو غايته ونضوجه لصالح الطبقة التاجرة، أمراً غريباً لأول استطلاع، لكنه يعود طبيعياً تماماً، إذا ما تذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام، كان من مكة، ومن قريش تحديداً، دون سائر قبائل بلاد العرب، وإذا وضعنا بحسباننا الظرف الذى كان يدفع الحراك نحو غايته، تلك الغاية التى لم تعطلها دعوة النبى بل دفعتها حثيثاً نحو نتائجها المنطقية، مع اعتبار الخبرة النبوية فى الطفولة والصبا بالشظف والإملاق، فى وسط طبقى هائل التفاوت، ثم خبرة أخرى بحياة الدعة والطمأنينة بعد الزواج من أم المؤمنين، السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وكانت إحدى نساء قريش الثريات المعدودات، وهو الزواج الذى كان عاملاً ضمن عوامل، لانتقاله إلى انتماء جديد، لكنه انتماء خبر القديم، وأحس به حرماناً واستضعافاً وهواناً لا ينسى، فكان الدفع نحو إلغاء تلك القسمة المجتمعة بداية، والتى بدأت تحنفاً وتقشفاً وتعبداً فى حراء، رغم النعمة، على طريقة طائفة الحنفاء الذين انتشروا فى الجزيرة العربية، وفى مكة خاصة، فى العصر الجاهلى الأخير، يدعون إلى التوحد وإلى التوحيد وإلى المساواة وإلى العدل الاجتماعى(٢٣)، ويعتقد (حسين مروة) أن النبى - صلى الله عليه وسلم -، لم يكن حنيفياً بالتأثير أولمجرد التماّس مع ذلك الفريق أو مع بعضهم، بل يذهب إلى احتسابه واحداً من جماعتهم، وقد اعتمد (مروة) فى مذهبه هذا على تأكيد آيات القرآن الكريم لهذا المعنى، وضرب منها أمثلة من قبيل:

- ﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ (١٦١/ الأنعام).

(٢٣) حول ظاهرة التحنف والحنفاء، انظر: سيد محمود القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص ٥٧ : ٧٤.

- ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ (١٢٥/ النساء)(٢٤).

أما المنهج الأمثل الذى كانت تطلبه الأحناف لتحقيق التوحد ووحدة الأعراب وقبائلها، فهو التوحيد الربوبى، والدعوة بدعوة الإله الواحد، والسبيل إلى تحقيق ذلك، فيما ذهبوا إليه، نقرأه فى ملل الشهرستانى بلسان الحنفاء وهم يقولون:

إننا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر، تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقى إلى الإنسان بطرف البشرية(٢٥).

وهم بذلك إنما يطلبون النبوة، ولابد للوحدة السياسية من توحيد علوى يتمثل فى سلطة إلهية واحدة موحدة عبر نبى عربى، وهو ما يظهر واضحاً فى قراءة (أحمد إبراهيم الشريف) لواقع الجاهلية الأخيرة قبل الإسلام مباشرة فى قوله:

والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد، أنهم كانوا - حسب تفكيرهم - يتحدثون عن علامات ونذر تنبىء عن قرب ظهور نبى منهم، وقد روى القدماء معجزات ونذراً قالوا: إنها وقعت قبل ظهور الإسلام، إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات - إن صحت (!!) - كانت دليلاً على أن الجاهليين تطلعوا إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم، وكان الإصلاح قديماً لا يتأتى إلا على أيدى الحكماء والأنبياء، وهذا التطلع الطبيعى فى كل جماعة إحساس ضرورى يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها، ... وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد، لأنها بيئة لها وحدتها المميزة، من الناحية اللغوية ومن ناحية الجنس... وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب فى إحدى الديانتين (المسيحية أو اليهودية) لولا أنهم بدأوا نهضة قومية... لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزاً لقوميتهم... ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنواناً لها، لذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذين كانوا يعدونه أباً لهم... وقد

(٢٤) د. حسين مروة: سبق ذكره، ج ١، ص ٣٣١، ٣٣٢.

(٢٥) الشهرستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبى، ١٩٦١، القاهرة، ج ١، ص ٢٣١.

ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة، وكانت رمزاً إلى أن الروح العربي كان يتلمس يومئذ ديناً آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء... كان دليلاً على نضوج ديني فلسفي استعد له العرب في القرون المتطاولة السابقة... وكذلك كانوا يحسّون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذل وعار... وفي هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ظهرت النهضة العربية وكانت دينية، والدين كان عاملاً من عوامل التطوير والتقدم في العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية، إلا بانتشار العلوم، ووجود العوامل التي تنافسه في القيام بهذا الدور في العصر الحديث[٢٦].

وهو الواقع الذي وعي قراءته مبكراً ابن خلدون، عندما عرض في مقدمته لمسألة الوحدة السياسية للعرب في مملكة موحدة، وأكد أن الملك لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك في تقريره عن العرب:

أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة في الرئاسة، فقلّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس[٢٧].

أما الأكثر دلالة، ويضاف إلى مجموعة الإفادات السابقة، في رصيد الإجابة عن السؤال المطروح المستغرب، هو أنه رغم عدم إفادة المصادر الإسلامية بوضع رجال الدين في مكة، فإن تلك السدانة جاءت بدورها غير واضحة كما لو كان الغموض مقصوداً بكتبنا الإخبارية، ولم يبن بتلك الكتب ما إذا كانت السدانة طبقة بالمعنى المفهوم عن رجال الدين؟، وإن كان ما يفسر ذلك الغموض هو ارتباط الدين بالتجارة، مما جعل قريشاً تحوز جميعها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر أعراب شبه الجزيرة، وإن وجدنا وسط تلك الضبابية مجتهداً معاصراً، يعلمنا أن ذلك المنصب الديني كان متوارثاً في البيت الهاشمي تحديداً، ثم من بعده في البيت المطلبي بالذات، وهو ما يصرح به (أحمد عباس صالح) في قوله:

(٢٦) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، د. ت، القاهرة، ص ٢٣٩، ٢٤١ ط، ٢٤٥.
(٢٧) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار الشعب، د. ت، القاهرة، ص ١٣٦.

...وتستمد من هذه السدانة سلطة على سائر أهل قريش، وإن كنا نعلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، من سلالة هؤلاء السدنة من قريش(٢٨).

وهو الخبر الذى يفسر لنا سر السيادة فى الفرع المطلبى، وشرفه الرئاسى العظيم، رغم رقة حاله المادى، كما يفسر لنا كثيراً من توجهات هاشم من قبله، عندما ترك ولده عبد المطلب (شيبة ابن هاشم) ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله اليثارية، وحيث كان التاريخ الدينى يتواتر هناك فى مقدسات اليهود، مما يلقى ضوءاً على توجهات عبد المطلب فى الشئون الدينية، وما دعا إليه إبان حياته بشأن الإله الأوحد وبشأن الملة الإبراهيمية الإسماعيلية، وحديثه المسجوع كسجع كهان عرب الجزيرة المشهور، ونبوءاته التى أثبتت الأيام صدقها(٢٩).

وإعمالاً لكل ذلك، وتأسيساً على انقسام الجزيرة إلى وحدات، يصر الملأ على استدامتها قبلياً وربوبياً، ووقوف ذلك عائقاً دون تحقيق التطور لغايته، جاء الحضور التوحيدى فى الإسلام متحققاً على المستويين: المستوى المادى بسعيه لوحدة مؤسسية جامعة، فى دولة مركزية، وعلى مستوى الوعى بنهوضه على فكرة واعتقاد فى مبدأ أيديولوجى يضع النظرية لمؤسسة الدولة المقبلة.

وهنا يجب ألا يفوتنا انتماء النبى العشائرى إلى البيت الهاشمى، وهو ما دعاه إلى دعوة ذلك البيت من البدء إلى الوقوف مع الدعوة ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢١٤/ الشعراء)، لكنه تجاوز الخلافات بين البيتين الهاشمى والأموى، بتوسيع دائرة الدعوة بين البيتين، لكن تفصيلات الموقف، وما لحقه بعد ذلك من أحداث، فرضت انعطافات كثيرة على طريق الدعوة، فقد نفر منه الأمويون، واعتبروا دعوة الإسلام العظمى، خطوة أخرى من خطوات التكتيك الهاشمى، مما استدعى تحركاً آخر من قبل بنى هاشم، بنزوع عشائرى متماسك خلف ولدهم حماية له ووقاء، بفروض المنظومة القبلية وتحزبها، وربما مع وعى يقف فى صف المنظومة الوحدوية التى يدعو إليها، لكن دون الارتقاء إلى البنية العليا، وهو ما اتضح فى رفضهم للجانب الفكرى الدينى فى منظومته، أما الأمويون الذين تصوروا الإسلام الجليل صراعاً قبلياً، فقد لجأوا إلى محاولة رشوة النبى بالمال، ثم إلى محاولة ساذجة، تهدف إلى كشف مقاصد النبى الكريم ودوافعه، التى تصورت لهم رغبة فى الملك الهاشمى عليهم، فنصبوا له الفخاخ بدعوته إلى التملك عليهم، وهى الرشوة والخطة المكشوفة التى ما كان لها رد أبلغ من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(٢٨) أحمد عباس صالح: الصراع.. سبق ذكره، ص ٢٦.

(٢٩) بشأن عبدالمطلب وعقيدته انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص ٤٥ : ٥٤.

«والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر
فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر أو
أهلك دونه، ما تركته».

وهكذا بدا واضحاً أن الملأ لم يعوا المقاصد الكبرى للدعوة، ودورهم الممكن فيها، إزاء رؤية قاصرة، تقف عند حدود المصالح الآنية الأنانية المرحلية، ولم يتجاوزوا المنافع الضيقة لنفر معدود، التى تحققها التعددية الربوبية القبلية، ولم تتسع رؤيتهم لتستطلع الاتجاه التاريخى لمسار حركة التطور العام للحراك الاجتماعى العربى، ولم تع إطلاقاً أن ذلك الحراك هو تطور على درجة أعلى لمستقبلها كطبقة، تشكل نواة لشريحة كبرى، يمكنها أن تلعب دوراً كبيراً فى الفرز المرتقب للتشكيل التاريخى.

نعم لم يدرك الملأ أنهم الطبقة المؤهلة لقيادة الدولة، وأن قريشاً هى الفريق المؤهل لرئاسة حركة كبرى. وهو ما سيحدث بالفعل بعد ذلك. ولم يدركوا أن مصلحة الطبقة جميعاً على المستوى البعيد، مع التوحد فى دولة مركزية، تكون نواتها وعاصمتها مكة، تحت راية إله واحد فرد، يشكل الوحدة الجامعة الأيديولوجية، وتحت زعامة نبى عربى واحد موحد، لكن ذلك لا ينفى إدراك بعض عقلاء القوم - بوعيهم النافذ وحنكتهم وحكمتهم ودربتهم - للأمر العظيم، وهو ما يمثله موقف أكثر رجال الملأ حكمة وجلالاً (عتبة بن ربيعة)، ذلك العجوز الخبير الداهية، بعد أن التقى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، فهب ينادى قريشاً:

يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو
فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه
العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم،
وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به[٣٠].

وضاع كلام عتبة، وسط ضجيج الحمية للمصالح الأنانية الضيقة، وتراكم خطأ حسابات الملأ، مما دفع إلى خطوات أخرى، ومتغيرات أخرى، وبالتدقيق، يمكن قراءة دوافع ذلك الخطأ الأساسى وكشفه، والذى يكمن برأينا، فى مجاهرة النبى بضرب المصالح الآنية الأنانية لأطماع

(٣٠) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرءوف، ومحمد محيى الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، بيروت، ج ١، ص٢٣٨، ٢٤١.

الملأ التى لا تتوقف، بدءاً بضرب التعدد الربوبى القبلى، بهدف التوحيد الآتى، وإعلانه كفران قريش، وسلبها لقب (أهل الله)، ومخاطبته إياها بالقول: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ (١، ٢/ الكافرون)، ثم تسفيهه لمعتقداتها وعقائد العريان، الذين هم أشد كفراً، باتباعهم أرباباً وأسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ما كان أكثر نكاية للملأ، برفض الدعوة لقواعد التجارة السارية، بعد أن خبر النبى فى تجاربه السابقة وتجارته، ما تؤدى إليه هذه القواعد من تعطيل وتجميد للحركة التجارية، عند حدود المكاسب الأكثر عائدية للأرستقراطية المكية وحدها، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة وتعطيلهما عن أداء دورهما فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتنديده بلا هوادة بالربا والمرابين لدورهما فى سحق صغار التجار، بغرض تركيز الثروة بيد فئة لا تؤدى للمجتمع خدمات منوطة بوضعها السيادى، ثم ما يؤدى إليه الربا فى النهاية من استرقاق المدين، وهو ما يلقى بأيد مسحوقة لعمل غير مأجور، وكان لابد أن يسفر الأمر عن جفوة فعداء جهير، أدى بالنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى وجهة أخرى مرحلية، على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين وهم دوما مادة الحروب لمصالح الطبقات المسيطرة ومادة الانتقال الثورى لمصالح طبقة غيرهم والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب، وامتلاك كنوز كسرى وقيصر، التى تتضاءل أمامها كنوز الملأ، وإلى الشرف والكرامة، لتشكيل نواة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس.

وتبع تلك الخطوة متتابعات سريعة، فتم تكثيف الهجوم المباشر على الأثرياء، وتوعدهم بسوء المآل، حتى أسفر الهجوم أحياناً عن ذم الثروة فى ذاتها، مع وعيد وإنذار بعذاب مقيم، لمن يمارسون قواعد تجارية يجب تجاوزها، ومن أجل سيولة ونضوج أفضل، يسمحان بإشراك المجتمع كله فى الحركة الاقتصادية، فكان الهجوم على آكلى أموال اليتامى والمساكين، وعلى احتكار مواد المعيشة الأساسية، واستغلال الأرستقراطية لحاجة الناس من أجل ربح أقصى، فسفّه أمر من جمع المال وعدّده متصوراً أن ماله أخلده، غير عالم أن خلوده سيكون بالنبذ فى الحطمة، نار الله الموقدة، مع النذير للمطففين الذين ما أغنى عنهم مالهم وما كسبوا.

وعلى الجانب الآخر، كانت البشرى للمستضعفين، بأنهم بانضوائهم فى الأمة الجديدة، سيحلون محل الملأ، وذلك باعتصامهم جميعاً بحبل الله، وهو ما سيجعل هناك فرقاً بيّناً بين تكوينهم المجتمعى، وتكوين الذين تفرقوا واختلفوا قبائل وعشائر شذراً مذراً بعد ما جاءتهم البينات،

وهو ما سيترتب عليه حتماً تنازع هؤلاء وفشلهم وذهاب ريحهم، ومن ثم كان إعلان الوحي بالنتيجة المحتمة، والخطط المعدة للدولة الواحدة، في قوله:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (٥/ القصص).

فالمستضعفون، هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون الأئمة والقادة، وهم من سيرثون سيادة الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، واحد لا يفرق يجمع أصحاب المصلحة في التغيير في مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿... أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (١٣/ الشورى).

ومع ذلك المنحنى المرحلي - وإن كان أساساً جوهرياً في أسس الدولة - تفتحت الآمال أمام المستضعفين، فبدأوا يتذارفون فرادى إليها، دون قبائلهم وعشائرهم، مما جعل دخول كل منهم في المنظومة الجديدة، وتركه ولاءه القبلي، سهماً يطلق على جسم النظام القبلي، وكان تحول العبد عن سيده إلى جماعة المسلمين، يعني شراءه من قبل المسلمين لصالح الجماعة وإعتاقه ومنحه حريته، وهي الصورة التي اجتذبت أفئدة العبيد إلى جماعة لا تفرق في تشكيلها بين سيد وعبد، ولا ابن قبيلة وأخرى، إلا بمدى طاعته لقواعد الجماعة، التي قررها الوحي، فكان الإضعاف الإسلامي في تلك المرحلة للقبيلة، بإحلاله الولاء لجماعة الإسلام محل أي ولاء آخر، وهو ما تم تدعيمه بالانتماء الفردي في علاقة المسلم بالنبي وبالله، وهو ما ساعد على مزيد من انهيار الولاء للقبيلة، ودعا إليه الوحي بقوله:

﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (١١٣/ التوبة).

وكان القرار بأن الدولة ستقوم على نظام اجتماعي جديد، يميزها كأمة أخرى تماماً دون بقية الأعراب، هو ما أفصحت عنه أبلغ إفصاح، الصحيفة التي عقدت بعد ذلك بسنوات، بعد الهجرة إلى يثرب، والتي قررت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضري الكيفي، المتجاوز للتجمع القبلي الكمي، في نص مضيء في مبتداها يقول:

هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس[٣١].

(٣١) السهيلي: السيرة النبوية بشرح السهيلي في كتاب (الروض الأنف...) سبق ذكره، مج ٢، ص ٢٤١.

يثرب قبل الهجرة

خرجت قريش إذن - بعدائها للدعوة - عن قواعدها التى سنها الملأ، وقعّدها الأسلاف منذ (قصىّ)، فى حرية الاعتقاد، التى كانت تكفل سيولة الحركة التجارية، وتضمن اكتظاظ الأسواق بالرواد على مختلف الملل، ومن ثم أفصحوا عن رفض مبرم للدعوة الجديدة ولصاحبها، واحتسبوها - عن غفلة - حلقة فى تكتيك البيت الهاشمى، لصالح إمساكه بعنان السلطة وإلغاء سلطة الملأ، مما أدى بصاحب الدعوة إلى يأس مطبق من إفهام تلك الرؤوس المكية الصلبة. ولم يبق سوى البحث عن مكان آخر بعيداً عن مكة.

ولما كانت الأرض قد مهدت سلفاً، ببرمجة هاشم فى تحالفه مع أهل الحرب والدم والحلقة فى (يثرب)، وزواجه من البيت الخزرجى، وما تبعه فيه عبد المطلب بن هاشم بزواج آخر يصادق على الحلف، فقد كانت الخئولة اليثربية، مدعاة للمراهنة على نواة أخرى للدولة المقبلة خارج مكة فى (يثرب)، المدينة المنافسة الحقيقية لمكة.

ومعلوم أن علاقة مكة بيثرب كانت علاقة تنافسية، لكن مع اختلاف عميق بين كليهما فى التشكيل الاقتصادى والاجتماعى، فبينما كانت التجارة هى عصب الاقتصاد المكى، فإن أعمدة الاقتصاد اليثربى قد أضافت إلى عماد التجارة، وزراعة الكروم والحبوب، وكانت حبوب يثرب غذاء استراتيجياً لأهل مكة، هذا مع نشوء الشكل الحرفى حيث تعاظمت صناعة السلاح إلى حد كبير، وحققت اكتفاءها الذاتى، مع فائض جيد للتصدير، من سيوف ودروع وجحف ورماح وسهام، ولباس حرب من خوذ للرأس لا تظهر غير عينى المحارب، ودروع ذات سمات رومانية تغطى الجسد كله.

أما الشكل المجتمعى، فرغم أنه كان أميل إلى الاستقرار كنتيجة مباشرة لحرفة الزراعة، فإنه كان أقرب إلى القبلية المضطربة، نتيجة التكوين الهجين لعناصر ذلك المجتمع، لوجود عنصر غير أصيل العروبة والاعتقاد، مثلته ثلاث قبائل يهودية كبرى، هى قينقاع والنضير وقريظة، بينما مثل العنصر العربى، قبائل نازحة من اليمن، هى قبائل الأوس والخزرج، الذين حلوا على يهود يثرب، ولم يجد اليهود فى وجودهم غضاضة، بل على العكس، وجدوا فيهم تنشيطاً للاقتصاد اليثربى، وكأى تاجر سلاح، كان لابد من دسائس، تؤدى إلى صراعات تورث الضغائن والثارات، بين الأوس والخزرج، لمزيد من التنشيط الاقتصادى.

وقد أدى ذلك الوضع بيثرب قبل الهجرة، إلى صراعات قبلية كادت تمزقها، مما جعلها

فراغاً من السلطة السياسية، مقارنة بالملأ المكى، وهو ما كان يزيد فى ترجيح كفة اليهود الأثرياء، أما العداء بين يثرب ومكة، وخاصة بين عرب يثرب وعرب مكة، قد تأصل بفعل غياب دور يثرب فى مصالح مكة، فرغم وقوع يثرب على طريق الإيلاف الشامى، فإن حكومة الملأ القرشى لم تسع إلى عقد أى لون من التحالف المصلحى، الذى يمكن أن يعود على عرب يثرب بفائدة، اعتماداً على التمزق الداخلى ليثرب، الذى كان كفيلاً بشغلها عن مكة وتجارتها، بل وساهمت حكومة الملأ القرشية فى إضرام جذوة النار بين الأوس والخزرج، فوقفت إلى جوار الأوس يومى معبس ومضرس[٣٢]، حتى أوشكت عرب يثرب على انهيار تام، بحيث أسقطتها قريش، وخاصة كبار تجارها الأمويين، من معادلتها التجارية، هذا ناهيك عن العداء على المستوى النفسى، والذى كان سببه حرفة الزراعة، التى كان المكى يعيبها ويحتقرها، ويعتبرها مطعناً فى الرجولة، والرد النفسى الطبيعى على ذلك، من كراهية يثربية، لتلك النزعة المتعالية من عرب مكة، وهو الحال الذى تصوره بليغاً، قولة (أبى الحكم عمرو بن هشام أبو جهل)، ولوعته وعظيم أسفه، عندما شارك اليثاربة فى قتله، فى وقعة بدر الكبرى: «لو غير أكار قتلنى؟!»[٣٣]. والأكار هو الزارع.

ومن هنا كان التحالف بالمصاهرة بين الخزرج والهاشميين، ثم استقبال الخزرج لابن أختهم الهاشمى وصحبه، رداً لجرح تؤججه ذكرى معبس ومضرس، واستشفاء نفسياً، واستجلاباً لوضع أهملته قريش، وأسقطته من حسابات الإيلاف، واستشرافاً لوعد نبوى، استقبله الوعى اليثربى النفاذ، بوحدة تلم الشمل، لتقف يثرب كمنافس له شأن أمام الملأ المكى، وربما كعاصمة لدولة كبرى مع مداولة الأيام.

ومن جانب آخر، أدت حرفة الزراعة إلى سمة ميزت يثرب، فقد كانت دوماً فى حالة حذر من القبائل الضارية حولها، خوفاً على المحصول من السلب، ومن هنا كان الإكثار من إقامة الحصون والآطام والصياصى فى كافة نواحيها، وما تبع ذلك بالضرورة من طبع أهل يثرب بالخبرة الحربية والجلد، وهو ما تمرس عليه أهلها لكثرة ما جرى بينهم من حروب داخلية، أو حروب مع جيرانهم، فكانوا بالمقارنة مع أهل مكة أفذاذ حرب وأهل عدة وسلاح، حتى عرفهم التاريخ بأهل الحرب والدم والحلقة، بينما كانت مكة قد استنامت إلى أمنها، واطمأنت بإيلافها، وترهلت بترفها، فى وقت أصبحت فيه يثرب دار سلاح ومنعة، مما جعل اليثاربة رجال بأس

(٣٢) البلاذرى: أنساب.. سبق ذكره، ص ٦، ٧.
(٣٣) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

يعتدون بأنفسهم إلى حد عدم المبالاة التام بعداوة من يعاديهم، وأمسوا مرهوبى الجانب، ويكفى كى نعرف مدى اهتمام يثرب بالسلاح، أن نقرأ قائمة الأسلحة التى غنمها المسلمون بعد زمان من بنى قريظة، وهم بطن يثربية يهودية لم تكن أقوى البطون، فكانت مخلفاتهم ألفا وخمسمائة سيف من نوع سيوف داود المشهورة بقوتها وصرامتها، وألفى رمح من رماح يثرب التى رددت عنها أشعار العرب الكثير، وألف وخمسمائة ترس وجحفة، وثلاثمائة درع ملبّس، أما القسى والسهام فقل فى عددها ما تشاء[٣٤]، وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما توفر ليثرب من ماء وغذاء إلى حد الاكتفاء الذاتى، أدركنا ما تملكه يثرب من ممكنات الصمود الحربى، وهى كلها اعتبارات لا شك كانت معلومة لصاحب الدعوة، أما قيمتها الكبرى فكانت تتمثل فى وقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى.

المستوى الفكرى

أما على المستوى الفكرى، فكان واضحاً أن يثرب فى اختلاف كبير عن مكة، حيث أدت عوامل عدة، إلى تكون الفكر اليثربى بألوان جد مخالفة للفكر المكى، فبينما كان الفكر المكى قد تجاوز مجموعة العقائد القديمة على مستوى جدية الاعتقاد وصدق الإيمان، وتحولت العقائد عنده إلى أداة يمكن تخديمها لصالح المكاسب التجارية، وتحولت قصص السالفين من أبطال وأنبياء، إلى أساطير الأولين، فإن وجود اليهود فى يثرب، مع كتابهم المقدس، وحكاياتهم عن قدامى أنبيائهم، وسلوكهم وفق شرائع محددة وضعها أولئك الأنبياء، وضع التاريخ الدينى، والنبوى منه تحديداً، موضع احترام بين عرب يثرب، ناهيك عن النبوءة التوراتية المتواترة، عن مجىء نبى آخر الزمان، ليقيم لليهود دولتهم الغابرة، التى سقطت وانتهى أمر يهودها بالشتات من فلسطين عام ٧٠م على يد الرومان، وهو ما وجد فيه اليثاربة العرب عند ظهور الدعوة الإسلامية إنباءً بالنبى - صلى الله عليه وسلم - كان مخبوءاً فى رحم التوراة القديم، لكن مع تحليل جديد، فى ضوء المعنى الأممى الذى خرج بالنبوة عن دائرة بنى إسرائيل الضيقة، وعن العنصرية اليهودية المتزمتة، إلى آفاق رحبة، تستوعب فكرة عدم عنصرة النبوة وتجنيسها، وخروجها عن اليهود إلى الأمم، فكان الرسول أمياً، من الأمم، غير يهودى، عربى، زعيماً

(٣٤) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، ط ٢، القاهرة، ص ٣٥٠.

للعرب، ومؤسساً لديانة عالمية، وليس حكراً على بنى إسرائيل، ودولتها الغابرة، أو المقبلة فى حلمها التوراتى.

ثم كان التوحيد التوراتى، مدعاة لاختلال عرب يثرب بالوثنية، مما هيأهم لقبول فكرة التوحيد، والإقبال عليها عندما جاءت عربية، يدعو إليها نبى عربى، يفاخرون به اليهود الذين طالما تفاخروا عليهم بتاريخهم النبوى، وكتابهم المقدس. هذا فضلاً عن تواضع النضوج الاقتصادى والاجتماعى فى يثرب، مقارناً بما حدث فى مكة، فبينما أصبحت الأفكار الدينية فى مكة وسيلة لمزيد من الارتزاق، فإن العكس كان عند عرب يثرب، حيث كانت الحرمات التى فرضها السلوك اليهودى، تمهيداً طيباً لقبول عقيدة إيمانية توحيدية، ليس فقط لتحقيق أهداف بعينها، بل بنفوس تأثرت بالتراث الدينى التوراتى حولها، مما جعلها أكثر قبولاً لتصديق الدعوة وتقديس الإيمان، هذا إضافة إلى الثراء الفكرى، الذى صاحب ذلك المناخ، وسببته متاخمة يثرب للمناطق الحضارية العريقة فى الشمال، على حدود الامبراطوريتين الفارسية والرومانية.

الهجـرة

وإعمالاً لكل تلك الظروف، يمكننا أن نقرأ ببعض الوعى، لقاء العقبة الأول والثانى بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين نقباء يثرب، لنرى فيه وثيقة ميلاد الدولة وهى تدون فى التاريخ، باتفاق بين أخوال النبى اليثارية، وبين النبى الأمين، والتى ظهرت فى البدء كما لو كانت مجرد اتفاق دفاعى عن شخص النبى، حيث كان النبى فى مكة ممتنعاً ببيته الهاشمى ممن عاداه وخالفه، وكان معنى الاتفاق على الهجرة إلى الأخوال، هو الانتقال إلى حمى جديد، يرفع الضغط عن الأعمام، فى شكل يظهر كلون من الحماية، وكان للأحداث دلالتها الصادقة، التى تنطق بمدلولاتها فى ذهاب (العباس بن عبد المطلب) عم النبى، وهو بعد على دين قومه، مع ابن أخيه، للقاء اليثارية سراً فى العقبة الثانية، وهو لم يذهب - فيما يقول (الطبرى) - «إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له»، وكان هو أول المتكلمين، فى هذا الاجتماع التأسيسى، فقال:

> يا معشر الخزرج، إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم وافين له بما دعوتموه إليه،

ومانعيه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه، فإنه في عزة في قومه، ومنعة في بلده(٣٥).

لكن الواضح بما لا يقبل جدلاً، أن فكرة الحرب والنية عليها، كانت قائمة ومبيتة في ذلك التحالف، وقد وعاها الأنصار جيداً، حتى قالوا:

بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب والحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

ولما اعترض (أبو التيهان الأوسى) الأمر بقوله:

يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالاً وإنا لقاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك لله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى.. وبعد المبايعة قام الرجال لينصرفوا، بينما قال (عبادة بن الصامت) للنبى: إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا...

فكان رد النبى، بتأجيل الإمالة بالسيف، وتحديد من سيميل عليهم السيف، إلى ما بعد الهجرة، بقوله:

لم نؤمر بعد(٣٦).

والواضح إذن أن اللقاء التأسيسى كان حلفاً محارباً وليس حلفاً دفاعياً عن النبى، وأن الحرب كانت هى القائمة، وكانت هى البند الأساسى، من أجل الهدف الأعظم، قيام الدولة الكبرى.

وبالفعل تمت الهجرة إلى يثرب، ولم يجد العنصر اليهودى فى يثرب أية مشكلة فى استضافة الخزرج لابن أختهم وصحبه، واحتضانهم لدعوتهم، تأسيساً على موقف عملى تكسبّى، أدى إليه نجاحهم السابق في احتواء الهجرة اليمنية (الأوس والخزرج)، وتوظيفها لصالح مزيد من

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، د. ت، القاهرة، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٣٦) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق د. عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، بيروت، السفر الثانى، ص ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٥٤.

المكاسب، وترويجاً لصناعتهم الحربية، وضعف المهاجرين الظاهر الذى لا يشكل أى خطر، وهى عوامل دعت للاطمئنان، وإمكان احتواء هذا الوافد الجديد، وهو الموقف الذى دفعت إليه وأذكته الآيات الكريمة التى سبقت الهجرة فى الوصول إلى يثرب، تتحدث عن مكان بنى إسرائيل فى التاريخ السياسى للمنطقة (مملكة داود وسليمان)، ومكانتهم فى التاريخ الدينى (مجموعة الأنبياء من نوح إلى إبراهيم وإسحق ويوسف وموسى... إلخ)، بصياغة تكريمية عظيمة، تقدم احتراماً واضحاً أيضاً للتوراة اليهودية، كما فى قولها:

- ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة).

- ﴿... إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة﴾ (٦/ الصف).

هذا مع الاحترام حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة، وأخذها بالاعتبار، والإشارة إليها فى الآيات، كتابوت الإله اليهودى (يهوه)، وكتابة الله لألواح موسى.. إلخ، ثم الموقف العملى للنبى عند وصوله يثرب، حيث استقبل قبلة اليهود فى الصلاة، بل وصام الغفران، ثم عقد الصحيفة مع اليهود، للتعاون والأمن والدفاع المشترك مع كفالة حرية الاعتقاد التامة، مع إعلان عن عدم التناقض الاعتقادى، وهو ما تنطق به آيات كثيرة منها:

- ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ (٩١/ البقرة).

- ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ (١٣٩/ البقرة).

وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب، لوناً من ممكنات مستقبلية، تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، ومكاسب مادية جمة.

لكن الغنى عن الذكر هنا، أن يهود يثرب وهم يهيئون أنفسهم للكسب، اكتشفوا - خاصة بعد بدر الكبرى - خطأ حساباتهم القاتل، حيث تحدد الموقف تماماً بعدما كسبه المسلمون فى بدر من قوة مادية ومعنوية، لم تجعلهم فى حاجة إلى مثل ذلك التحالف النفعى، حيث أثبت التجار المهاجرون حذقاً وحنكة بحكم الدربة والخبرة، مما جعلهم منافسين أقوياء ليهود يثرب، وقد دعم ذلك النجاح التجارى، ما لحق بأساليب المهاجرين التجارية من تهذيب قننه الإسلام، بحيث تناقضت مع طرائق اليهود الشبيهة بأساليب الملأ المكى، من احتكار للسلع، والمغالاة فى الكسب، مع الكسب الربوى الذى بات محرماً فى قوانين الدولة الجديدة.

وهنا تأتى المرحلة الثالثة من مراحل تكون الدولة الإسلامية، بعد المرحلتين: الأولى بظهور

السلطة النبوية فى مكة، والثانية المتمثلة فى بيعة العقبة الثانية، أما الثالثة فهى الواقعة بمجمل أحداثها ما بين الهجرة إلى المدينة وبين غزوة بدر الكبرى، كما ستبينها الأحداث التالية.

وفى بداية المرحلة الثالثة من مراحل تأسيس الدولة، وحتى يصبح ممكناً حل إشكاليات الفرقة القبلية بين الأوس والخزرج، قام النبى - عليه الصلاة والسلام - بتأمين الحد الأدنى من التآلف الداخلى، بمصالحة الأوس والخزرج، ثم مؤاخاة المهاجرين والأنصار، أما على المستوى الإيمانى فقد صارت الأخوة الإسلامية ضرباً للفرقة التى سببتها العصبية القبلية، بحيث صار خارجاً على جماعة المؤمنين من فضل أخيه فى القبيلة والعشيرة، على أخيه فى الإسلام، وهو ما نشهد له نماذج بالغة القوة، ربما كان أبلغها ما أضاء تحت غبار وقعة بدر الكبرى، فبينما كانت قريش تخشى إراقة دم أحد من أبناء العم أو الخال من المهاجرين، كان المسلمون يحاربون غير هيابين ولا مبالين فى هذا السبيل بأحد من الأقارب، وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ (٦٣/ الأنفال).

ويحكى ابن هشام فى سيرته «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أقبل بالأسارى من بدر، فرقهم بين أصحابه... وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير فى الأسارى، فقال أبو عزيز: مر بى أخى مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال شد يدك به، فإن أمه ذات متاع ولعلها تفتديه منك... فقال له أبو عزيز: يا أخى هذه وصاتك بى؟! فقال مصعب: إنه أخى دونك»(٣٧).

أما المدى الذى بلغه أمر تلك الأممية والأخوة الدينية، فيظهر واضحاً فى رد (أبى حذيفة بن عتبة) على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يوصى قبل معركة بدر مباشرة: «من لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله... ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله»، فكان رد (أبى حذيفة) الذى لا يستثنى من الأممية أحداً «أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف»(٣٨).

والأمثلة كثير، سردها إطالة لا حاجة لها، لكن الدرس المأخوذ هنا، هو أنه بينما كانت مكة تتفكك قبلياً لصالح الشكل الطبقى، كانت يثرب تتوحد إيمانياً وطبقياً، وتذوب فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم، لتشكل نواة الدولة المقبلة.

(٣٧) السهيلى: شرح السيرة.. سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٤.
(٣٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٠، ١٤١.

من أدران الجاهلية وأصنامها - لم تكن مجرد مصادفة، خاصة إذا ما تذكرنا أن قبلة المسلمين كانت آنذاك إلى بيت المقدس.

وهنا نستكشف الأساس الرابع من الأسس التى قامت عليها الدولة، بعد الأسس الثلاثة المتمثلة فى السلطة النبوية والسلطة السيادية الإلهية، وتكوين جماعة تضامنية أولى كنواة تأسيسية للدولة، ويظهر الأساس الرابع للدولة فى تحول الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل، أى تجييش مادة الدولة، وتحولها من مستضعفين مهاجرين - إلى وحدة أو دولة عسكرية مقاتلة. والآن، لا يجب أن نفاجأ عندما نجد يثرب ترسل سراياها لقطع طريق الإيلاف، هذا ما يجب تذكره من أمرين كانا بداية الضغط على الملأ المكى، الأول هو منع يثرب قمحها عن مكة، أما الثانى فهو موادعة قبائل الساحل القديمة حول ميناء (الجار) على البحر الأحمر ليثرب، والذى كان يعرف أنه ميناء يثرب على البحر، ومنه تم منع شحنات القمح الوارد من مصر إلى مكة، ولم يبق سوى طريق الإيلاف الشامى خالصاً لمكة، ومن ثم دهمت دوريات المسلمين هذا الطريق دون كلل، تتصدى للقوافل القادمة إلى مكة أو الآيبة منها، وهى الدوريات التى بدأت - محددة أهدافها - مبكراً، وقبل مضى سبعة أشهر على الهجرة، حيث خرجت أولى تلك الدوريات النشطة فى سرية بقيادة (حمزة بن عبد المطلب)، لاعتراض عير لقريش، فى ثلاثين مهاجراً، لكن السرية فوجئت أن قريشاً كانت يقظة، فأردفت بقافلتها ثلاثمائة محارب بقيادة أبى الحكم نفسه، فتدخل (مجدى بن عمرو الجهنى) ليحجز بينهما وينهى الموقف، واكتفت حراسة القافلة بالانصراف إلى سبيلها، بعد أن أقنعت المهاجرين باقتدارها، وكثرة عددها وعدتها.

ولم يمض شهر على سرية (حمزة)، حتى خرجت سرية بقيادة (عبيدة بن الحارث بن المطلب) إلى (بطن رابغ) بمقاتلين من المهاجرين، فالتقوا بقافلة لقريش، يبدو أنها كانت بدورها فى حراسة جيدة، وهو ما يستنتج من عدم الاشتباك، واكتفاء السرية اليثربية برميها بالنبال عن بعد.

وبعدها بأيام خرجت سرية (سعد بن أبى وقاص) إلى الخرار، ليلحق بقافلة لقريش، ولم يتمكن من اللحوق بها، وكانت بدورها لا تحوى فى مقاتليها سوى رجال من المهاجرين.

ومن ثم خرج المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه غازياً على طريق الإيلاف، بقصد تفكيك الإيلاف والولاء القبلى لقريش، وهناك تمكن من سلخ إيلاف بنى مدلج عن قريش، وأخذ عليهم عهود الموادعة بعهد مكتوب، ثم لم يلبث سوى عشر ليال حتى أغار النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد (كرز بن جابر الفهرى)، لكنه لم يدركه، وهى الغزوة المعروفة بغزوة (بدر

مكة والحصار

تمكن إذن النبي العربي - صلى الله عليه وسلم - من تسكين أوضاع يثرب الداخلية، خاصة بعد إعطائه مركز الزعامة لسعد بن معاذ زعيم الأوس، حتى لا تحتسب عليه مظنة موالاة أخواله من الخزرج، بعد أن تمكن من تحييد زعيم الخزرج (عبد الله بن أبى بن سلول)، مما ربط الأوس بالدعوة وصاحبها، إضافة للارتباط القرابى للخزرج به، وبعد تحييد اليهود بالصحيفة، ومؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، بدأ العد التنازلى للإجراء المقبل، وهو ما جاء في قصة ترويها كتب السير والأخبار، عن هبوط كبير الأنصار (سعد بن معاذ) إلى مكة، فى رحلة تقول كتب السير إنها كانت - فقط - لأداء العمرة، حيث نزل ضيفاً على صديقه (أمية بن خلف)، أحد أشراف قريش وسادتها.

> فنزل سعد على أمية بمكة، وقال سعد لأمية: انظر لى ساعة خلوة، لعلى أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان؛ من هذا معك؟ قال: هذا سعد، قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ والله لولا أنك مع أبي صفوان، ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد - ورفع صوته عليه -: أما والله لئن منعتنى هذا، لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة[39].

وهكذا كان الاختبار، وهكذا كان الرسوب، ورسب أحد كبار رجالات الملأ بجدارة، لأن تحريم أمن البيت وزواره، كان تأميناً لكل الملل والنحل، من أجل أمن التجارة وسيولتها وتدفقها مع زوار مكة، وكان تهديد أبى الحكم لسعد كبير عرب يثرب الجديد، إنما يعنى أن قريشاً قد بدأت تفقد أعصابها، ومع فقد الأعصاب تضيع المصالح، فقامت تهدد - بموقف أبى الحكم وتهديده لسعد - مصالحها التجارية بيدها.

أما الأمر الذى لا يفوت على لبيب، فهو الإنذار المتضمن فى رد سعد لملأ مكة بما هو آت، من حصار اقتصادى يقطع عليها الطريق إلى الشام، ولعل تلك العمرة التى أداها (سعد بن معاذ) - على الطريقة الوثنية، وطقوس الشرك، والتى لم يكن الإسلام قد أقرها بعد، ولم يكن قد طهرها

(39) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، مج 1، ص 378.

الأولى)، لوقوعها على طريق وادى سفوان قرب بدر، وفى صفر، مع نهاية العام الأول للهجرة، خرج - صلى الله عليه وسلم - فى رجاله من المهاجرين إلى مواضع أخرى على طريق الإيلاف، ليفكك عقود بنى ضمرة بن بكر من كنانة عن قريش، ويعقد معهم عقود الموادعة والتحالف بعهد مكتوب[٤٠]، وفى ربيع أول أرسل (عبيدة بن الحارث) على رأس سرية من المهاجرين حتى بلغت (ماء إحياء) للاستيلاء على قافلة لقريش، لكن السرية عادت دون قتال، بعدما وجدته من حراسة مشددة مع القافلة، ومع بداية العام الثانى للهجرة لأيام خلت منه، غزا النبى - صلى الله عليه وسلم - يريد عيراً لقريش فيها ألفان وخمسمائة بعير، ولم يحدث هذه المرة أيضاً أى قتال وحتى الآن كان واضحاً أن الأنصار كانوا مجرد مضيفين، لا يخرجون إلى قتال أو قطع طريق[٤١].

ثم جاء أخطر إنذار تلقاه ملأ قريش، عندما قامت سرية من تلك السرايا، بضرب الإطار التحريمى للأشهر التجارية الحرام، وهى سرية (عبد الله بن جحش)، التى لقيت عيراً لقريش فى (نخلة)، فقتلت (عمرو بن الحضرمى) أحد رجال القافلة، وأسرت رجلين، واستولت على القافلة، وهو ما دفع قريشاً للجأر بالشكوى تصيح: إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الأشهر الحرم وسفكوا فيها الدم وسلبوا الأموال وأسروا الرجال[٤٢].

وهنا جاء رد الآيات الكريمة المفحم، يحمل أكثر من دلالة، حول مفهوم الأشهر الحرام، وقيمة ذلك التحريم أساساً، ومدى قناعة القوة اليثربية الطالعة بتلك القيمة، وأخذها على مأخذ الجد من عدمه، خاصة بعد أن أكثر الناس الكلام عن استحلال أصحاب محمد للشهر الحرام، ثم أن الرد حمل أيضاً تحديداً واضحاً لمن أصبح بيده الأمر، وبإمكانه التحليل والتحريم، ناهيك عن قيمة قريش ذاتها كراعية للأشهر الحرام، وصاحبة لقب (أهل الله)، وقيمة ذلك اللقب ومدى مصداقيته، لأن الرد كان:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ (٢١٧/ البقرة).

ولم يكن هناك رد على استصراخ قريش العريان لحرمة الأشهر الحرام، أبلغ من ذلك الرد،

---

(٤٠) ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتيتر، دار الآفاق الجديدة، د. ت، بيروت، ص ١١٠.

(٤١) الطبرى: التاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٢ : ٤٠٧.

(٤٢) نفسه: ص ٤١٠ : ٤١٣، انظر أيضاً: محمد أبو الفضل ومحمد البجاوى: أيام العرب فى الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ط ٤، ١٩٦٨، بيروت، ص ٨.

لتراجع موقفها، وتضع مصالحها وهيبتها ونظامها الاقتصادى والقانونى التحريمى فى الميزان، وهو الموقف الذى بدأت قريش تراجع حساباتها بشأنه، ويأتينا خبره بلسان (صفوان بن أمية) وهو يقول:

> إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمداً ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف، وإلى اليمن فى الشتاء(٤٣).

لكن الحال ـ على أية حال ـ شهد تلاحقاً فى الأحداث، تجاوز تلك المراجعة، حيث طيّر الخبر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى يثرب، بخبر قافلة لقريش فى طريقها إلى الشام بقيادة (أبى سفيان)، قوامها ٢٥٠٠ بعير، فيها بضائع يربو ثمنها على ٥٠٠٠٠ دينار، بدنانير ذلك الزمان، والقيمة الشرائية لنقد ذلك الزمان، ساهم فيها البيت الأموى الثرى، المعادى لبيت النبى الهاشمى، بأربعة أخماس القافلة(٤٤).

وكان ذلك الخبر مدعاة لتداعيات أخرى متسارعة، فجّرت صراعاً عسكرياً، كان مبتداه وفيصله، غزوة بدر الكبرى.

---

(٤٣) ابكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ج ٢، ص ١٤٥٨.

(٤٤) د. جواد على: تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، ١٩٨٣، بيروت، ص ٧٧، ٧٨.

الباب الأول

بدر الكبرى

قراءة أخرى

باب أول

طالــــوت ومحمــــد

﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾

[٢٤٧/ البقرة]

والمثل المضروب فى الآيات هنا، عن أول ملك لبنى إسرائيل، رفاق الحلف الدفاعى فى جماعة يثرب التضامنية، وهو الملك المعروف فى العهد القديم من الكتاب المقدس باسم (شاؤول)، والوارد فى آيات القرآن الكريم باسم (طالوت)، وقد اختاره لهم فى الآيات (نبيهم) غفلاً من أى تعريف، وهى المعرفة التى يمكن الحصول عليها بالرجوع إلى الكتاب المقدس، حيث يلتقى ذلك النبى تماماً ويتطابق، مع شخصية القاضى الكاهن (صموئيل)، وفى سفرين باسم (صموئيل) بالكتاب المقدس، يمكنك العثور على كثير من التفاصيل بهذا الشأن، حيث تعرض الإسرائيليون - تحت حكم نظام القضاة الكهنة، وهو نظام قبلى يجمع الحكم الدنيوى مع الدينى - لعدد من الهزائم، أمام سكان الساحل الفلسطينى، وكان مرجع تلك الهزائم كما هو واضح بتلك الأسفار، نتيجة استمرار النظام القبلى، الذى شتت الولاء بين اثنتى عشرة قبيلة (الأسباط)، وأوقف تطور المجتمع القبلى الإسرائيلى نحو حكومة مركزية واحدة قوية، وجعل جيشها مجموعات غير منظمة ولا موحّدة، تعود بولائها إلى متفرقات القبائل، التى ربما تعود - أو لا تعود - إلى صلات قرابية بعيدة فيما بينها.

هذا بينما كان الفلسطينيون، سكان الساحل شعباً مستقراً، ورغم انقسامه بدوره إلى مجموعة دول مدن، فإن الولاء فى الدولة المدينة كان للدولة المركزية، ومركزية الملك المنظم، ومن هنا انتهى بنو إسرائيل إلى نتيجة مفادها: أن هزيمتهم تعود بشكل مباشر إلى نظامهم الاجتماعى والسياسى، وبات مطلوباً صهر تلك القبائل تحت حكم ملك واحد، ومن ثم كانت مطالبتهم العاجلة والعنيفة، لكاهنهم وقاضيهم وحاكمهم القبلى (صموئيل)، باختيار ملك لهم جميعاً يوحدهم فى دولة واحدة.

وخضع (صموئيل) لضرورات الظروف، واختار لهم (شاؤول) ملكاً، ليصهر القبائل جميعاً فى وحدة واحدة، وشعب واحد، بقيادة حكومة واحدة، لها جيش واحد، وبالفعل - حسبما تخبرنا رواية التوراة - تمكن (شاؤول) ومن تبعه من ملوك مباشرين (داود وولده سليمان)، من صهر تلك القبائل المتفرقة فى كونفدرالية واحدة، وتمت مركزة الحكم، التى انتهت بتفوقهم على أصحاب الأرض، وإقامة الدولة المركزية[1].

والمثل المضروب فى الآيات القرآنية، يطلب من المسلمين استدعاء الدلالات لقراءة واقع مماثل لقبائل متفرقة تحت حكم بدائى، ممثل فى حكومة الملأ المكية، التى لم تتمكن من مركزة الولاء، كنتيجة حتمية لتفرق التمثيل القبلى بين أعضاء الملأ، الذين كانوا أثرياء البطون القرشية،

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم: انظر سفرى صموئيل الأول والثانى، وملوك الأول والثانى.

والذين لم يمثلوا الفئات الموزعة بين القبائل تمثيلاً صادقاً، والذين ـ وهذا المهم ـ رفضوا الدعوة التوحيدية الطالعة.

لكن الآيات وهى تستدعى واقع مكة، لتلحقه بالتاريخ الإسرائيلى فى المثال المضروب، ترحل بالتساؤل المكى القرشى من رجال الملأ، ليصبح تساؤلاً من بنى إسرائيل لصموئيل: «أنى يكون له الملك علينا؟»، وهو التساؤل الاستنكارى الذى يحمل معانى جديدة، ومواصفات جديدة، يجب أن يتصف بها السيد الزعيم، وهى المعانى والصفات التى حملتها رياح التغير الاقتصادى إلى مكة، مع الثراء الفاحش الذى أصاب البعض دون الآخر، وبدأ يفعل فعله فى تفجير الأطر القبلية القديمة، ولم تعد مواصفات الزعيم كما كانت فى الماضى العشائرى، من حكمة تؤهله كى يكون رأساً للقبيلة، أو حنكة، أو شجاعة أحياناً أخرى حسب ظروف القبيلة إن سلماً أو حرباً، بل تحول الأمر بعد تشكل الطبقة الأرستقراطية المتميزة، وتغير المعيار، وتبدل أساليب القياس، وهو ما عبر عنه استطراد الآيات «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه»، وهى الأحقية التى يأتى معيارها القياسى واضحاً فى الإلحاق التوضيحى «ولم يؤت سعة من المال». (٤)

نعم، ربما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حاز قدراً من المال، توفر له بعد زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، لكن ذلك القدر من المال ما كان ليسمح له ـ فى نظر الملأ ومعاييرهم ـ بما يدعو إليه، ولا يفى له بما يؤهله لدخول حكومة الملأ الأرستقراطية، فما بالنا وهم يتصورونه يسعى للإمساك بأعنة السلطة جميعاً بيديه؟ حيث المعيار لم يعد مجرد حصول فرد على بعض المال، حتى يذهب به الطموح ـ كما تصوروا ـ إلى الجموح، فالمؤهل المطلوب قد أصبح «سعة من المال».

ومن ثم؛ كانت قراءة الواقع تشير إلى سير التطور إلى نتائجه المحتمة والضرورية، والتى ستشكل فى المستقبل المنظور، منظومة سياسية مركزية موحدة، تحت قيادة زعيم أوحد، ولم يكن ثمة توضيح يمكن تقديمه لمفاهيم الأرستقراطية القرشية، ولا للمسلمين الأوائل وهم مادة الدولة الطالعة، سوى إلقاء الحالى فى مرآة الماضى، لكن الآيات هنا ـ وهى تطابق واقع جزيرة العرب ـ تختلف عن رواية التوراة، وهى تطابق واقع فلسطين القديم، فبينما التوراة تحكى عن مطالبة الشعب الإسرائيلى نفسه للكاهن (صموئيل) بملك يوحدهم ويقود جيوشهم، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن ذلك الملك جاء باصطفاء إلهى، وهو ما يستدعى على الفور اصطفاء المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن لتفرض ذلك الملك على بنى إسرائيل ـ فى الآيات القرآنية ـ فرضاً بقرار

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط ٤، ١٩٨٨، بيروت، ج ٢، ص١٨٧.

إلهى، وهو الأمر الذى يطابق واقع الحال المكى مع الدعوة الإسلامية، ويخالف ما جاء فى التوراة عن حال التاريخ الإسرائيلى القديم، ومن هنا؛ يتم تعشيق الماضى مع الحاضر فى المثال المضروب بقرار علوى: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾.

ضرب طريق الإيلاف

وبينما كان قمح يثرب يقطع عن مكة، وبينما سرايا المسلمين تجوب طريق الإيلاف التجارى لقطعه على مكة، وبينما الخبر عن قافلة أبى سفيان المسافرة إلى الشام، يطير إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى يثرب، كان الوحى يسترسل شارحاً لوضع الحاضر مقارناً بما حدث فى الماضى، ليحفّز همم المسلمين، فيحكى لهم عن (شاؤول - طالوت)، بعد أن استقر له أمر الملك، وبدأ حملاته على مدن الساحل الفلسطينى، ﴿فلما فصل طالوت بالجنود... قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾، وجالوت هنا هو (جوليات) الزعيم الفلسطينى فى رواية التوراة، لكن رواية التوراة تختلف مرة أخرى، عن رواية القرآن الكريم حيث كان ائتلاف القبائل الإسرائيلية فى مملكة واحدة، تشكيلاً هائلاً وتجييشاً لعدد ضخم من المقاتلين، ومن ثم يكون تطابق الآيات ليس مع التاريخ التوراتى كما ترويه التوراة، لكن مع واقع المسلمين والمشركين، حيث المشركون هم الأكثرية، والمؤمنون هم الأقلية، لكن الحضور الإلهى إلى جانب الحق كان كفيلاً بحسم الموقف، فالآيات تستطرد ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٢٤٩/ البقرة).

وإعمالاً لذلك، وحتى تتطابق الروايتان، ويتطابق الواقعان، ونبوة الحاضر المنتصر بإذن الله، بملك الماضى، يحكى (أبو أيوب الأنصارى) عندما خرجوا إلى بدر «فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبى - صلى الله عليه وسلم - بعدتنا، فسر بذلك وحمد الله، وقال: عدة أصحاب طالوت»[٢].

وتحكى كتب السيرة أن النبى - عليه الصلاة والسلام - خرج يريد عير قريش المسافرة إلى الشام، ولما بلغ الموقع الذى تمت حسابات الوصول إليه من يثرب، تقاطعاً مع الحسابات المتوقعة لزمن وصول قافلة أبى سفيان إليه من مكة، وهو (العشيرة)، اكتشف المسلمون خطأ الحسابات،

---

(٢) البيهقى: سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٣٧.

فالحسابات كانت إنسانية صرف، تقبل خطأ الإنسان وصوابه، ووجدوا أبا سفيان قد سبقهم بعدة أيام، وعليه تحول الموقف إلى محاولة تعويض ما فات، بالعودة إلى يثرب، وتربص موعد عودة القافلة، قافلة من الشام[3].

ولم يطل انتظار المترقبين، فيخبرنا (ابن هشام) أن أمر القافلة قد بلغ مسامع النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، «ولما سمع النبى بأبى سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليه، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها... فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم»[4].

وكان الرد على تثاقل بعض المسلمين عن الخروج إلى أموال قريش، عودة أخرى للقديم، تذكيراً، وتنبيهاً، وتحفيزاً، بذات المثل الإسرائيلى:

﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى

إذ قالوا لنبى لهم

ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

وهنا جماعة إسرائيل لا تعترض على اختيار الملك لعدم سعته من المال، بل هى تطلبه، فتتطابق هنا الروايتان القرآنية والتوراتية، لكن الحكمة تنزع الماضى من سياقه لرسم صورة الحاضر، وإتمام صياغة الرسالة، المطلوب من المسلمين إدراكها، وفهم دلالاتها:

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال

ألا تقاتلوا

قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

نعم، القتال فى سبيل الله، وهو قتال ـ فى التاريخ التوراتى القديم ـ لهزيمة سكان الساحل الفلسطينى، وهى الآيات التى تستدعى القديم لحاضر يثرب، تأجيجاً لنوازع نفسية فى المهاجرين تحديداً، فتقول:

---

(٣) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٤.

(٤) السهيلى: (السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠.

﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله
وقـد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾
(٢٤٦/ البقرة).

إن التوراة لا تقول بخروج بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم حينذاك، بل كانوا ـ حسب روايتها ـ مهاجمين لا مدافعين، محتلين وغاصبين، وهذه روايتها، وإثمها مردود عليها فى المخالفة، لكن ما نعلمه يقيناً، أن الذين أخرجوا من ديارهم مهاجرين، وتركوا أبناءهم واللوعة من أهل مكة تعتمل فى نفوسهم، هم المسلمون المهاجرون إلى يثرب، وبالطبع كان لابد أن تفعل تلك الآيات فى نفوسهم فعلها وأثرها.

هيبة الملأ

يروى (الطبرى) خبر قافلة (أبى سفيان) فيقول:

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار... حتى أصاب خبراً عن بعض الركبان، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك... فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة(٥).

وهكذا حقب الأمر، وبدأت بدايات أفول الأمن القرشى على طريق الإيلاف الشامى، فالقافلة الآمنة، المطمئنة بالإيلاف، تضطر ـ فى سابقة خطيرة ـ إلى استنفار أهل مكة، من أصحاب المال، وبينما كانت الأحوال فى مكة على وتيرتها الرتيبة وهدوئها، وقبل وصول ضمضم الغفارى، ألقت (عاتكة بنت عبد المطلب) عمة النبى، وسليلة البيت الهاشمى، بما حرك ذلك السكون الراكد المطمئن، برواية عن رؤيا رأتها، حملها أخوها (العباس بن عبد المطلب) إلى مجلس الملأ، تقول فيها:

والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى... رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر

(٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥١.

لمصارعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار، إلا دخلتها منها فلقة.

وبلغت الرواية أبا الحكم بن هشام، وربما ذهب إلى تصور ترتيب بعينه بين عاتكة وابن أخيها فى يثرب، وذلك فى ضوء إيمان عرب زمانه بالرؤيا وذهابهم فى تفسيرها التنبؤى مذاهب وقراءات وعيافة وفألاً، ثم لا جدال أنه عندما تتحدث هاشمية عن قوم بأنهم (آل غدر)، فإنها تقصد لا شك البيت الأموى المعادى، فكان أن قام يخاطب (العباس) بشأن رؤيا شقيقته، قائلاً:

يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟... أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم؟ - أو أما رضيتم يا بنى هاشم بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء - قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً، أنكم أكذب أهل بيت فى العرب(٦).

وبينما لم تكن تموجات رواية عاتكة قد سكنت بعد، على سطح الاستكانة القرشية المترفة الآمنة، وصل (ضمضم الغفارى) بعد الأيام الثلاثة «وهو يصرخ ببطن الوادى، واقفاً على بعير له، وقد حول رحله، وشق قميصه، وهو يقول:

يا معشر قريش؛ اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها؟ الغوث، الغوث»(٧).

وحدث بعدها ما جاء فى رواية البيهقى «فتجهز الناس سراعاً، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى، كلا والله ليعلمن غير ذلك»(٨).

(٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٠، انظر أيضاً: الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٦.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.
(٨) البيهقى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

ثم يفيدنا أن (أبا سفيان) تمكن من النجاة بالقافلة، بسلوك درب آخر بقوله: «وخفض أبو سفيان فلصق بساحل البحر، وخاف الرصد، وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأى أنه أحرز ما معه، وأمرهم أن يرجعوا»[٩]. أو بتفصيل (الطبرى): «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا»[١٠].

لكن (أبا الحكم ـ أبا جهل) الذى أدرك ـ كواحد من رجال الملأ المقدمين ـ أن تهديد طريق الإيلاف، إنما يعنى تهاوى الهيبة القرشية، مما قد يدفع القبائل الأخرى إلى ذات المحاولة، وتهون قريش بين العربان، وتضيع المصالح والمكاسب، ثم ما يستتبع ذلك من فقد قريش لثقة الامبراطوريتين الرومانية والفارسية، فى القيام على شأن المواد الطلوبة فى مواقيتها، فى زمن حرب حرج، يكون فيه أى تأخير عاملاً مؤثراً وفاعلاً فى الانتصارات والهزائم، وهو ما قد يدفع إحدى الامبراطوريتين إلى ركوب مغامرة تأمين الطريق باحتلاله، وربما احتلال مكة ذاتها، وهو ما يمكن أن ينقل الصراع الامبراطورى إلى باطن الجزيرة، فما كان من أبى الحكم إلا أن نادى بعدم عودة الرجال إلى مكة، ودعاهم إلى استعراض هيبتهم أمام القبائل، باحتفال كبير، اختار له أحد أسواق العرب الكبرى، فى موقع وادى بدر، حيث الماء والخضرة، لإبلاغ العرب بدلالات الاحتفال، وأن قريشاً لم تزل قادرة على تأمين طريقها، وأنه لم يحدث شىء يعكر صفو الأمان السائد، ومن هنا قام ينادى:

> والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً... فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالوا يهابوننا بعدها أبداً[١١].

أو برواية أخرى:

> والله لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا[١٢].

وهكذا عاد الركب موجهاً نحو بدر ليقيم سمره الاحتفالى لليال ثلاث، وكانوا خمسين

(٩) نفسه: ص ١٠٨.
(١٠) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.
(١١) الموضع نفسه.
(١٢) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٠٨.

وتسعمائة، وقيل كانوا ألفاً، وقادوا مائة فرس.... معهم القيان... يضربين بالدفوف ويغنين»[١٣].

ضعف الهيبة

وهناك أحداث صغيرة لا تخطئها العين المدققة، لعبت - بعد ذلك - دوراً فى حسم الأحداث، ربما كان أولاها بالملاحظة، هو قرار بنى زهرة الرجوع جميعاً إلى مكة، بعد أن تأكد لديهم سلامة القافلة ومرافقيها، فلم يخرج إلى بدر زهرىٌ واحد[١٤]، ومعلوم أن بنى زهرة هم أهل (آمنة بنت وهب) أخوال النبى - عليه الصلاة والسلام -.

والأمر الثانى، هو أن بنى هاشم عشيرة النبى، تثاقلوا عن الخروج، وجرت بينهم وبين الأمويين مجادلة، أرادوا معها الرجوع إلى مكة، «فاشتد عليهم أبو جهل بن هشام وقال: والله لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع»[١٥]، ومن ثم كان طبيعياً أن تلتفت إليهم الرؤوس الأموية لتقول محذرة:

يا بنى هاشم؛

وإن خرجتم معنا، فإن هواكم مع محمد!![١٦].

ويضاف إلى ذلك أن بعض كبار الملأ، مثل (أمية بن خلف)، قرر القعود وعدم الخروج، وهو من تصفه كتب التراث الإسلامية بأنه «كان شيخاً جليلاً جسيماً وثقيلاً»[١٧]، الذى أراد تجنب المشقة وهو فى هذا السن وذاك الجسم الثقيل، لولا أن أتاه (عقبة بن أبى معيط) «وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه، بمجمرة فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال:

يا أبا على استجمر، فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز فخرج مع الناس»[١٨].

(١٣) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.
(١٤) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.
(١٥) البيهقى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٨.
(١٦) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٩.
(١٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣١.
(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٧.

ثم أمر آخر يضاف لتلك الأحداث التي تبدو صغيرة هينة، تظهر ضعف تلك الهيبة القرشية المزعومة، ومدى تردد قريش في الخروج - لمجرد الاحتفال - خشية أن يغشاهم بعض بني كنانة وهم لاهون، لما كان بينهم وبين بني بكر (بيت كناني) من ثأر، ولم يحسم ذلك التردد سوى مجيء (سراقة بن مالك) أحد أشراف كنانة للركب المكي قائلاً: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه»، لكن الرؤية الراوية لتراثنا الإسلامي، تنزع ذلك عن شخص (سراقة) وتقول: إنه إبليس قد تلبس هيئة سراقة[19]. ولمزيد من الاطمئنان، خرج معهم (سراقة) ضيفاً على حفلهم، مع وعد بمجيء كنانة جميعاً إلى الحفل ضيوفاً وحلفاء، لكن ما حدث عند وقوع الوقعة، هو هرب (سراقة) من بين قريش عائداً إلى دياره، وهو ما لم يجد له أبو الحكم تفسيراً مقنعاً، سوى أنها كانت الحيلة والخديعة من بني بكر، لاستدراج قريش إلى بدر، في ضوء الخلاف الثأري مع ذلك البيت الكناني، وهو ما عبر عنه لسانه وهو يقول:

يا معشر الناس؛ لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك،

فإنه كان على ميعاد مع محمد[20].

ومثل تلك الأحداث التي أوردتها كتب التراث على سرعة وعجالة، تفصح عن عدد قريش بعد انحزال بني زهرة عنها بثلث الناس، وعن ذلك الاحتفال المهيب، الذي كان يحمل داخل مهابته ضعفاً وخوفاً، ثم عدم تجانس الفريق المكي، والذي سببه إصرار أبي الحكم على اصطحاب الهاشميين، ليتشفى فيهم لفشل ولدهم في الاستيلاء على قافلة أبي سفيان، وربما لو علم بما غيبته له الأيام المقبلة، لتركهم بمكة غير آسف. هذا إضافة للتثاقل الواضح الذي ألم بالركب بأكمله، والذي كان لا يجد في ذلك الخروج إلا عبئاً في برد يناير وقارس شتائه، وهو ما يشير إليه عزم كبار الملأ على القعود، ثم الخوف القرشي من بيت كناني واحد، لولا إجارة سراقة، أو إبليس، مما يرسم صورة واضحة للحال المتشرذم المتردد، غير المتجانس أو المؤتلف، للركب المكي.

ويبدو أن ثمة أخباراً غير قاطعة، قد وصلت الركب المكي، عن تحرك المسلمين نحو بدر، مما حول أملهم في سمر طروب، إلى فزع بدد فرحهم، وكانت العودة مستحيلة، بل وكارثة لتلك الهيبة المزعومة، وعندما مر الركب على مضارب (غفار) أرسل لهم زعيم غفار ولده بجزائر أهداها لهم طعاماً، مع رسالة تقول: «إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه:

(١٩) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٢.

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

إن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا نقاتل الناس، فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة(٢١).

هذا بينما كان (جهيم بن الصلت) سليل عبد المطلب الهاشمى، يروى لهم وهم ينيخون بالجحفة رؤيا جديدة، فيقول: «إنى رأيت فيما يرى النائم... إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى وقف مع بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان، وفلان»، فما كان من (أبى الحكم) إلا أن قام يخفف عن الناس الأثر النفسى للرواية، فى وسط عربى ثقافى عادة ما كان يصدق الرؤيا، بقوله الساخر المتحدى:

وهذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غداً

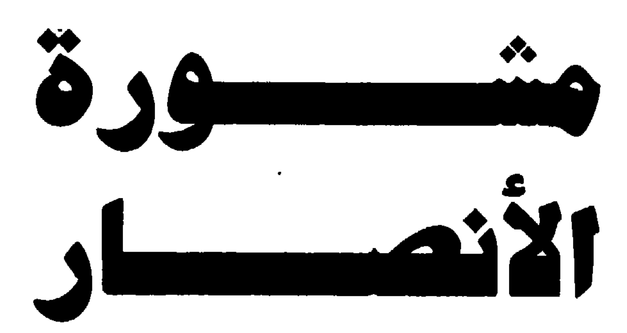
من المقتول إن نحن التقينا(٢٢).

وماكان تعبير أبى الحكم «إن نحن التقينا» إلا شكاً فى الأخبار التى وصلت عن النبى وأصحابه، وعدم يقين بوقوع الوقعة المرتقبة.

(٢١) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

(٢٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٠١.

باب أول



«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد فى الأرض أبداً».

[النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ]

بقيادة النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ خرج المسلمون لضرب الأرستقراطية المكية اقتصادياً، بقطع طريق الإيلاف الشامى، على كبرى القوافل القافلة من الشام إلى مكة بقيادة أبى سفيان، والتى أسهم فيها البيت الأموى بما ينوف على الأربعة أخماس.

وحتى وصول المسلمين إلى (الصفراء)، لم يكن النبى قد علم بعد أياً من أخبار القافلة، سوى إجراء حسابات تنبؤية لموعد عودتها من الشام، قياساً على موعد مغادرتها مكة، لهذا، وبالتصرف البشرى والممكنات الإنسانية، أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بسبس بن عمرو الجهنى) ومعه (عدى بن أبى الزغباء الجهنى)، يتحسسان له الأخبار ويتسقطان الأنباء عن قافلة أبى سفيان فأتاه الخبر أن أبا سفيان قد علم بدوره بخروج النبى وأصحابه إليه، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرها أموالها[1].

وكان الموقف الجديد دقيقاً، يحتاج إلى حكمة فى المعالجة، فقد تحول الأمر، عن مواجهة ثلاثين فرداً يحرسون القافلة، إلى مواجهة عدد غفير من أهل مكة، خرجوا ليمنعوا أموالهم من النهب، وربما كان موقف المهاجرين محسوماً، بما يتأجج فى صدورهم من ذكرى الهوان فى مكة، وخروجهم من ديارهم وأبنائهم إلى يثرب، إلا أن وضع الأنصار كان يقتصر حتى الآن على حسن الضيافة، وصدق الإيمان، بينما الموقف الجديد يحتاج ـ ليس فقط ـ إلى عدد كبير من الرجال، بل وإلى قدر كبير من الفدائية، بينما الأنصار ـ فيما يروى ابن هشام ـ «عندما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو يبعد من بلادهم»[2].

وهنا قال النبى عليه الصلاة والسلام:

«أشيروا علىَّ أيها الناس...»

فلما قال ذلك، قال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت

(١) السهيلى: فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٣.
(٢) الموضع نفسه.

بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك... فسر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:

سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ـ إما العير وإما قريش ـ والله، لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم(٣).

وهكذا، تحول اتفاق الأنصار مع النبي في العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف، التي وعوها مبكراً في قولهم للنبي آنذاك: «إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا»، فأجل النبي الإمالة بالسيف إلى فيما بعد، وقد جاء أوان الما بعد، الذي طور البنود المعلنة، من ميثاق دفاعي لتسفر عن البند المرجأ الذي يجعل الميثاق حلفاً هجومياً محارباً، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها، مهاجرين وأنصار، إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة في رجال الحرب والدم والحلقة، الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة.

وهنا نقطة التحول المادية الخطيرة، التي لعبت دوراً عظيماً في جذب الأتباع من مستضعفي القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبي في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو دون إجابة العدد الكافي من المستضعفين إلى دعوته، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاه إلى الآجل في رغد جنة الخلد، وهو ما ظهر كما لو كان تأجيلا ميتافيزيقياً لحل قضيتهم، وإرجاء رفع الشقاء المادي عن حياتهم الآنية، في مجتمع تجاري مادي بحت، ولهذا عندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله والمؤمنين من أموال المشركين، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة، ومكاسب عينية ماثلة أمام المستضعفين، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة، وهو الهدف الذي سيفصح عن نفسه عملياً في المكاسب التي ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين، لتحول حالهم الشظف إلى حال آخر، وفي تحالف القبائل المحيطة بالمدينة مع القوة الإسلامية.

خطة المعركة

مع التجوال المتأني بين دفتي كتابات السير والأخبار الإسلامية، يجد القارئ، نفسه مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إزاء قائد عسكري يبدأ بضمان ولاء رجاله، ثم يخطط للمعركة، فيرسل

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

العيون لتأخذ له بالأخبار عن عدوه، فيعلم بتمكن القافلة من الهرب، وبخروج قريش إلى بدر لتحتفل بنجاة تجارتها، ونشر مهابتها بين العرب، وأن العير وإن ذهبت فقد جاءت قريش، وهى إحدى الطائفتين الموعودتين، فيخرج القائد برجاله من موضع إلى آخر مسرعاً، يختصر طرقاً ويضرب فى أخرى[٤]، عامداً إلى التخفى وستر أمر مسيره وعدم إفشاء خطوه، فيأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل[٥]، والسير الصامت.

ثم يقسم النبى - صلى الله عليه وسلم - رجاله إلى ألوية، لكل لواء رايته التى يعرفه بها أصحابه، فيحمل لواء المهاجرين (على بن أبى طالب)، ويحمل لواء الخزرج (الحباب بن المنذر)، بينما يحمل لواء الأوس (سعد بن معاذ)[٦]، ويجعل لرجاله شعارات شفرية يعرفون بها بعضهم بعضاً، وهم تحت الدروع والخوذ، فكان شعار الخزرج: يا بنى عبد الله، وشعار الأوس: يا بنى عبيد الله، وشعار المهاجرين: يا بنى عبد الرحمن، أما شعار الجميع فهو: يا منصور أمِت، أما الخيل جميعاً فكانت خيل الله[٧].

وعند التعبئة تقرر أن يحارب المسلمون بنظام الصفوف المتحركة، من (النبّالة) حملة النبال، و(السيّافة) حملة السيوف.. إلخ، وفى ذلك يقول ابن كثير: «وقد صف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، وعبأهم أحسن تعبئة... وعن أبى أيوب يقول: صفنا رسول الله يوم بدر، فبدرت منى بادرة أمام الصف، فنظر إليهم وقال: معى معى... وكان فى يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية... وهو مستنتل (متقدم) من الصف، فطعن فى بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد»[٨].

ولم يترك القائد شيئاً للصدفة، فأى خطأ - مع الفارق العددى - يمكن أن يؤدى إلى كارثة، ومن ثم، وقبل أن يصل بدراً، أمر رجاله فتوقفوا صامتين، ثم ركب ومعه أبو بكر ليتسقط بنفسه أخبار عدوه..

> حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، ما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى

---

(٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٤.

(٥) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٨٣.

(٦) نفسه: ص ٣٨٢.

(٧) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٧٠.

(٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.

ممن أنتما؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإذا كان الذى أخبرنى صدقنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به رجال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذى أخبرنى صدقنى، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: نحن من ماء.

وفى (الإمتاع) أنه قال «نحن من ماء وأشار بيده إلى العراق»، ثم يتفق رواة السيرة على رد الشيخ المندهش على نفسه ـ وهو يغمغم ـ «ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!»[(٩)].

وينزعج (الحلبى) راوى السيرة من رد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولايدرك الحذر المفترض فى قائد عسكرى مقبل على معركة، ولا يرى فى ذلك القائد سوى الجانب النبوى المتعالى، وأن للنبوة صفات تتناقض مع رد الرسول على الأعرابى، فيقول فى تساؤل استنكارى، أو فى استنكار متسائل:

وقد تقدم فى أوائل الهجرة، أنه لا ينبغى لنبى أن يكذب، ولو صورة، ومنه التورية.

ومن ثم يبحث الحلبى عما يطمئن قلبه، فيكشف أنه لا بأس من كذب النبى، ليس لضرورات يقتضيها الظرف الموضوعى، ولكن لأنه وجد فى كلام القاضى البيضاوى حديثاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن النبى إبراهيم سبق وكذب ثلاث كذبات[(١٠)]، ويقصد الحلبى هنا الحديث: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات كلها فى الله، قوله: إنى سقيم وقوله: فعله كبيرهم هذا، وقوله للرجل الذى عرض لسارة: إنها أختى»، وهنا يطمئن الحلبى ويكتفى بذلك تبريراً لنفسه وتطميناً لها، إزاء رد قول النبى للشيخ الأعرابى، ولم ير إطلاقاً فى ذلك الرد، غرضاً عسكرياً وحذراً مباحاً، يصرف البدوى عن معرفة قائد المسلمين، ويشككه فى معلوماته عن موقع الجيش الإسلامى، ويصرفه عن تقصى أمرهم، احتياطاً لسرية وأمان مسيره.

---

(٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٤، انظر أيضاً: ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٣، والحلبى: سبق ذكره،م مج ٢، ص ٣٨٧.

(١٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٨٧.

ولمزيد من التقصى، وتدقيق المعلومات عن العدو، وأحواله، وعدد رجاله، وعدته، يعود القائد لإرسال على بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، مع نفر آخر من المسلمين «يلتمسون له الخبر» بتعبير ابن كثير، فيصيبوا غلامين من عبيد قريش كانا قد تطرفا عن ركبها، ويبدأ الحوار بين النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين الغلامين:

قال: أخبرانى عن قريش.

قالا: وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى.

قال: كم القوم؟ وما عدتهم؟

قالا: لا ندرى.

قال: كم ينحرون كل يوم؟.

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، فمن فيهما من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم ابن خزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود.

فأقبل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الناس فقال:

هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها(١٢).

وهو التعبير الأمثل عن القوم الواردة أسماؤهم، فهم من قريش القلب والرؤوس والأشراف والسادة، وهم الملأ والأرستقراطية.

ويرتحل المسلمون إلى (عرق الظبية)، وهناك «لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله، قال:

ـ أوَ فيكم رسول الله؟!

قالوا: نعم.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٤.

(١٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٩٩، ٣٠٠.

قال: لئن كنت رسول الله، فأخبرني عما في بطن ناقتي تلك؟

فقال له سلمة بن سلامة: لا تسأل رسول الله، وأقبل عليّ فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة.

فقال رسول الله: مه، أفحشت على الرجل(١٣).

هكذا كان القائد الإنسان، يخطط كما يخطط البشر، ويتقصى الأخبار كما يتقصى البشر، ويرسل الجواسيس والعيون ليأخذ الأخبار عن عدوه، ثم وهو بسبيل ذلك يتعرض لسخرية بدوى أحمق يؤذيه بقارص الكلم، فلا يرد عليه الإيذاء بإيذاء، إنما يلوم صاحبه على فحش قوله للرجل، تحوطاً لخبر قد يحمله البدوى المرتحل لأعدائه، أما السماء، فكانت أمراً أكثر منها خبراً، حيث كان الوحي يتحول بالأمر من الصبر الجميل، والدفاع الهادىء، إلى الهجوم والقتال بعد أن أتى الله بأمره:

﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (٦٥/ الأنفال) ... عن عبد الله بن عباس قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عليهم، فنسخها بالآية الأخرى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٦٦/ الأنفال)(١٤).

ولو أخذنا الأمر بظاهره، لكان المعنى أن الله جل وعلا لم يكن يعلم بضعف المسلمين، ثم علمه متأخراً (الآن... علم أن فيكم ضعفاً)، وحاشا لله أن يقصر علمه عما يليق بكماله، ومن ثم لا يكون هناك معنى لنسخ الآية الأولى بالثانية، سوى تفاعل الوحي الكريم مع ظرف الواقع، حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد قريش، وهو ما كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالي الذى جاء يحمل نسبة أخرى هى اثنين إلى واحد، وهو ما يطابق العدد المقبول لقريش بالنسبة لعدد المسلمين، بعد انحزال بنو زهرة عنها بثلث الناس، وكذب سراقة بن مالك أو إبليس بشأن مجيء كنانة مع

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٧٧.

قريش، فكان النسخ، وجاء صدق الوحى مطابقاً للواقع، وإعلاماً للمسلمين المحاربين بعدد عدوهم النهائى.

وإعمالاً لكل ما تم الحصول عليه من معلومات استخبارية، تقرر أن يسبق المسلمون قريشاً إلى بدر، فيروى ابن كثير:

> فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبادرهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به... فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح ـ محارب أنصارى ـ قال: يا رسول الله؛ أرأيت هذا المنزل؛ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامض حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضاً ونملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقد أشرت بالرأى(١٥).

وهنا يأتى خبر السماء مصدِّقاً على الخطة البشرية ومشورة الأنصار، ورجلهم المقاتل (الحباب) المشهود له بالدربة والحنكة والخبرة القتالية، فيأتى جبريل إلى أخيه المصطفى ـ عليهما السلام ـ ليقول:

> يا محمد؛
> ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك:
> إن الرأى ما أشار به الحباب(١٦).

والرواية هنا بحاجة إلى بعض التدبر، فإذا كان المسلمون سيبنون حوضاً، حتى يتوفر لهم ماء الشرب، ويغورون بقية الآبار حتى لا تشرب قريش، فلا جدال هنا أن الآبار التى غورت، هى تلك ـ المفترض أن تكون واقعة ـ على مسافة متناثرة بين المسلمين وبين الجهة التى ستصل إليها قريش، ويكون تعبير (أدنى ماء) هنا بحاجة إلى إعادة فهم، فالإشارة الأولى عن نزول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستعنى بذلك أدنى أى أقرب بئر إلى مدخل الوادى حيث ستصل قريش، وبقية الآبار تكون خلف المسلمين، أما (أدنى ماء من القوم) فى مشورة الحباب، فهى آخر بئر إلى

---

(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.

(١٦) الموضع نفسه.

الخلف، بعيداً عن موقع قريش المفترض، مع تغوير بقية الآبار التى ستقع بين المسلمين وبين قريش، ولا شك أن التباس (أدنى ماء) فى المرتين اللتين وردتا بالرواية، هو ما دعا (الحلبى) كثير التساؤل ليقف محاولاً الفهم متسائلاً:

إن ذلك القليب إذا كان وراء ظهورهم وسائر القلب خلفه (وهو ما يفهم من: أدنى ماء) فما المعنى فى تغويرها؟ إنها إذا لم تغور يشربون ويشرب القوم - قريش -»[17]،

وهو التساؤل المشروع عقلاً، والذى يجب أن يكون كما انتهينا إليه، إلى فهم مؤداه أنهم بنصيحة (الحباب) نزلوا أبعد بئر عن القوم، وغوروا ما هو فى الطريق بين الجيشين، وبذلك يتم المقصود، فتصل قريش عطشى ولا تجد ماء، إلا ما هو وراء المسلمين وفى حراستهم، أو فى حوضهم الذى منه يشربون وحدهم.

موقع الفريقين

وحتى نتمكن من وضع تصور لخريطة المواقع فى بدر، وموقع كل من الطرفين فيها، نقف مع القائد وموقعه بين أتباعه المسلمين، وهو ما أوضحه قول سعد بن معاذ له:

يا نبى الله؛ ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا... فأثنى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيراً، ودعا له بخير، ثم بنى للرسول عريشاً كان فيه[18].

وتتفق كل كتب السير على موقع ذلك العريش، بأنه كان «فوق تل مشرف على المعركة»[19]، وبعد بناء العريش، دخل إليه النبى ومعه أبو بكر، واتفق على أن تحيطه حراسة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ.

(١٧) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.
(١٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٦.
(١٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٤.

خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين، والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن احتاج ركبها ورجع إلى المدينة[20].

ومرة أخرى وليست أخيرة، نجد الإعداد الجيد، والتخطيط البشرى، والحرص على حماية صاحب الدعوة والحفاظ على حياته، بإيقاف الحراس عليه فى تل بعيد عن متناول المشركين، تحت حراسة مسلحة من رجال الحرب اليثارية، وركائبه معدة للعودة السريعة إلى يثرب إن حدثت الهزيمة، هذا رغم حراسة السماء، لحبيبها ورغم الوعد الإلهى بالمدد العلوى من مقاتلى الملائكة المقدمين.

وقد جاء الوعد بالملائكة، دافعاً لمزيد من الطمأنينة لصحابة الرسول الأمين، ومدعاة لهدوئهم النفسى والعصبى، وإخلادهم للنوم فى ظل تلك الحراسة السماوية، لأخذ قسط مناسب من الراحة، انتظاراً لوصول قريش فى الغد عطشى مجهدة متعبة، وهو ما وعته كتب الأخبار والسير، وساقته على عجالة تقول:

وبشرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنزول الملائكة، فحصل لهم الطمأنينة والسكون، وقد حصل لهم النعاس الذى هو دليل الطمأنينة[21].

وفى ذلك المناخ الشتوى، زخت السماء المنطقة بمطرها، وهو ما جاء فى قولة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ: «أصابنا فى الليل طس من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف، نستظل تحتها من المطر»[22]، فى اللحظة التى كانت قريش فيها بالعدوة القصوى من الوادى، بينما كان المسلمون «فى العدوة الدنيا من بطن التل»[23]، وهو ما يحدد لنا المواقع بدقة، فالمسلمون يعسكرون فوق التل، انتظاراً لمقدم قريش من مدخل الوادى فى الأسافل، وهو ما يدعمه قول (البيهقى) عن ذلك المطر الليلى:

وأرسل الله السماء، وكان الوادى دهساً فأصاب رسول الله وأصحابه، ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه[24].

---

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧١.

(٢١) الحلبى: السيرة، مج ٢ ص ٣٩٢.

(٢٢) الموضع نفسه.

(٢٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤، ٣٥.

(٢٤) نفسه: ص ٣٥.

وهكذا كان نزول المطر مساعداً على حركة المسلمين فوق التل، عسر المسير ومشقته فى الوادى الموحل، وهو ما يتفق مع حال نزول المطر فى منطقة بها مرتفع يليه واد، حيث لا يثبت الماء على المرتفع، إنما ينزلق إلى المنحدرات، فيترك التلال رطبة يابسة متماسكة، ويحول الوادى إلى مستنقعات موحلة، لذلك أكد (مجاهد) أن فى أعلى التل «أنزل عليهم المطر، فأطفأ به الغبار، وتلبدت الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم»[٢٥]، أما الفيصل فى هذا الأمر، فهو تقرير الوحى الصادق لخريطة المعركة زماناً ومكاناً، فى قول الآيات:

﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد﴾ (٤٢/ الأنفال).

ومن ثم فلا مجال هنا لمجادل، يكابر فى أن موقع المسلمين فى الأعالى، وهبوطهم مع بدء المعركة على من هم فى الأسافل، كان عاملاً هاماً من عوامل حسم المعركة، وتحديد نتائجها.

وعند الصباح، عدل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفوف رجاله، وألويتهم، ثم دخل عريشه يناجى ربه:

اللهم إن تَهلِك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد فى الأرض أبداً[٢٦].

ثم عاد فخرج إلى رجاله يحرضهم على القتال منادياً:

والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً إلا دخل الجنة..

فقال عوف بن الحارث: يا رسول الله؛ ما يضحك الرب من عبده، قال: غمسة يده فى العدو حاسراً[٢٧].

أما الجزاء الدنيوى لمن سيبقى حياً، فهو ما جاء فى نداء آخر، يمنح المقاتلين ما يحصلون عليه من غنائم، ومن فداء أسراهم:

من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له[٢٨].

(٢٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٦.
(٢٦) نفسه: ص ٢٧٤.
(٢٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.
(٢٨) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٣.

وفى تلك الهنيهات الفاصلة فى تاريخ الحجاز، بل وفى تاريخ الدنيا، كانت طلائع قريش تهل منحدرة من كثيب العقنقل نحو الوادى، ومن موقعه فوق التل وقف النبى يطالع ذرافاتهم وطبولهم تهبط الوادى من بعيد، وهو يقول:

اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى..[٢٩]

وهكذا، جاء الملأ إلى موعدهم، وأفلاذ كبد مكة إلى قدرهم.

(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٦.

باب أول

أحداث فى بدر الكبرى

«بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى»

[أبو العاص بن الربيع]

بينما كان المسلمون على تل مطل على وادى بدر يترقبون، أقبلت قريش من كثيب العقنقل نحو الوادى، لتحتفل بنجاة أموالها، وتنشر مهابتها، حفاظاً على أمن طريق الإيلاف، وإرهاباً لمن يحاول قطعه من عربان، ويحكى الحلبى فى سيرته عن الأمين المأمون إنسان العيون - صلى الله عليه وسلم - لحظة وصول قريش إلى الوادى يفترشونه، وأمامهم القيان تغنى وتضرب الدفوف، «ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد... فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً، ثم رجع إليهم وقال: ما رأيت شيئاً».

واطمأن القوم، وركنوا إلى تكذيب ما وصلهم من خبر عن أصحاب محمد، واستعدوا لسمرهم الاحتفالى، بينما كان المسلمون خلف سواتر التل، ولمزيد من الاطمئنان عاد الجمحى واستجال بفرسه مرة أخرى، فلمح الرجال تحت الخوذ خلف السواتر فرجع يصرخ:

> رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون؟ يتلمظون تلمظ الأفاعى، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم؟ زرق العيون كأنهم الحصا تحت الجحف، والله ما أرى أن نقتل رجلاً منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟[1].

إنه إذن الكمين، وصدق الخبر، وإنها لوقعة، وإنها لمصرعة، لقد كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يريد عيرهم وتجارتهم، لحصار مكة اقتصادياً، وضرب إيلافها، فإذا به يريدهم هم أصحاب المال ورؤوس الأشراف والسادة، بعد أن وصلوا بدراً عطشى متعبين، دون قيادة موحدة، ومن غير تجانس، فجاءوا معهم بالهاشميين إلى جانب الأمويين، ليجدوا الآبار قد غورت، مما كان مدعاة أخرى لطلب حكمة غير حكمة أبى الحكم، التى طوحت بهم إلى ذلك الشرك، بينما نداء الجمحى يشير إلى قوم يتربصون الثأر من السادة، بعد اضطهاد وهجرة، يتلمظون تحت الخوذ كالأفاعى، لا تظهر منهم غير العيون والألسنة اللاهثة، المتلهفة على الانقضاض.

الحكمة والتهور

ومن ثم؛ كان إعمال العقل والتروى، والبحث عن رأى سديد، للخروج من الفخ بأقل قدر من الخسارة، فكانت حكمة (حكيم بن حزام) الذى جاء (عتبة بن ربيعة) أحد كبار أشراف مكة وسادة

(١) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٥

الملأ المقدمين، وكان عتبة رجلاً جليلاً عجوزاً ثقيلاً، ليقول له:

يا أبا الوليد؛ إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر... هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس(٢).

وهكذا سجلت عبارة حكيم لقريش مرة أخرى حبها للسلم، وسعيها للأمن، ذلك الحب والسعي الذى فرضه عليها تكوينها النفسى، وفرضه على نفسها تكوينها الاقتصادى والاجتماعى، وحرصها على مصالحها، ومن ثم كان من يسعى إلى الحفاظ على تلك المكاسب، بتحقيق السلم، يظل مذكوراً فى شرعها بالحكمة والسداد والشرف إلى آخر الدهر، ومن هنا قام (عتبة بن ربيعة) عاملاً بحكمة (حكيم بن حزام)، يخطب فى أصحابه:

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما يريد(٣).

هكذا كان حال قريش، وتلك كانت دعوتها وحكمة حكمائها، بينما على الجانب الآخر وراء السواتر وفوق التل، كان صوت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يجلجل فى أصحابه، حتى لا يتركوا فرصة قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى للقضاء على رؤوس الشرك:

- والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، إلا أدخله الله الجنة.
- وهذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.
- وأن ما يضحك الرب من عبده غمسة يده فى العدو حاسراً.
- ومن قتل قتيلاً فله سلبه.
- ومن أسر أسيراً فهو له.
- ويا منصور أمت.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٣) السهيلى: (فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٧.

وفى الوادى، ذهب (حكيم) بنداء (عتبة) إلى (أبى الحكم)، فكان رده غير الحكيم:

انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، لكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه، فتخوفكم عليه[٤].

وكان أبو الحكم يقصد (أبا حذيفة بن عتبة)، وهو مهاجر مع أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فرقت الأممية الجديدة بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، فى ولاء جديد، وإيمان جديد، ويكفى مثالاً لذلك أن نعلم أن (أم أبان بنت عتبة بن ربيعة)، كان لها أربعة إخوة وعمّان، كل منهم حضر بدراً، اثنان من إخوتها مسلمان، واثنان مشركان، وواحد من عميها مسلم، والآخر كافر[٥].

وفى شروح السيرة، نعلم أن عبارة (أبى الحكم) بشأن (عتبة): انتفخ والله سحره، تقال للجبان[٦]، وكان الرد الطبيعى من الشيخ الجليل على من اتهمه بالجبن «سيعلم مصفّر إسته من انتفخ سحره، أنا أم هو»[٧]، ومصفّر إسته هو من يصبغ مؤخرته بالحناء، طلباً للرجال، وقد «قصد المبالغة فى الذم»[٨]، ومن ثم «رماه بالأبنة، بأنه كان يزعفر إسته»[٩].

وقبل الرجل الحكيم أن يُرمى بالجبن حقناً للدماء، وحرصاً على المصالح القرشية، واستمر ينادى:

يا قوم؛ إنى أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها برأسى وقولوا: جبن عتبة، وقد تعلمون أنى لست بأجبنكم»[١٠].

فكان أن قام أبو الحكم يقول: «والله لو غيرك قال هذا لأعضضته»[١١]، وهو تعبير مخفف، تحاشى فيه (أبو الحكم) الفحش فى القول، لرجل فى سن (عتبة)، وهو ما تفسره كتبنا الإخبارية

(٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٩، ٢٧٠.
(٥) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.
(٦) نفسه: ص ٩٧.
(٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٨) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٣٩٨.
(٩) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٦٣.
(١٠) الموضع نفسه.
(١١) الموضع نفسه.

بأن معناه الصريخ «أعضض على بظر أمك»[١٢]، أو هو عض في موضع آخر «أعضض بإير أبيك»[١٣].

والحوار أعلاه يكشف بصورة واضحة حال الملأ القرشي من سادة الأشراف، وخلافاتهم الخطيرة حول مصير نظامهم، بل مصيرهم هم، واتهام بعضهم لبعض بالجبن، وتبخيس بعضهم بعضاً بفاحش القول، وتفرق كلمتهم بين بطون وولاءات متعددة لسادة متنافرين، هذا بينما تابع (أبو الحكم) الإفصاح عما بصدره، وعن رأيه في الدعوة التي فرقت الأرحام والعشيرة، في قوله: «اللهم أقطعنا الرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحنه الغداة»[١٤]. هذا مع تصوره غير الحكيم، وغير الصادق مع الظروف والمتغيرات الجديدة، محتسباً أنه وقومه على الحق وعلى الإيمان الصحيح بالله، وهو ما يبدو ظاهراً في ندائه السماء:

> اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم[١٥].
>
> اللهم انصر أفضل الدينين عندك، وأرضاهما لك.
>
> اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين[١٦].

وهو الدعاء الذي يعبر عنده، عن كون قريش هم أهل الله، كما نعتهم العرب، لأنهم حماة بيته ورعاة حرماته، وهو الاعتقاد الذي دفع قريشاً وهي في طريقها إلى بدر أن تأتي في رحلها بأكثر الرايات قدسية؛ أستار الكعبة!!.

الوقعـــة

ولما أخذ العطش بالحلوق، خرج (الأسود بن عبد الأسد المخزومي) يركض مصعداً نحو حوض المسلمين لا يلوى على شيء، مقسماً «أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه، أو لأموت دونه، فخرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه

(١٢) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٩٧.
(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٣.
(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ٩٣.
(١٥) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٥.
(١٦) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٨.

وهو دون الحوض، ووقع على ظهره تشخب رجله دماً... ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض»(١٧).

وذاهلة وقفت قريش، التى تحول حفلها من دفوف وقيان وخمر وسمر، إلى حرب ودم، فأراد (عتبة) بذات الحكمة، أن يسلك سلوك العرب، فيدعو إلى مبارزة تنهى الأمر عند حد، وتوقف نهر الدم الموشك على التدفق، بهزيمة أحد الطرفين فى مبارزة عادلة، تنتهى بانسحاب المهزوم واعترافه بالهزيمة، فيروى ابن هشام «خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن شيبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث... وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم؛ يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا».

وبهذا النداء كانت قريشاً لا تزال تحسب العواقب وتتحاشى مخاطرها، لأن مبارزة بعض أهلهم، أمر يمكن بعد ذلك علاجه بين الأهل وبعضهم، أما مبارزة الأنصار، فهى ثأر باق بين مدينتين، لا يعلم إلا الله منتهاه، وهو ما قد يقضى تماماً على طريق الإيلاف المار قرب يثرب، واستجاب النبى الكريم لرغبة قريش فقال: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على، فلما قاموا دنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال على: على، قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز على الوليد بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله»(١٨).

وعقب ابن اسحق وابن كثير على التساؤل القرشى «من أنتم؟»، بأنه «دليل على أنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح»(١٩)، بالخوذ الحديدية، التى تخفى بداخلها الرؤوس، والدروع التى تغطى الأجساد.

أما الشيخ ثقيل الجسم كبير السن (عتبة بن ربيعة) فقد صمد لعبيدة، وأصاب كل منهما الآخر بضربة أثبتته، فما كان من (حمزة) و (على) إلا أن كسرا قواعد المبارزة وشروطها، ونزلا على الشيخ العجوز بالأسياف فأجهزا عليه، ثم احتملا زميلهما (عبيدة) بسرعة، إلى صفوف أصحابهم.

وهكذا قتل المسلمون صناديد قريش، أما كسر قواعد المبارزة فقد حكى عنه بعد ذلك (على بن

(١٧) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٥.

(١٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨.

(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٢.

أبى طالب) كرم الله وجهه، لرفع صفة المعابة عنه، حيث تغيرت القواعد بتغير المعيار، وبقيت قاعدة واحدة هى معيار كل المعايير، وهى الفيصل والفصل، معلقة برأى النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم، فقال (على): «أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على أبى الوليد، فلم يعب النبى علينا ذلك»[٢٠].

وقبل أن تفيق قريش من ذهولها أمام قتل صناديدها، ومن حميتها إزاء كسر قواعد المبارزة، ومقتل شيخها عتبة بسيوف ثلاثة تكاثرت عليه، أخذ النبى حفنة من الحصباء استقبل بها قريشاً، ونفحها بها قائلاً: شاهت الوجوه، ثم هتف بأصحابه: شدوا[٢١]، بينما ثنى نحو صفوف النبالة التى ثبتت وراء نواتىء التلول لتحمى المسلمين السيافة المنقضين على قريش، يقول: «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم... ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[٢٢].

وهكذا بدأت وقعة بدر الكبرى، وهكذا كان التخطيط الجيد والإعداد الدقيق، الذى تفاعلت فيه خطة القائد وعزمه، مع خبرة أركان حربه من رجال الدم والحرب والحلقة، صفوف صفوف، منها من يشد على الأعادى ومنها من يحمى بسهامه المتقدمين، فلم يترك شيئاً للصدفة، ولا أمراً للهوى، وهو ما كانت نتيجته المحتمة، ما سجلته كتب السير والأخبار:

> فكانت الهزيمة، فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر منهم من أسر[٢٣].

هذا بينما استكان القائد إلى عريشه مع أبى بكر، وعلى رأس التل وقف سعد بن معاذ يتأمل ما يحدث تحته فى الوادى، ورأى النبى فى وجهه شيئاً فقال له: «لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس!!»[٢٤].

وكان حصاد المعركة ما جاء فى تقرير (الطبرى) «فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً»[٢٥]، بينما كان شهداء المسلمين فى تقرير (البيهقى) «من قريش ـ المهاجرين ـ ستة نفر، ومن الأنصار ثمانية نفر»[٢٦].

---

(٢٠) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠١.
(٢١) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩.
(٢٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٣.
(٢٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٢٢.
(٢٤) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٤٩.
(٢٥) نفسه: ص ٢٩٧.
(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٢٢.

وبفرار أهل مكة فراراً بلا كرامة، وسقوط بعضهم قتلى أو أسرى، هبط النبى ليأمر بإلقاء الجثث فى القليب، ليعتمل فى النفس ما كان يجيش بها، وينطق اللسان النبوى منادياً:

يا أهل القليب؛ بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً[٢٧].

وبينما المسلمون يسحبون قتلى المشركين إلى القليب، وقف (أبو حذيفة بن عتبة) يتطلع إلى أبيه وهم يجرجرونه، وهو من سبق واحتج قبل الوقعة على أمر النبى بعدم قتل بنى هاشم، حيث قال:

أنقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف، فبلغت مقالته رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت[٢٨].

ويروى ابن هشام مستكملاً المشهد:

وأخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى وجه أبى حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك فى شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام[٢٩].

وهكذا جاءت قريش إلى بدر لتنشر هيبتها، فنثرتها، وجاء الملأ ليعلنوا للعرب أنهم حماة بيت الله، وأنهم قادرون على حماية تجارتهم وأمنها، برعاية رب البيت، لأنهم كما أسماهم العرب (أهل الله)، فما عاد الملأ إلى مكة، وذهبوا تحت رمال القليب، وبدلاً من رسالة أرادوها مبلغة للامبراطوريتين، بلغت رسالة أخرى تبرق بخبر آخر، عبرت عنها أشعار تنسبها كتبنا التراثية إلى الجن، وهى تقول:

---

(٢٧) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥١.
(٢٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٠.
(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥١، ٥٢.

أزار الحنيفيون بدراً وقيعة سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالاً من لؤى وأبرزت خرائد يضربن الترائب حسّرا
فياويح من أمسى عدو محمد لقد قار عن قصد الهوى وتحيرا[٣٠].

وانتهى أمر الملأ، وهى النهاية التى جاء أمرها جلياً فى طريق عودة الركب المنتصر، حيث جاء الناس يهنئون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصر، فما كان من (سلمة بن سلامة) ذرب اللسان المفصح العجول، إلا أن برز برأسه من بين الناس ليقول:

ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله ما لقينا إلا عجائز صُلعاً كالبدن المعقلة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ثم قال: لكن يا ابن أخى، أولئك هم الملأ[٣١].

وهو ذات الإفصاح الذى أفصح عنه لسان (المغيرة بن الحارث) على الجانب القرشى، عندما عاد المهزومون فراراً إلى مكة، فالتقاهم (أبو لهب) ينادى (المغيرة): «هلم إلىّ فعندك لعمرى الخبر اليقين»، فأجابه (المغيرة) بخبره اليقين، موجزاً قصة المفاجأة فى بدر بقوله:

والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا[٣٢].

وهكذا سقطت الرؤوس الأرستقراطية الصلبة، وتحقق الوعد الإلهى بإحدى الطائفتين العير أو قريش، فكانت الثانية: قريشاً.

فداء الأسرى

وكان الأسرى خير عوض عن عير (أبى سفيان)، بما دفعه أهل مكة فيهم لفك أسرهم، حتى (العباس) عم النبى، ورغم حب النبى له ولآل البيت الهاشمى، فقد دفع (العباس) فديته، وكان حب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبيته الهاشمى مرحمة ملكت عليه فؤاده الرءوف، فهو لم ينس أنهم كانوا حماته ودرع دعوته الواقى بمكة، ثم عيوناً له على المكيين بعد هجرته إلى يثرب،

(٣٠) البيهقى: سبق ذكره، ص ٣٠٩.
(٣١) محمد أبو الفضل ومحمد البجاوى: أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٢٥.
(٣٢) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٩.

رغم عدم اتباعهم لدعوته، فكانت منعتهم له عصبية قبلية ووفاء عشائرياً، مع دافع آخر هام يتمثل فى صراعهم مع الأمويين بنى عبد شمس، وهو موقف وإن تعارض مع الدعوة الأممية الطالعة، التى تنزع الولاء عن القبيلة وتضعه بيد العقيدة ودولتها الواحدة، فإن تلك النزعة العشائرية كانت ذات أثر ودور عظيم، فى حماية صاحب الدعوة، ومن ثم دعوته، حتى وصل إلى حمى أخواله اليثارية، الذين زادوا على الأزرة القرابية، الإيمان بدعوته، ومن ثم كان الوفاء النبوى واضحاً فى كتب السيرة، وهى تروى بلسان ابن عباس:

> لما أمسى رسول الله يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات الرسول ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام؟؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار- فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه، فأطلقوه، فسكت، فنام رسول الله.

لكن مثل ذلك الوفاء والحنين، كان ممكناً أن يثير تساؤلات مشروعة في نفوس أتباع هجروا العشائرية، ومنحوا الولاء كله لدعوة ترفض الأطر القبلية بل تحطمها، ومن ثم كان يمكن لذلك الوفاء النبوى أن يثير اعتراضات، سبق أن رأينا لها مثيلاً فى موقف (أبي حذيفة بن عتبة)، ومن هنا كان التوازن، الذى يظهر فى رواية ابن اسحق «وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء، العباس بن عبد المطلب، وذلك لأنه كان رجلاً موسراً، فافتدي نفسه بمائة أوقية ذهب»[٣٣]. ويقول (ابن كثير) إن ذلك الفداء الضخم «كان عن نفسه، وعن ابني أخويه عقيل ونوفل، وعن حليفة عتبة ابن عمرو»[٣٤].

ويروى (البيهقى) أن رجالاً ممن أسروا ببدر قالوا للنبى: «إنّا كنا مسلمين، وإنما أُخرجنا كرهاً، فعلام يؤخذ منّا الفداء؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ (٧٠/ الأنفال)[٣٥]. ويذهب (ابن كثير) إلى أن تلك الرواية كانت خاصة بالعباس بن عبد المطلب ونفر معه:

> حين ادعى أنه كان قد أسلم[٣٦].

(٣٣) البيهقى: سبق ذكره، ص ١٤١.
(٣٤) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠.
(٣٥) البيهقى: سبق ذكره، ص ١١٩.
(٣٦) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣٠٠.

فأصر النبى على دفعه الفدية، فتقدم آسروه من الأنصار يجاملون النبى برغبتهم فى تركه دون فداء، فكان رد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

لا والله لا تذرون منه درهماً واحداً.

ورغم إعلان العباس إسلامه، فقد ظل إصرار النبى على دفعه الفداء، وهو أمر يمكن فهمه فى ضوء ما يحقق من أغراض، فهو التوازن الذى يحفظ المحتوى للدعوة، أو ما يحفظ المحتوى العشائرى داخل النسق الأممى عند صاحب الدعوة، أمام أشخاص مثل (أبى حذيفة)، فى مرحلة لم تزل فيها القلاقل قائمة أمام استقرار أمر الدولة الطالعة واستقامته، ونزولاً بمستوى العباس الطبقى إلى مستوى يقترب فيه مع بقية المسلمين، فى ضوء زعمه الإسلام، وهم من تقاربت أوضاعهم الاقتصادية وذابت بينهم الفوارق فى تلك المرحلة، بتوزيع الأنفال البدرية بينهم بالتساوى.

ولكن عندما تغيرت الأحوال بعد ذلك، بعد قيام الدولة وصلابة عودها ومنعتها، تم تعويض العباس خيراً مما أخذ منه فى فداء أسره من بدر، وصدق الله وعده فى الآيات، وهو ما جاء فى رواية أنس:

> إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى بمال من البحرين، فقال: انثروه فى المسجد، فكان أكثر مال أتى به رسول الله، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله اعطنى، فإنى فاديت نفسى وفاديت عقيلاً، فقال: خذ، فحثا ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال مر بعضهم برفعه إلىّ، قال: لا، قال: فارفعه أنت علىّ قال: لا، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله فانطلق(٣٧).

ويتضح لنا ذلك الصراع بين الأممية والقبلية، فى لحظة العودة من بدر، ومعهم الأسرى وفيهم العباس وبعض بنى هاشم، فاستشار النبى أصحابه بشأنهم، والرواية هنا تبرز بوضوح موقف من بدّل ولاءه تماماً نحو الأممية الجديدة، وهو الموقف المتناقض مع موقف آخر لا زال يستبطن القبلية وحميتها، ثم موقف ثالث هو موقف النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واصطراع الأمرين داخل نفسه البشرية، فهذا (عمر بن الخطاب) يتجاوز كل ألوان الولاء القبلى بأممية صارمة صادقة، إعمالاً لمبادىء الدعوة وتصديقاً لها، فيقول:

> يا رسول الله؛ كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، أرى أن تمكننى من فلان

---

(٣٧) الموضع نفسه.

فأضرب عنقه (وهو قريب له)، وتمكن عليا من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين.

أما ابن رواحة فكان رأيه أشد صرامة، وأكثر رغبة في التشفي، فقال:

انظروا وادياً كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس - وهو يسمع - ثكلتك رحمك[٣٨].

هذا بينما كان أبو بكر في أقصى اليمين يقول بالأخرى:

يا رسول الله؛ نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من الغم[٣٩].

أو برواية أخرى:

يا رسول الله؛ أهلك وقومك.. هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار[٤٠].

القبلية والأممية

وكان أبلغ المواقف على استبطان النبي - عليه الصلاة والسلام - للرحم، والعلاقة العشائرية والأسرية، رغم المتغير المطلوب، ورغم أممية الدعوة واستبدالها العلاقات القديمة بعلاقات جديدة وبالولاء القديم ولاء جديداً، بعلاقات إيمانية تحطم القبلية، كان أبلغ هذه المواقف ما جاء في قصة فداء (أبي العاص بن الربيع)، زوج (زينب) بنت النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام -.

يروي الطبري:

كان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله حين أسلمت، وبين

(٣٨) الحلبي: سبق ذكره، ص ٤٤٧.
(٣٩) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٢٧٩.
(٤٠) الحلبي: سبق ذكره، ص ٤٤٦.

أبى العاص بن الربيع، إلا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لا يقدر على أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها، وهو على شركه،.... فأصيب فى الأسارى يوم بدر[41].

ويكمل ابن كثير:

عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء أبى العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رقّ لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذى لها[42].

ويتابع ابن هشام فيقول: إن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، ويرسلها إلى حيث سينتظرها أتباع من يثرب على حدود مكة، وعن عبد الله بن أبى بكر قال: «حدثت عن زينب أنها قالت: بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي، لقيت هنداً بنت عتبة، فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقالت: ما أردت ذلك... فلما فرغت بنت رسول الله من جهازها، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها يقودها نهاراً وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها، حتى أدركوها بذى طوى... وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب إذ خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، إن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وإن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمرى ما لنا بها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدثت الناس أننا قد رددناها، فسلّها سراً والحقها بأبيها، ففعل».

وفى الروايات، أن الذين طاردوا زينباً، كانا هبار بن الأسود، ونافع بن عبد القيس، فروعاها، فأفرغت بطنها وكانت حاملاً، ولما رجع الرجلان إلى مكة، قابلتهما هند تذمهما وتقول:

(41) الطبرى: سبق ذكره، ص ٤٦٨.
(42) ابن كثير: سبق ذكره، ص ٣١٢.

أفـى السـلم أعـيار جفـاء وغلظـة وفى الحرب أشباه النساء العوارك[٤٣].

(والنسـاء العـوارك هن الغـوانج)، أمـا النبى فكان له مـوقف آخـر من الرجلين، إذ أمـر ببـعث سرية، أمر رجالها أن يظفروا بهبار ونافع، وأن يحرقوهما بالنار جزاء ما قدمت يداهما فى حق ابنته، لكنه عاد فأرسل لهم قبل خروجهم:

إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين، إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما.

ويتابع ابن اسحق راوى السيرة فيقول: «وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بالمدينـة، حين فـرق الإسـلام بينهـمـا، حتـى إذا كـان قـبيل الفـتح، خـرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بماله وأموال رجال لقريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السريـة بما أصـابوا من مـال، أقبل أبو العـاص تحت الليل، حتـى دخل على زينب بنت رسـول الله، فلما خرج رسول الله إلى الصبح... كبر وكبر النـاس معه، صرخت زينب من صفـة النسـاء: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعتم ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم.

ثم انصـرف فـدخل علـى ابنتـه فـقـال: أى بنيـة أكـرمـى مـثـواه، ولا يـخلصـن إليك فـإنك لا تحلين له... ثم بـعث إلى السـريـة الذين أصـابـوا مـال أبـى العـاص فـقـال: إن هـذا الرجـل منـا حـيـث قـد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا تردوا عليه الذى له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فـهو فىء الله الذى أفـاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله بل نرده عليه، فردوه عليه... ثم احـتـمله إلى مكة فـأدى إلـى كل ذى مـال مـاله من قـريـش»، وعـاد بعـد ذلك إلى يثـرب مـسلمـاً، ويروى ابن عبـاس أن النبى قد رد عليه زينب على النكاح الأول، وفى رواية لأبى عبيدة «أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين:

ـ قيل له: هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين.

ـ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى»[٤٤].

(٤٣) نفسه: ص ٣٣١.

(٤٤) السهيلى: سبق ذكره، ص ٥٨ : ٦٠.

وموقف (أبى العاص) هنا يتفق تماماً ويتطابق مع الإفراز الحتمى للظرف التاريخى والاقتصادى، فأمانة الرجل التى فرضت عليه عدم الاستيلاء على أموال قريش، هى ناتج طبيعى لظرف مكة التجارى، الذى أفرز ثقة متبادلة بين أصحاب المال، وبين القائم على الرحلة المسافرة، باعتباره أيضاً عضواً ضمن الطبقة، ومن ثم فرض ظرف مكة الجغرافى، وعدم إمكان خروج كل المسهمين مع القافلة، ثقة وأمانة على درجة عالية، للحفاظ على سيولة التجارة واستمرارها، لأن أى خلاف أو اختلاس أو فقد للثقة، كان كفيلاً بدمار مصلحة الجميع، وهى الأمانة التى لم تكن فى منطقهم تتعارض أبداً مع سلوكيات أخرى، كالربا والاحتكار، فهى ألوان من الكسب المشروع، ولون من التجارة والربح مباح، وقد أشار النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الأمانة القرشية، مع ضيق أفق الرؤوس المكية وقصورها، عن إدراك دور الرأسمالية القرشية فى مشروع الوحدة الكبرى، بقوله لأبى قتادة الأنصارى بعد غزوة أحد، عندما أراد أبو قتادة التمثيل بجثث القرشيين كما مثلوا بحمزة بن عبد المطلب:

يا أبا قتادة، إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله(٤٥).

والقول الشريف هنا يفصح عن خبيئة نفس المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأهله وبلده، وعن التناقض الآتى الذى سيفصح عن نفسه فى أواخر الحياة النبوية المشرفة، فى فتح مكة وتوزيع المكاسب فى هبات وإقطاعات وأعطيات لأهل قريش من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم، ثم ما أفصح عنه اجتماع سقيفة بنى ساعدة، وانتهى بصب الأمر فى النهاية بيد قريش، أما الآن وفى ظرف بدر الراهن، فإن قطع المسلمين للطريق التجارى، والاستيلاء على قوافل مكة، وقتل رجال حكومة الملأ الصناديد والرؤوس والأشراف، كان حلقة ـ فرضها الظرف، وعدم وعى المكيين ـ فى حلقات التطور الحتمى الآتى، ودفعاً للموقف عبر مسيرته الضرورية، وإبلاغاً للروم والعجم، أن الأمر قد صار إلى مدينة أخرى، وإلى يد أخرى، ونظام آخر.

(٤٥) الحلبى: سبق ذكره، ص ٥٢٥.

باب أول

المزايدات فى قصــة بــدر

«أمـا لكـم فى اللـبن مـن حاجــة ؟!»

[نداء قرشى فى وقعة بدر]

عن (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه - في وقعة بدر - قال: «حملنى الرسول على فرسة فجمزت بى، فوقعت على عقبى، فدعوت الله، فأمسكت، فلما استويت عليها، طعنت بيدى هذه فى القوم حتى اختضب هذا، وأشار إلى إبطه»[1] . محققا لنفسه بذلك ضحك الله من عبد يغمس يده فى العدو.

وهو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل حول رواية كتب السير والأخبار، عن كراهة (سعد بن معاذ) لرؤية ما يصنع المسلمون بالمشركين، وعن كون تلك الكراهة ناتجة عن أخذ المكيين أسرى، بدلاً من قتلهم، والتساؤل مع اختضاب إبط (على) بالدم: هل كان المتفشى فى بدر هو القتل أم الأسر؟ وأيهما كان غرض المعركة الأساسى؟.

إن تعادل عدد القتلى والأسرى ربما يغنى عن طرح السؤال، لكن فى واقع ما حدث تحت غبار وقعة بدر، ما يشير إلى رغبة متأججة فى الثأر من صناديد الملأ القرشى، الذين سبق أن أخرجوا المسلمين من ديارهم وأبنائهم، فهناك وقائع لها نفس دلالات قول الإمام على كرم الله وجهه، أعطاها مشروعيتها دعوة الآيات:

﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (١٢/الأنفال) .

والأمر على الترتيب فى الوحى هو:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء﴾ (٤/محمد) .

فأولاً: ضرب الأعناق، وفصل الرقاب، وكل بنان، ثم بعد ذلك: شد الوثاق طلباً للفداء، دعماً مادياً للمسلمين، أو المن على البعض الآخر، رغم شركهم وعدم إيمانهم، كما سنرى له أمثلة الآن.

وقد أفاضت كتب السيرة بشأن مقتلة عدد من الرؤوس القرشية، منهم (أبو البختري بن هشام)، وكان مفترضاً عدم قتله بأمر من الرسول - عليه الصلاة والسلام - رغم عدم إيمانه بدعوته الدينية، فلم يعقد أمره حول الإيمان من عدمه، إنما لأسباب أخرى تقول:

نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل أبى البختري، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة، التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب[2] .

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٥ .

(٢) السهيلى: (فى شرح السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٩، ٤٠ .

كذلك كان النبى بوفاء رحمى، قد نهى أيضاً عن قتل عمه (العباس بن عبد المطلب)، ومن تواجد من بنى هاشم فى بدر، رغم عدم إيمانهم بدعوته الدينية.

وقرب انتهاء وقعة بدر، بينما الناس يهربون أو يتخفون، لقى (المجذر بن زياد البلوى) أبا البخترى، ومع (أبى البخترى) صديق له خرج معه من مكة، هو (جنادة بن مليحة)، فقال له (المجذر)، ورد عليه (أبو البخترى)، فى حوار له أهمية:

المجذر: إن رسول الله قد نهانا عن قتلك.

أبو البخترى: وزميلى؟

المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك.

أبو البخترى: لا والله إذن، لأموتن أنا وهو جميعاً، ولا تتحدث عنى نساء مكة، أنى تركت زميلى.

فقتله المجذر... ثم أتى رسول الله فقال: والذى بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلنى، فقتلته»[٣].

والشاهد هنا، أن الرجل المسلم طلب من (أبى البخترى) الاستسلام للأسر، فأبى (أبو البخترى)، إن كان فى ذلك إنقاذ حياته، وترك زميله يقتل، بإباء عربى يثير الإعجاب وفيه إجابة أولى عن السؤال المطروح.

أما الشاهد الثانى ففى رواية (عبد الرحمن بن عوف) عن مقتل (أمية بن خلف)، حيث قال (عبد الرحمن): «كان أمية صديقاً لى بمكة، وكان اسمى عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ونحن بمكة، فكان يلقانى إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإنى لا أعرف الرحمن، فاجعل بينى وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعانى؛ يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا على اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، فقلت: نعم، فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه وأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به، وهو واقف مع ابنه علىّ بن أمية، آخذ بيده، ومعى أدراع قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآنى قال لى: يا عبد

(٣) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، ص ٤١٤.

عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، قلت: نعم، قال: هل لك فىَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك، قلت: نعم، ها لله ذا، فطرحت الأدراع من يدى، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول:

ما رأيت كاليوم قط، أما لكم فى اللبن من حاجة؟

ثم خرجت أمشى بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن،

أنه من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن.

فوالله إنى لأقودهما، إذ رآه بلال معى، وكان هو الذى يعذب بلالاً بمكة ليترك الإسلام... فلما رآه قال:

رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا

ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا،

فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة، وأنا أذب عنه»[٤].

فهذا رجل تأبى عليه عزته الهرب مع من هرب، فيقف فى الميدان مستمداً الشجاعة والدفء من الإمساك بيد ولده على، حتى إذا لقى صديقه المسلم ناداه طالباً منه أسره مع ولده، ليضمن معاملة أفضل وهو فى الأسر، كما يضمن لصديقه أقصى انتفاع متى حان وقت الفداء، ثم هو يبدى دهشته لكثرة القتل، بينما بالعقلية التجارية يكون الأسر أكثر نفعاً لعائديته بإبل ولبن ومال وذهب، واختتم ابن كثير مقتلة أمية وولده علىّ، برواية عبد الرحمن بن عوف: «فلما خشيت أن يلحقونا، خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك فألقيت نفسى عليه لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى»[٥]، أو بتعبير ابن هشام:

هبروه بأسيافهم، من الهبرة، وهى القطعة العظيمة من اللحم، أى قطّعوه[٦].

وعن مقتلة (أبى جهل)، تروى كتب السير «وكان أول من لقى أبا جهل، (معاذ بن عمرو بن

(٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٠.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٧.
(٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٨.

الجموح)... قال: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة (الشجر الملتف) وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه... فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه،... وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرحت يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى، وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها»[٧].

وهكذا كانت الإصابة الأولى لأبى الحكم بن هشام، فقطع (معاذ بن عمرو بن الجموح) ساقه، وتركه عقيراً بين الأحراش بعد أن قام ابنه (عكرمة) يذب عنه، وظل على حاله بينما انشغل (عكرمة) فى القتال، ثم فى الهرب، حتى مر به (معوذ بن عفراء) فناوشه وهو يدافع عن نفسه، حتى ناله (معوذ) بضربة أخرى أثبتته عن الحركة[٨]، حتى مر عليه (عبد الله بن مسعود)، الذى يروى فيقول: «وجدته بآخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلى على عنقه... فقال لى أبو جهل:

لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعباً[٩].

أما (ابن مسعود) فيسوق لنا تدقيقه فى الرواية، حتى ما مر بذاكرته من ذكرى طافت به وهو يقف على رأس عدوه، إذ يقول:

وقد كان ضبث بى مرة بمكة، فآذانى ولكزنى[١٠].

ثم يسوق ذكرى أخرى فى روايته بدلائل البيهقى:

وانتهيت إلى أبى جهل وهو صريع، ومعه سيف جيد ومعى سيف رث، فجعلت أنقف رأسه بسيفى، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسى بمكة، حتى ضعفت يدى[١١].

ويستمر (ابن مسعود) لينقل عنه (الحلبى) فى سيرته، قوله:

فبصق فى وجهى وقال: خذ سيفى واحتز به رأسى من عرشه، ليكون

(٧) نفسه: ص ٤٢.
(٨) الموضع نفسه.
(٩) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٤.
(١٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٤٥٥.
(١١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٨.

أنهى للرقبة... ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال رسول الله: ألله الذى لا إله غيره، ورددها ثلاثاً.

وروى الطبرانى: ألله قتلت أبا جهل؟ قلت: نعم، والله الذى لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله، فحمد الله تعالى، ويقال أنه سجد خمس سجدات شكراً[١٢].

أما (نوفل بن خويلد) الذى كان يصيح فى بداية الوقعة «يا معشر قريش؛ إن هذا اليوم يوم العلا والرفعة»، فقد انتهى إلى نداء آخر مرتعش ينادى المسلمين:

ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟

أما لكم فى اللبن من حاجة؟

«فأسره جبار بن صخر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار - وقد رأى علياً مقبلاً نحوه - يا أخا الأنصار؛ من هذا؟ واللات والعزى إنى لأرى الرجل يريدنى؟ قال: هذا على بن أبى طالب، قال: ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع فى قومه منه، فيصمد له علىّ، فيضربه، فنشب سيفه فى جحفته ساعة، ثم نزعه، فضرب ساقيه ودرعه مشمرة، فقطعها، ثم أجهز عليه فقتله»[١٣].
ومهما بحث عن سر وراء قتل ذلك الأسير - غير عدم إيمانه بالدعوة - فلن تجد سوى أنه كان أحد رؤوس قريش.

الأسرى

وكان فى الأسرى (النضر بن الحارث) ربيب مدرسة جند يسابور، الذى تعلم هناك علوم الحضارات، بما فيها أخبار الأقدمين، فى بعث أثرياء مكة أبناءهم لمدارس الحضارات، وكان يقعد مع زميله (عقبة بن أبى معيط) للنبى بمكة مقعد رصد، ليتوجهوا له باستفسارات كثيرة بقصد الإحراج والإيذاء، وعادة ما كانوا يعقبون بقولهم للناس: تعالوا، نقول لكم أفضل مما قال، وللصدفة العجيبة أن يقع مع (النضر) فى الأسر، رفيقه المثقف (عقبة بن أبى معيط)، ليسيرا فى ركاب الركب المنتصر مقيّدين.

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٢٠.
(١٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤.

وقد وقع (النضر) أسيراً بيد (المقداد)، وتم ربطه مع بقية الأسرى الذين أخذوا يمرون أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم «نظر إلى النضر وهو أسير، فقال النضر للأسير الذى بجانبه: محمد والله قاتلى، فإنه نظر إلى بعينين فيهما الموت، فقال له: والله ما هذا منك إلا رعب، وقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب أنت أقرب من هذا إلىّ رحماً، فكلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى - يعنى المأسورين - هو والله قاتلى، فقال مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا، وتقول فى نبيه كذا وكذا...»[١٤]. وفى أسباب النزول للسيوطى كان المقداد آسر النضر، وما أن أناخ الركب المنتصر بالصفراء، حتى أمر النبى بقتل النضر، فقال المقداد: يا رسول الله أسيرى، فقال له رسول الله: إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول[١٥].

وبعد ذلك بزمن، يوم فتح المسلمين لمكة، أنشدت شقيقته النبى شعراً يقول:

أمحمد لأنت ضنء نجيبة	في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

وهنا عقب النبى بحنوه «لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه»[١٦]، أى لأطلقه، رغم ما قال فى كتاب الله وما فعل برسول الله، ومع عدم الإيمان بدعوة الإسلام(؟!).

وبعد مرحلة من الطريق، أناخ الركب بعرق الظبية، وأمر النبى (عاصم بن ثابت) بقتل رفيق (النضر) وزميل تلمذته (عقبة بن أبى معيط)، ولما أقبل إليه (عاصم بن ثابت)، دارت بينهما المحاورة التالية:

عقبة: يا معشر قريش، علام أقتل من بين من هنا؟

عاصم: على عداوتك لله ورسوله..

عقبة: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟

النبى: نعم، أتدرون ما صنع بى هذا؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندارن، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاها على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى[١٧].

---

(١٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٤١.

(١٥) الموضع نفسه.

(١٦) الموضع نفسه.

(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٦.

وهكذا أدرك (عقبة) مصيره جزاء ما قدمت يداه، حتى لو كان أسيراً، بعد أن كان بمكة سيداً مترفاً، فكان أن تهاوت الكرامة والعزة، وتنازل عن كبريائه وصرخ مسترحماً فى استغاثة أخيرة يذكّر النبى بما لديه من أطفال منادياً:

فمن للصبية يا محمد؟

فجاءه رد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى دمائه يتخبط - : النار[18].

ووصل المسلمون ببقية الأسرى إلى يثرب، بينما كانت (سودة بنت زمعة) زوج النبى عند آل عفراء، تشاركهم مصابهم فى مناحتهم على ولديهم (عوذ) و(معوذ) اللذين استشهدا ببدر، حيث روت (سودة) - رضى الله عنها -: «والله إنى لعندهم إذ أتينا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أُتى بهم، فرجعت إلى بيتى ورسول الله فيه، وإذا أبو يزيد بن سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت:

أى أبا يزيد؛ أعطيتم بأيديكم، ألا مُتمّ كراماً؟

فوالله ما نبّهنى إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البيت:

يا سودة؛ أعلى الله ورسوله تحرضين؟

قلت: يا رسول الله؛ والذى بعثك بالحق، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه، إلا أن قلت ما قلت»[19].

وتروى السير «وجاء مطعم بن مطعم وهو كافر إلى المدينة، يسأل النبى فى أسارى بدر، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: لو كان شيخك - أو لو كان الشيخ أبوك - حياً، فأتانا فيهم، لشفعناه، وفى رواية: لو كان مطعم حياً وكلمنى فى هؤلاء النفر، وفى رواية: فى هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

أما تبرير ممكنات إطلاق مشركين لم يؤمنوا، بشفاعة المطعم، والاستجابة لإجارته، فلأن «المطعم كان قد أجار النبى لما قدم الطائف وكان ممن سعى فى نقض الصحيفة[20]».

وفى السيرة أن (أبا عزة بن عبد الله) كان فى الأسر، فقام يتزلف النبى بمديحه شعراً، ثم

(١٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٣.
(١٩) نفسه: ص ٥٤.
(٢٠) الحلبى: مج ٢، ص ٤٥١.

طلب منه أن يمن عليه ويطلقه، لأنه صاحب حاجة وذو بنات، فأفرج عنه، فلما ذهب إلى مكة قال: سحرت محمداً وعاد يهجوه، حتى وقع بعد ذلك أسيراً يوم أحد، وكان الأسير الوحيد فى تلك الوقعة، فعاد للمديح وطلب العفو والمن، فأجابه النبى «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين، ثم أمر به فضربت عنقه، ويقال أن فيه قال رسول الله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[21].

مزايدات

وعليه، يمكن بالقراءة الموضوعية، أن يستكشف المتابع ظروفاً أدت إلى وقعة بدر، وصاغت دقائق أحداثها، وحتّمت نتائجها، وأن يقرأ دور الجهد البشرى فى توجيه مجموعة العناصر المكونة للمقدمات والنتائج، ودورها الجدلى مع قواعد التطور الاقتصادى ومن ثم المجتمعى، كما يمكنه ببساطة وإنصاف، أن يقرأ دور التنظيم والتخطيط الواعى من قبل البشر لدفع ذلك التطور نحو غايته، والوقعة البدرية نحو نتائجها، وأثناء ذلك سيلمح لوناً من المزايدة التى ترقى بالحدث الموضوعى من مستوى الواقع إلى فضاء الأسطورة، أو هى على الأصح تهبط بالأسطورة لتغطية أرض الواقع، أو هى على التدقيق تفلت بحدث الواقع خارج دائرة الفعل الطبيعى والقدرات البشرية، وهى المزايدات التى ربما كانت إسهاماً أسهم به الرواة زمن الحدث، كل حسب ممكناته، وربما كانت إسهامات إضافية أضيفت زمن تدوين كتب السير والأخبار، وربما كانت مزايدات من أقوام كالمؤلفة قلوبهم والطلقاء لإثبات خلوص الإيمان، وقد كان الوعد بنزول الملائكة من وراء الكون المنظور إلى بقعة بدر لنصرة المسلمين، أحد أهم العوامل التى ساعدت على إعطاء الخيال الإنسانى مساحة واسعة للمزايدة، **فإن هبطت الملائكة، فلا بأس إذن من حدوث أى خارق آخر.**

لقد بدأت الروايات ملتصقة بالمقبول، وبواقع الحدث كما حدث، وهو ما يمكنك تلمسه فى تلك الروايات مع بداية قصها للواقعة البدرية، فهذا ـ مثلاً ـ أول شهيد مسلم مهاجر فى بدر (عبيدة بن الحارث)، الذى بارز (عتبة بن ربيعة)، فحمله رفيقاه (حمزة) و (على) إلى رسول الله «واحتملا صاحبهما عبيدة، فجاءا به إلى أصحابه، وقد قطعت رجله فمخّها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألست شهيداً،... قال: بلى، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً لعلم أنى أحق منه حيث يقول:

(21) ابن كثير: سبق ذكره، ج 3، ص 313.

ونســلم حــتى نصــرع حولــه   ونذهل عن أبنائنا والحلائل»[٢٢].

وأسلم الرجل روحه شهيداً، ورأسه على فخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقصة كما هو واضح، تسير سيراً طبيعياً، يذكّر فيها (عبيدة) النبى بأهله الهاشميين - الذين منعوه من الأمويين - على رأسهم (أبو طالب) عم النبى، عندما حقب الأمر مع الأمويين وكاد يفضى إلى حرب بين أبناء العمومة، فأرسل (أبو طالب) شعره يؤكد لهم أنهم لن ينالوا من ولده (محمد)، حتى يفنى ويصرع حوله بنو هاشم وهم يدافعون عنه، بعصبية القبيلة ورحم العشيرة، ويتميز هنا (عبيدة) فى قوله: إنه أحق من أبى طالب بذلك الشعر، أنه مات بالفعل دفاعاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودفاعاً عن دعوته، بل ومؤمناً بهذه الدعوة، وأن أعضاء الجماعة الإسلامية، الذين هجروا القبيلة إلى الأممية، هم الأحق بالشهادة، وأحق بالقول من (أبى طالب).

ثم نرحل إلى القصة التالية، وهى عن (معاذ بن عمرو بن الجموح)، الذى ضرب ساق (أبى الحكم)، فنال منه (عكرمة بن أبى الحكم) بضربة أطاحت ذراعه «وضربنى ابنه عكرمة بن أبى الحكم على عاتقى، فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى... وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها»[٢٣]، ومن ثم بدت الرواية قادرة على الإبهار، لمدى الصلابة والجلد عند ذلك البطل اليثربى، ولكن الأمر يبدأ هنا بالانتقال إلى فضاء الأسطورة، بمزايدات لحظنا أنها تبدأ عادة غير محددة المصدر، بالقول: «وفى رواية»، وهى بذلك رواية مجهولة السند، وهو ما بدأت به المزايدة فى قصة البطل (معاذ)، فى القول: «وفى رواية:

> أنه جاء بها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فبصق عليها، ولصقها، فلصقت» ؟![٢٤].

وهو ما نجد له شبيهاً فى روايات صيغت حول (أبى جهل - أبى الحكم)، الذى كان له شأن أجل من أن يمر بمقتله فى بدر ببساطة وينتهى الأمر، رغم ميتته البائسة التى سقاه إياها ثلاثة من المسلمين على التوالى، لأنه كان عدو رسول الله الألد، ومن ثم كانت مقتلته غير شافية للنفوس، فيصل الأمر إلى حد قول (الشعبى)، دون سند واضح لروايته عن قائل بعينه محدد الاسم، فيقول:

(٢٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.
(٢٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤٢.
(٢٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤١٩.

إن رجلاً قال للنبى - صلى الله عليه وسلم -: إنى مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض، فيضربه رجل بمقمعة معه حتى يغيب فى باطن الأرض، ثم يخرج، فيفعل به مثل ذلك، قال ذلك مراراً، فقال رسول الله: ذاك أبو جهل بن هشام، يضرب إلى يوم القيامة(٢٥).

أما النبى الذى أجمعت الروايات الصادقة على أنه كان بعريشه فوق التل طول المعركة، يدعو ربه ويصلى طالباً الأزر والنصرة، فإن روايات أخرى تضعه فى مقدمة الصفوف محارباً، فيما نسب إلى (حارثة بن مضرب) وهو يقول:

لما كان يوم بدر، اتقينا المشركين برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان أشد الناس بأساً.

وهو ما أخرجه (الإمام أحمد) فى مسنده (١/٢١٦)، «وحدثنا إسرائيل بنحوه، وزاد:

ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»(٢٦).

وعن (قتادة بن النعمان) يروى «أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: لا، فدعاه، فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أصيب، وفى رواية: فكانت أحسن عينيه... وعن رافع بن مالك: رميت يوم بدر بسهم، ففقئت عينى، فبصق فيها رسول الله ودعا لى، فما آذانى منها شىء»(٢٧).

ويروى أن (خبيب بن عدى) ضرب يوم بدر «فمال شقه، فتفل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولأمه، ورده، فانطبق»، ثم يتقدم صاحب (دلائل النبوة) بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل، ومنها «وعكاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع فى يده، فأتى رسول الله فأعطاه جذلاً من حطب وقال: قاتل بها يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفاً، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد... وكان ذلك السيف يسمى القوى... وانكسر سيف سلمة ابن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقى أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله قضيباً كان فى يده،

(٢٥) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٩، ٩٠.
(٢٦) نفسه: ص ٦٩، ٧٠.
(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩١، ٢٩٢.

من عراجين بن طاب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيدة»(٢٨).

وهكذا احتشدت كتب السير والأخبار بالمزايدات، والروايات التي تنزع نحو الأسطورة، بمجرد أن فتح لها الباب، وبات بالإمكان سلخ أي حدث عن واقعه، ونقله إلى مستوى آخر، يكسر الواقع ويدعم الأسطورة بالشهادات، وهو ما تمثل في قصة حدثت عند بدء وقعة بدر، عندما أمسك النبي عليه الصلاة والسلام بحفنة من الحصباء، ورمى بها قريشاً ثم قال: شدُّوا.

ولأن إلقاء الحصباء على العدو لا يحمل أية دلالة عسكرية بعينها، ولأن ذلك التصرف النبوي لابد له معنى محدد يؤدي دوره في المعركة، فقد انتقلت المزايدة بإلقاء الحصباء إلى المستوى السحري، لتؤدي دوراً عسكرياً كاملاً، وكثيراً ما وردت تلك المزايدات على لسان مشركين أسلموا متأخرين، ومنهم الطلقاء الذين أرادوا التحبب للإسلام والمسلمين ونبي الإسلام، ببعض المجاملات والملاطفات، ومنهم المؤلفة قلوبهم بالطبع الذين أرادوا أن يردوا التحية بأحسن منها، ومن تلك المزايدات رواية تقول: «سمعت نوفل بن معاوية الديلي يقول: انهزمنا يوم بدر، ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى في الطاس في أفئدتنا، ومن خلفنا، فكان ذلك من أشد الرعب علينا»(٢٩).

ومثله قول (حكيم بن حزام): «التقينا فاقتتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، مثل وقع الحصى في الطست، وقبض النبي القبضة فرمى بها، فانهزمنا،... وسمعنا صوتاً من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة في طست، فرمى رسول الله تلك الحصاة يوم بدر، فما بقي منا أحد»(٣٠).

الحصوات هنا لم تعد قبضة من حصى تل بدر، إنما حصوات سماوية تقوم بفعل عسكري، لكنه إعجازي، ما أن رمى بها النبي المشركين حتى قتلهم جميعاً، أما دور تلك الحصى كإحدى أدوات الجيش الإسلامي، بل وأكثر الأدوات فاعلية، فهو ما توضحه رواية لا تخرج عن الاعتقاد في الأثر السحري للفعل النبوي، فتقول: «لم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينيه»(٣١).

وإذا كان يوم بدر، هو يوم هبوط الملأ الأعلى من الملائكة على خيولها، تحمل سيوفها، فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال: «ويقال: إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمني الجن سبعون»،

(٢٨) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٨، ٩٩.
(٢٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.
(٣٠) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٠.
(٣١) الحلبي: مج ٢، ص ٤١٢.

وحتى يحبك الراوى روايته التى تفرد بها يستدرك قائلاً: «لكن لم يثبت أنهم قاتلوا، فكانوا مجرد مدد»[٣٢].

ملائكة بـدر

فى أول مشهد تقدمه كتب السير لمقدمِ الملأ السماوى إلى بدر، يروى ابن إسحق:

وقد خفق رسول الله خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[٣٣].

وفى رواية أخرى، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عنى ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته[٣٤].

ثم تتوالى الروايات، عن بعض رجال من بنى مازن لا نعرف من هم تحديداً، عن أبى داود المازنى، أنه قال:

إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى[٣٥].

فهذا رجل يقتل فى المعمعة، وسط سيوف عديدة متشابكة ورماح تطير ونبال تئز وغبار وسنابك خيول، ورؤوس تغطيها الخوذ، وأجساد مدرعة بالدروع، ويقول المازنى أن غيره قد قتل القتيل، لكن هذا الغير (القاتل) بمجهوليته فى المعمعة يتم التقاطه ليصبح أحد الملائكة، ليؤكده قول أبى إمامة لولده:

يا بنىّ لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه

(٣٢) نفسه: ص ٤١٠.
(٣٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٣٨.
(٣٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٤.
(٣٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٥٣.

عن جسده قبل أن يصل إليه السيف[٣٦].

وتتتالى الروايات التى عادة ما يشار إلى روايتها بالقول: قال رجل كذا وكذا، أو عن رجل من بنى كذا، ومثلها قول ابن عباس:

> بينما رجل من المسلمين يومئذ، يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم (وحيزوم هو فرس الملاك جبريل)، إذ نظر المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظرنا إليه فإذا هو خطم من أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك جميعاً، فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة[٣٧].

ويروى بعض بنى ساعدة، عن (أسيد مالك بن ربيعة)، بعد أن ذهب بصره، «لو كنت اليوم معى ببدر ومعى بصرى، لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى»[٣٨]. وهكذا، فالرجل الوحيد الذى رأى الملائكة رؤى العين، ورأى الشعب الذى انسلت منه صفوفهم إلى جبال بدر وواديه، قد ذهب بصره، حتى لا يتمكن من تحديد المكان، ويظل القص هلامياً، وقفاً على رواية عن بعض بنى ساعدة.

ومثل تلك الروايات، روايات أخرى، منها رواية (أبى بردة بن نيار) حيث قال: «جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله: أما رأسان فقتلتهما، أما الثالث فإنى رأيت رجلاً أبيضً طويلاً ضربه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله: ذاك فلان من الملائكة»[٣٩]. أما عن أبى جهل الذى بات معلوماً عدد من اشتركوا فى قتله بالاسم، فإن هناك من روى عن النبى قوله: «قتله ابنا عفراء والملائكة، وابن مسعود قد شرك فى قتله»[٤٠].

هذا ناهيك عن روايات أخرى مجهولة المصدر، مثل رواية ابن عباس إذ قال:

> حدثنى رجل من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا

---

(٣٦) نفسه: ص ٤٥٤.
(٣٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥١، ٥٢.
(٣٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٤١.
(٣٩) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.
(٤٠) نفسه: ص ٨٧.

في جبل يشرف على بدر، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة، فننهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم، قال: فأما ابن عمي فانقشع قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت[41].

أما المشركون (والرواة أسلموا بعد ذلك عند الفتح)، فوجد بعضهم - فيما يبدو - في هبوط الملائكة، تبريراً لهزيمتهم المخجلة أمام المسلمين، فحاك بعضهم على ذات النول، فهذا (المغيرة ابن الحارث) يذكر أنه كان قال زمن بدر، لأبي لهب «وأيم الله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء»[42].

وهكذا تقدم الطلقاء بدلائهم إلى مائدة المزايدات، ومنها رواية (ابن حجر) في الإصابة (٢/ ٩)، عن (السائب بن أبي حبيش) الذي أسلم يوم الفتح الإسلامي لمكة، ونال من الرسول نصيبه من الأعطيات، ثلاثين وسقاً في خيبر، فكان يحدث الناس زمن (عمر بن الخطاب) عندما قرر عمر قطع أنصبة المؤلفة قلوبهم عنهم، بقوله:

والله ما أسرني أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فأدركني رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبدالرحمن ينادي في العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله: ياابن أبي حبيش، من أسرك؟ فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله: أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف بأسيرك فذهب بي عبدالرحمن بن عوف، فقال السائب: مازلت تلك الكلمات أحفظها، وتأخر إسلامي، حتى كان من أمري ما كان.

أما البيهقي، فيعقب على رواية السائب بقوله الكاشف:

ولا أعلمه روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئاً[43].

---

(٤١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج ١، ص ٣١٢.

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٤٣) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٠.

ثم يجد المطالع لسيرة ابن هشام، كشفاً رصده (ابن هشام) راوى السيرة عبر عدد من الصفحات على استطالتها، بأسماء قتلى قريش فى بدر، وأسماء الذين قتلوهم من المسلمين، كل قتيل، وكل قاتل، دون إسقاط لاسم مقتول أو لاسم قاتل من الطرفين(٤٤).

وربما كانت مثل تلك المزايدات التى أوردناها، مدعاة لتهكم رجل ملحد مثل ابن الراوندى وهو يتساءل:

> من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهم كانوا مفلولى الشوكة قليلى البطش، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم، لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً؟! وأين كانت الملائكة يوم أحد حين توارى النبى بين القتلى ولم ينصره أحد؟(٤٥).

وإذا كنا نورد كلام ذلك الملحد، فلكى نرى إلى أى حد يمكن أن تبلبل تلك الروايات الفؤاد، ولا شك أن موقفه كملحد مرفوض بالقطع من جانبنا، لكنا ربما تساءلنا تساؤلاً مشروعاً من مسلم يريد الاطمئنان لطوية فؤاده، حرصاً على صيانة إيمانه ونقائه، مع تساؤل من سأل (أبى الحسن السبكى)، وهو يقول:

> سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ببدر، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه... وكان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة(٤٦).

أما الأهم برأينا فى خبر الملائكة، فهو أن إعلام النبى للمسلمين قبل القتال بالمدد السماوى، كان كفيلاً بتقوية روحهم المعنوية، وإنزال السكينة على قلوبهم، وهو ما أدى بالفعل إلى نومهم ليلة القتال نوماً أخذوا به راحتهم، استعداداً لاستقبال قريش فى الصباح، كما كان وجود الملائكة - فى حالة أخرى - حلاً مثالياً لمشكلة توزيع الأنفال، عندما اختلف المسلمون حول أنصبتهم فى أنفال بدر، فنزعت من أيديهم ووضعت بيد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ليقرر ما يراه لشأنها، باعتبار الله وملائكته هم أصحاب ذلك النصر، وهو ما قالت بشأنه الآيات:

> ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (١/ الأنفال).

---

(٤٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٠٢ : ١٠٦.
(٤٥) إبراهيم بيومى: فى الفلسفة الإسلامية، ص ٨٣.
(٤٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

وهى الآيات التى كان سببها مايرويه أبو إمامة الباهلى:

سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين عن بواء، أى على السواء(٤٧).

والعجيب بشأن ما روى عن الملائكة البدريين، قصصاً أخرى، كان واضحاً أن أصحابها لم يجدوا أية دلائل ظاهرة يمكن تأويلها ونسبتها إلى الملائكة، فالتقطت نمل الوادى الذى ربما سال من جحوره بفعل المعركة، وما سكب من ماء القلب المغورة، لترى فى ذلك النمل ملائكة السماء، وهو ما جاء فى قول جبير بن مطعم، «رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم... وعن حكيم ابن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادى خلص بجاد من السماء قد سد الأفق، وإذا الوادى يسيل نملاً، فوقع فى نفسى أن هذا شىء من السماء أيّد به محمد - عليه الصلاة والسلام - فما كانت إلا الهزيمة، وهى الملائكة»(٤٨). لكن الملاحظ هنا أن الرواية خرجت بنمل الوادى إلى فضاء الأسطورة، لتضع جملة تقول: إنه نمل سماوى، سقط من السماء على الأرض.

والحاسم فى أمر تلك الروايات جميعاً، والذى يضع أمر الملائكة فى موضعه الصحيح، ولا يسمح بسلب الرواة للعقلانية المعهودة عن دين الإسلام، فهو ما جاء بين الروايات هادئاً رصيناً يقول:

لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر، لمات أهل الأرض خوفاً من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم(٤٩).

أما القاطع فى المسألة فهو:

أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه... وكان الملك يتصور فى صورة من يعرفون(٥٠).

---

(٤٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٢، ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٢.
(٤٨) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٦١.
(٤٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٠٧.
(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٠.

باب أول

قراءة أخرى

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾

[٢٦/ آل عمران]

«واللات والعزى لا نرجع، حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً»[1]، كان هذا نداء أبى جهل (أبو الحكم بن هشام) أحد رجالات الملأ القرشى، لما أقبلت قريش إلى بدر تحتفل بنجاة تجارتها، ثم تيقنت أن النبى وأصحابه قد سبقوهم إلى هناك.

والنداء يعكس مدى ثقة (أبى الحكم) فى قوة قريش، كما يعكس الرغبة فى تأديب الخارجين على الملأ، بأسرهم ثم أخذهم إلى مكة لمحاسبتهم، ليكونوا عبرة لمن تساوره أطماعه من الأعراب، بتهديد الطريق التجارى المكى، طريق الإيلاف، وهو ـ لا شك ـ النداء الذى حاول المشركون تنفيذه، بتحاشى القتل طمعاً فى الأسر، فكان نصر الله لجنده، مما عكس توقعات (أبى الحكم)، الذى أثبتت وقعة بدر أن حكمته قد تخلت عنه فى قرارات عدة، ساعدت على الهزيمة، فاستحق لقب (أبى جهل) عن جدارة واستحقاق.

وإعمالاً للمادة التى رصدتها كتب السير والأخبار الإسلامية عن موقعة بدر الكبرى، يمكن إعادة قراءة واقع الأحداث قراءة موضوعية، تضع كل حدث فى موضعه الصحيح، لمعرفة دور كل عنصر، فى إفراز النتائج التى انتهت إليها الوقعة البدرية، التى شاءت لها الظروف أن تكون ذات دور بارز فى تحديد مسار التاريخ الإنسانى بعدها.

وضع المكيين

بداية يمكننا الوقوف مع ما نبه إليه (أحمد إبراهيم الشريف)، عن وضع المكيين فى مكة قبل الخروج إلى بدر، وكيف كان الهاشميون، آل بيت العشيرة النبوية، عيوناً له على أهل مكة، يرسلون له بأدق التفاصيل، ويحيطونه علماً بأخبار الملأ، وبالأحوال الاقتصادية والاجتماعية كلما جد جديد، وأية تحركات مهما صغر شأنها، مع ما كانوا يذيعونه بين أهل مكة فيما نعرفه بالحرب النفسية، لإضعاف الروح المعنوية لرجال البيت الأموى وأشراف الملأ[2]، وهو ما رأيناه من جهتنا، فى أمثلة سبق ورصدناها فى موقعها من السياق، كرؤيا (عاتكة بنت عبد المطلب)، ورؤيا (جهيم ابن الصلت بن عبد المطلب)، مع التهديد الواضح والمباشر، الذى حمله (سعد بن معاذ) من يثرب إلى مكة، فى عمرة أعلن أثناءها إمكان يثرب قطع طريق الإيلاف الشامى، وذلك قبل وقعة بدر بقليل.

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٣.

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ص ٤٢٠.

ثم كان ما كان من تفرق القرار المكى، وفقده الإجماع واتفاق الكلمة، حول الخروج أو القعود، ثم ما كان من شأن بنى هاشم، ويقين الأمويين أن هوى بنى هاشم مع محمد، وما كان من خروجهم مع الخارجين مكرهين، بإصرار غير حكيم من (أبى الحكم)، مما جعل الجبهة المكية من البداية، متفرقة وغير متماسكة، تستبطن فى داخلها صفاً معادياً لها.

أما الشعور بالتأثم لدى المكيين، فكان واضحاً فى كثير من المواقف، نتيجة خروج أصحابهم وإخوانهم وبنيهم وبنى عمومتهم فى هجرة لاجئة إلى يثرب، وهذا الشعور بالذنب والإثم، كان عاملاً آخر يضاف إلى عوامل ضعف الجبهة المكية فى وقعة بدر، وذلك فيما يؤكده (الدكتور الشريف)[3].

ونستعيد مشهد خروج أهل مكة من البداية، فهم يخرجون استجابة لاستغاثة (أبى سفيان)، لنجدة تجارتهم القادمة من الشام والتى عرض لها المسلمون، ليتغير الأمر فجأة، بعد أن خرج المكيون فى طريقهم لإنقاذ القافلة، فتأتيهم رسالة ثانية من (أبى سفيان) «إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا»[4]. فيزمعون العودة إلى مكة بعد أن هدأ ما بالنفس من حرور واستنفار، بنجاة أموالهم، ورجالهم من حراس القافلة السفيانية، لكن ليهتف (أبو الحكم بن هشام): «والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا»[5]، فيعود الركب مرة أخرى موجهاً وجهه نحو بدر، ليستعيد تثبيت الهيبة القرشية، بحفل يسمع به جميع العرب، فيهابون قريشاً بعدها أبداً، وتتأرجح أحوال القرشيين النفسية، مع كل موقف جديد، ليجدّ جديد آخر، وقد وجّهوا وجهتهم نحو بدر، فتنحزل عنهم بنو زهرة، أخوال النبى عليه الصلاة والسلام المباشرون، وأهل (آمنة بنت وهب)، التى تركته طفلاً يتيماً، وهم من يمثلون ثلث عدد الخارجين، ويعودون إلى مكة مكتفين من المغنم بنجاة تجارتهم ورجالهم، راغبين عن الحفل السامر الذى دعا إليه (أبو الحكم)، والذى تحول مع الأخبار القادمة مع المتجسسين والعيون، إلى أرق وترقب لما ينتظرهم ببدر، وهنا تأتيهم ضربة أخرى بانحزال آخر، كان سببه ثقتهم السريعة فى الشيطان (سراقة بن مالك) الزعيم الكنانى، الذى طمأنهم من ناحية بنى بكر بن كنانة، وأن كنانة البكريين لن يأتوهم بشىء يكرهونه رغم ما كان بينهم وبين قريش من ثأر، بل ويخرج معهم (سراقة) إلى حفلهم البدرى، تأكيداً لمقدم كنانة

(٣) نفسه: ص ٤٣٠.

(٤) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٣٧٩.

جميعاً خلفه لدعم قريش، ثم يفلت مع الوصول إلى بدر عائداً، ليردد لسان (أبى الحكم) الذى حاز لقب (أبى جهل)، محاولاً تخفيف الأثر النفسى لانحزال سراقة عنهم بقوله: «يا معشر الناس: لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد مع محمد»[٦]. وهنا لا يغيب على فطن، أن بنى بكر بن كنانة، كان لهم قبل بدر موادعة مع النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن جرّد عليهم غزوته فى صفر، من آخر أيام العام الهجرى الأول.

وما بدأت المعركة فعلياً، إلا وكانت قريش محطمة معنوياً بالتمام، بعدما رأت ثلاثة من أشرافها وشيوخها ورجال الملأ المقدمين، يتضرجون فى دمائهم فى مبارزة سريعة، فقتل الشيخ الجليل - بتعبير كتب السير الإسلامية - (عتبة بن ربيعة)، وأخوه (شيبة بن ربيعة)، وابنه (الوليد بن عتبة)، فى لحظات، لتبدأ المعركة الساخنة، مع نداء النبى لرجاله: شدوا.

ويبدو أن الكثرة العددية للقرشيين، مقارنة بعدد المسلمين، كانت مدعاة فى نظر البعض، لعدم البحث عن أى ظرف آخر لهزيمة قريش، فهى المعجزة، ولا جدال عندنا أنها معجزة انتهت بانتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، لكن مع الأخذ فى الحسبان أن تلك الكثرة القرشية، كانت تحتوى على تناقض صارخ فى الأعمار مع القلة الإسلامية، حيث كان الجمع القرشي يحوى الأشراف والأجلة من شيوخ قريش، مقابل جيش إسلامى يضم فى معظمه شباباً كله فتوة، مع رجال يثرب المتمرسين بالحرب المتترسين بالحلقة.

وهذا بالطبع ما يمكن إضافته جميعاً إلى عدم ثقة قريش فى عدالة موقفها، من حيث قياسه على محك العرب فى العدل، وإن اتفق مع مقاييس المصالح، وتثبيت الهيبة كأغراض أساسية، وهو الأمر الذى كان غير موافق لرغبة جميع القرشيين، فانقسموا حوله فى الرأى بعد نجاة تجارتهم، هذا ناهيك عن الخوف القرشى من إصابة أحد من العشيرة، أو سفك دم أحد من بنى العمومة أو الإخوة.

ولا نزاع فى أن وصول قريش إلى بدر متأخرة عن المسلمين بيوم كامل، لم يعطها فرصة اتخاذ المواقع الملائمة فى الحرب، خاصة أنها ما أن دخلت وادى بدر حتى بدأت المعركة، مع الجهد والعطش الذى أخذ بها وهى تحث الخطى أملاً فى مياه بدر التى وصلتها وقد عوّرت، مع تضارب رأى الرؤوس منها نتيجة غياب القائد الواحد، حيث كان (أبو سفيان/ صخر بن حرب) صاحب اللواء متغيباً مع قافلته، مما كان سبباً فى خلف عظيم بين الملأ فى كل شأن منذ خرجوا من مكة، فحاربوا بدون قائد ولا ترتيب ولا حتى نفوس مهيأة للمعركة.

---

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٨٣.

وضع المسلمين

وبمقارنة حال المكيين بحال المسلمين، نجد أن رصيداً موضوعياً آخر لانتصار المسلمين فى بدر على أهل الشرك، لعل أهمه هو ثقة شباب الجيش الإسلامى فى عدل قضيته، وأن الله يعطى نصره للمظلوم الذى أخرجه الظالمون من أهل بيته وبنيه، إضافة بالطبع إلى الأنصار رجال المجالدة المتمرسين، من حازوا صفة أهل الدم والحرب والحلقة التى ورثوها كابراً عن كابر، وهو ما أجج معنويات المسلمين وأعلاها، لتطلب ثأرها أو موتاً بعده جنات خالدة، كنتائج ليقين أنهم يحاربون ومعهم رسول الله، ثم كان أعظم دعم لتلك المعنويات العالية، الوعد بالإمداد السماوى المحارب، هذا بالطبع مع تحول الولاء عن القبيلة إلى الأخوة الإسلامية، عن العشيرة إلى الله ورسوله، وعن البطون والأفخاذ إلى الأممية، مما جعلهم يحاربون دون أن يبالوا من يصيبون من العشيرة أو الأهل، وما إن سقط فى المعركة أخ أو ابن أو عم أو ابن عم، أما الدافع المادى المباشر للمغانم، فكان لا شك صاحب دور عظيم.

ومن ثم؛ حارب المسلمون وهم تحت قيادة موحدة منظمة، لقائد أعلى وهيئة أركان حرب يثربية. قسمهم إلى ألوية ذات علامات مميزة، وصفوف لكل منها دوره فى الرماحة أو المسايفة أو النبالة، مع سمات الصوف التى علقوها بخوذهم ونواصى خيولهم، بعد أن ناداهم النبى «سوّموا فإن الملائكة قد سوّموا» لمزيد من معرفة بعضهم بعضاً فى المعركة، ثم الشعارات الشفرية ونداءات يعرفون بها بعضهم بعضاً، ويميزون بها أنفسهم مع اختفاء الرؤوس والأجساد تحت الخوذ والدروع الحديدية، وهو لا شك لون عظيم من الاستعداد، لا شك أدى على الجانب الآخر إلى قتل القرشيين بعضهم بعضاً، مع سلامة تامة من هذا الأمر على الجانب الإسلامى. كما كان خبر الملائكة مدعاة للاطمئنان النفسى، جعلهم يأخذون ليلة المعركة قسطاً طيباً من الراحة والنوم.

وكان التبكير فى الوصول إلى بدر، ميزة أخرى مكنت المسلمين من اختيار الأماكن المناسبة، سواء للنبالة فى الأعالى، أو للرماحة خلف السواتر الصخرية، أو لبعض من هؤلاء وأولئك فى صفوف خلفية، لحماية هجوم السيافة، مع حيازة الماء فى الحوض، ثم كان اختيار وجهة القتال ذاتها، وهو ما أشار إليه الواقدى فى قوله:

> ... ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس،

فنزل رسول الله بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية(٧).

وهو ما إن حققناه جغرافياً فإنه يعنى أن المعركة بدأت فى الصباح، والمسلمون وجهتهم الجنوب الغربى والشمس خلفهم، بينما كانت وجهة المشركين الشمال الشرقى والشمس فى أعينهم. أما أهل علم النفس فيقولون:

> وفى جميع الأحوال، فإن لذلك النوع من الانتصار، - وهو كثير جداً فى التاريخ، ونبه إلى نظرائه القرآن الكريم - تفسيراً يرد تحت اسم الاستجابة الحرجة Reaction Critique حيث تبدى القلة استماتة فى الدفاع والهجوم، تؤدى إلى النجاح، ثم أن تلك الظاهرة معروفة فى بعض سلوكيات الطفل أمام خصم أكبر منه، وفى عالم الحيوان عند الدفاع مثلاً عن مجاله الحيوى...(٨)

هذا بينما نجد قراءة موضوعية واعية للكاتب والمؤرخ الإسلامى (أحمد شلبى)، تطلعنا على النبى عليه الصلاة والسلام كقائد عسكرى ناجح، يأخذ بأسباب الظرف الواقعى فى كل خطوة، فهو - فيما يقول (الدكتور شلبى) - «إذا أراد خوض معركة، كتم سر اتجاهه الذى يسعى إليه، حتى عن أقرب الناس إليه، ليفاجئ الأعداء بهجومه.. وقد روى عن كعب بن مالك أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يغزو غزوة ورى بغيرها، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا: إن لنا هدفاً، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، وكان إذا عقد اللواء فى سرية من السرايا لأحد أصحابه، يركز اللواء فى فناء المسجد ويختار بعض الأبطال، ولا يحدد المكان لأمير السرية إلا عند التحرك، وأحياناً كان يكتب له كتاباً ويطويه، ويأمر بالاتجاه نحو الشمال أو نحو الجنوب مثلاً، وألا يفتح الكتاب إلا فى مكان يحدده، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو، فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة.

ومما عنى به الرسول أنه قبل المعركة، كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو، حتى يأخذ للأمر عدته... وكان جواسيس بمكة يأتونه بالأخبار... واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيماً شمل مسيرة الجيش، وترتيبه، فهو يسير بجيشه وتكون مسيرته هو فى آخر الركب... وهو يلبس للحرب لباسه وعدته، ويحمل الجيش الألوية وتنشد الأناشيد للتشجيع والحماسة... ويتخذ للجيش كلمة سر... وكان يضع كل فرد مع أفراد قبيلته،... وقد تأثر القادة

(٧) الواقدى: المغازى، تحقيق م. جونز، ج ١، ص ٥٦.

(٨) د. على زيعور: قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص ٥٩.

المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثراً كبيراً... حتى ليروى أن على بن أبى طالب فى غزوة بدر... التقى نوفل بن خويلد... فصاح نوفل بعلي: أسألك بالله والرحم أن تكف عنى، أنا أخو خديجة وخال فاطمة (وهى رواية سترد فى غزوة أحد فى الرواية الأرجح، حيث كف عنه على فأمره النبى بقتله، والإشارة هنا مضافة من عندنا إلى كلام الدكتور شلبى)، فقال على: لا قرابة بين مشرك ومسلم... وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه... وقال له وهو يطعنه: خذها فى سبيل الله»[9].

نتائج بدر الكبرى

يقول (البيهقى) معقباً على غزوة بدر، وما أدت إليه من نتائج:

> وأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين، والمنافقين، فلم يبق فى المدينة منافق ولا يهودى، إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر[10].

وهكذا؛ وعلى الترتيب ترتيب نتائج غزوة بدر الكبرى، فأذل الله رقاب المشركين، ولم يكن ذلهم إلا بهزيمة ماحقة، قضت على الرؤوس القرشية، رجال الملأ القرشى، الأمر الذى كان عسير التصديق عند رجال عرب ذلك الزمان، حتى أن النبى عندما بعث رجاله يسبقونه ببشرى النصر إلى يثرب، ولإلقاء الرعب فى قلوب المتظاهرين بالطاعة، وفى أفئدة اليهود، بهتاف ينادى «قتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان، من أشراف قريش»، كان الرد المتسرع من (كعب ابن الأشرف) وهو غير مصدق للخبر:

> إن كان محمد قد قتل هؤلاء القوم، فبطن الأرض خير من ظاهرها[11].

ولعل مبلغ ذلك الانتصار البدرى، يظهر واضحاً فى المدى الذى وصلت إليه قوة المسلمين، وتضاءلت بجانبه قوى يثرب جميعاً، ثم يتضح فى مقتل (كعب بن الأشرف) بعد ذلك، لما ذلف به لسانه، أما مكة فحالها يتضح فى خروج (كنانة بن الربيع) يصحب (زينب) بنت رسول الله رضى الله عنها، نهاراً جهاراً أمام أعين قريش، وما دار من حوار بينه وبين (أبى سفيان)، يبرز

(9) د. أحمد شلبى: السيرة النبوية العطرة، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧، ج ١، ص ٣٧٥، ٣٧٧.
(10) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١١٧.
(11) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٣٥.

مدى هوان قريش وانحطاط هيبتها، ويروى (ابن هشام) أن قريشاً قامت تنوح على قتلاها، «ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه فى الفداء، وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، والحارث بن زمعة، وكان يحب أن يبكى على بنيه، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق، قال: فلما رجع الغلام إليه قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فذاك حين يقول الأسود:

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

على بدر سراة بنى هصيص ... ومخزوم ورهط أبى الوليد

وبكى إن بكيت على عقيل ... وبكى حارثاً أسد الأسود

وبكيهم ولا تسمى جميعاً ... وما لأبى حكيمة من نديد

ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا[12]

وهكذا ذهب سراة الناس وجدودهم فى بدر، وألقيت أجساد رجال الملأ فى القليب، وبقية من كبر وفخر كاذب تمنع قريشاً من النواح على كبارها وأشرافها، بينما لم تجد امرأة أضلت بعيرها الوحيد حرجاً فى العويل والندب، فالفقر له أحكام غير أحكام الغنى والثراء، ومن ثم ومع اللوعة، أخذت قريش تدمر بيدها هيكلها الإنتاجى، المتمثل أهم جوانبه فى أمن كلّ من دخل مكة، فتضرب فى غضبها أمن كسبها، فى رواية (ابن كثير) عن خروج (سعد بن النعمان) الأنصارى معتمراً إلى مكة، لنرى تلك العمرة ذات غرض واضح للجس والاختبار، ومعرفة مدى ما وصلت إليه أعصاب قريش، ومما ليس له معنى - فى رأينا - أن ينزل أنصارى إلى مكة، وأفلاذ كبد مكة لم تزل دماؤها لينة طرية على أرض بدر، لولا غرض واحد يستحق ذلك، فيقول ابن كثير: «خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً... وكان شيخاً مسلماً، فى غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً، وقد كان عهد قريش أن قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، وقال فى ذلك:

(12) السهيلى: شرح السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ٥٥.

أرهـط بنـى أكـال أجـيبوا دعـــاءه ... تعاقدتـم لا تسـلموا السـيـد الكهـــلا
فــإن بنـــى عمــــرو لئـــام أذلـــــة ... لئـــن يكفـــوا عـــن أســيرهم الكبـــلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبى، فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلى سبيل سعد،(١٣).

أما ما تبع ذلك من نتائج متوقعة لبدر الكبرى، فهو أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أصبح مرموق الود من القبائل، وخاصة المتاخمة ليثرب، وتدفقت عليه الهدايا لكسب رضاه، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق، وهو ما أضعف فى المقابل جبهة مكة، التى لحق تجارتها ضرر جسيم، وهو الموقف الذى أخذ بالتفاقم مع مراجعة القبائل العربية لموقفها، بالنسبة لقريش، إزاء القوة اليثربية الجديدة، هذا بالطبع مع التحسن المطرد لأحوال المسلمين الاقتصادية، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية سلاحاً ومالاً، ومنحتهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، التى مكنتهم من السيطرة شبه الكاملة داخل يثرب، فامتلأوا جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، ثم قتل أى شخص يتجرأ بمعارضة الدولة الطالعة، وذلك فيما يرى (الدكتور الشريف)(١٤).

أما المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذى اصطفاه ربه، فقد جاءت بشأنه الآيات الكريمة ـ بعد ذهاب الملأ ـ تقول:

ـ ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾ (٦٤/النساء).

ـ ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٨٠/النساء).

ـ ﴿كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ (٥١/النور).

أما الأكثر بلاغة وتبليغاً، وفيصلاً قاطعاً، فهو ما سجلته الآيات الكريمة بقولها:

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ (٢٦/آل عمران).

---

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١١، ٣١٢.
(١٤) د. أحمد الشريف: سبق ذكره، ص ٤٣٦.

ولعل العنصر اليهودى فى المدينة، قد أدرك بما عهد به من حصافة، مغزى (الآخرين) فى الآية الكريمة:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (٦٠/ الأنفال).

وهو البيان الذى ستنبىء به الأحداث اللاحقة، والمتلاحقة على صفحات تراثنا الإسلامى.

ومن بين أهل يثرب، أمسى أهل بدر ومقاتلوها، هم المقدمون على غيرهم من مسلمين، وهو ما يشير إلى وقع الوقعة وقيمتها ونتائجها، ويظهر فى عدد من الروايات حول ما حازه هؤلاء فى الدولة الجديدة، «وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم، ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر للنبى وهو جالس فى صفة ضيقة، ومعه جماعة من أصحابه، فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم فلم يفعلوا، فشق قيامهم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين: قم يا فلان، قم يافلان، بعدد الواقفين فعرف رسول الله الكراهة فى وجه من أقامه، فقال: رحم الله رجلاً يفسح لأخيه، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ (١١/المجادلة)، فجعلوا يقومون بعد ذلك... وخص أهل بدر بأن يزادوا فى الجنازة على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم»(١٥).

وعليه، فقد كان لوقع الوقعة البدرية، وما أحدثته من تغيير فى موازين القوى، واشتداد عود الدولة الإسلامية الطالعة وصلابته، دور أساسى فى ظهور ولاءات جديدة، اعتلى فيها المحاربون الأول والسابقون، سنام الحظوة فى الدولة الإسلامية، حتى تم منحهم الجنة منحاً مطلقاً دون اعتبارات أخرى غير مشاركتهم فى الوقعة البدرية، وهو ما نجد نموذجاً له فى حدث خطير، بعد زمن من بدر، قبل فتح مكة بأيام، عندما أرسل (حاطب بن أبى بلتعة) رسالة تحذير إلى أهل مكة بينما كان الرسول يجهز للفتح سراً، مع امرأة ذهبت تحملها إليهم، فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إثرها جماعة على رأسها (على بن أبى طالب) الذى يروى قائلاً:

فأدركناها تسير على بعير لها، فقلنا الكتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، فأنخنا بها والتمسنا فى رحلها فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت أنى أهويت إلى حجزتها وهى

---

(١٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٠.

محتجزة بكساء، أخرجته فانطلقنا به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه، فقال رسول الله: أليس من أهل بدر، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة وغفرت لكم، فدمعت عينا عمر رضى الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم(١٦).

هذا مع نتائج أخطر على مستوى شكل الدولة الاجتماعي المقبل، كنتائج لتعزيز سلطة النبي الحاكمة، وهو الأمر الذي أدى إلى تراجعات عن الأممية المطلقة، والأخوة المطلقة (المؤاخاة) التي كادت تكون مشاعاً، وإلغاء نظام المؤاخاة، بعد ما حاز المهاجرون من نفل طيب، وأموال من فك الأسرى، لتطفر الدعوات الأولى للامتلاك والتبرجز، والتي بدأت ترغيباً في امتلاك كنوز كسرى وقيصر، كذلك سنرى فيما بعد، أن المشاركة في بدر كانت أساساً في الحصول على الهبات، ومقياساً للأعطيات، بعد أن اعتلى المحاربون السابقون مكانهم المتميز في الدولة، وبينما كان الباقون منهم على قيد الحياة يتحولون نحو الثراء والامتلاك، كان يتم استحضار روح الآيات المكية الأولى، التي كرست الملكية الفردية، وقدمت عقلنة واضحة للتفاوت الطبقي، من قبيل:

ـ ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ (٧١/ النحل).

ـ ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٧٥/ النحل).

ـ ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ (١٦٥/ الأنعام).

لتبدأ مرحلة جديدة على الخط الاستراتيجي، متجاوزة المرحلة التكتيكية المتحالفة مع المستضعفين، تستكمل خطها الأصلي، لكنها وهي بسبيل ذلك تشكل تراجعاً محسوباً عن الأممية المطلقة، فتأخذ السمت الوسطي بين الأممية وبين الدعوة إلى الحفاظ على العلاقات العشائرية، والتوصية بذوي الأرحام، في طور متوازن عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (١٤٣/ البقرة).

وهو التوجه الذي يفسر رواية أخرى عن (حاطب بن أبي بلتعة) ـ يجب قراءتها مقارنة

---

(١٦) البخاري: ٧٤ كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، انظر أيضاً مسلم في ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر.

بموقف سابق أُعتق فيه (بلال) بعد شراء (أبى بكر) له لرفع الأذى عنه ـ والرواية تقول: إن (حاطبا) آذى عبداً مسلماً له، فجاء العبد المسلم يحمل أذاه إلى النبى عليه الصلاة والسلام. موقنا بحقه فى المساواة المطلقة، وبحقه فى ظل المبدأ الأممى الذى دفعه للرسول، غير شاكٍّ فيما يلزم عن المبدأ من مقررات حقوقية تستوجب التطبيق، لينهى للرسول النتيجة التى توصل إليها، غير مدرك ما أدت إليه بدر من نتائج وتحولات، فيقول له:

لیدخلن (حاطب) النار.

لكن ليرد عليه النبى عليه الصلاة والسلام:

كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً[١٧].

ثم لنلحظ أن (حاطبا) نفسه، هو من استمر فى معاملة عبيده بالقسوة، وشدد عليهم النكير. وضيق عليهم إلى حد المسغبة، مما دفعهم ـ عام الرمادة زمن خلافة عمر بن الخطاب ـ إلى السطو على بعير له والتهامه، وهو ما دفع عمر، صاحب الانتماء القوى إلى المنزع الأممى، إلى تعنيف (حاطب) تعنيفاً شديداً، مع إيقاف تطبيق حد السرقة على عبيده.

ومن ثم فإن قراءة نتائج غزوة بدر، تلاحظ بداية الأسلوب الوسطى المتوازن للدولة بين النقائض، فتدعو لتوحد أممى تحت راية واحدة، وسيادة دولة موحدة، وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، لكنها تضم فى شكلها الاقتصادى لوناً طبقياً لا نزاع فيه، وتحوى فى شكلها الاجتماعى قبائل متوحدة، لكنه توحد غير منفرط إلى فردية مطلقة، إنما ترابط لأضمومات قبلية فى هيئة حزم موثقة بوثاق واحد فى إطار الدولة، وهو ما تلحظه القراءة المدققة لنزول المسلمين إلى بدر تحت راية واحدة للرسول، وشعار واحد هو «يا منصور أمت»، لكنها انقسمت إلى رايات ثلاث تسير تحت ظل راية الرسول، وتنادت بثلاثة شعارات، تحت الشعار الموحد، فكان للخزرج رايتهم، وللأوس رايتهم، وللمهاجرين رايتهم، وكان لكل من الحزم الثلاث، نداءات شعارية ثلاثة.

هذا بينما تم الإبقاء على الفردية والولاء الفردى والمسئولية الفردية، ولكن فى عالم الفكرة، عالم السماوات الإلهى، العالم الآخر فى علاقة المسلم بربه، فتم تأجيل الفردية المطلقة بمسئولية الفرد الكاملة والذاتية إلى فيما بعد، لأن تلك المسئولية المطلقة إنما تعنى أيضاً حرية مطلقة، وهو ما يتصادم مع الصرامة المطلقة المطلوبة للسلطة النبوية لإقامة الدولة دون معوقات، وهو ما يفسر لنا تجاور الآيات التى تؤكد مسئولية الفرد عن أفعاله أمام الله، والآيات التى تؤكد من جانب

(١٧) مسلم: ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل من شهد بدراً.

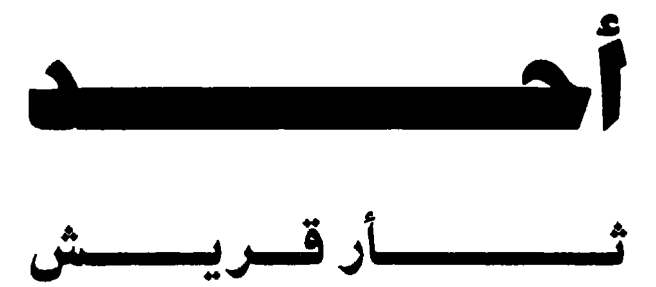
آخر الجبرية والحد من تلك الحرية المطلقة، وتقييد تلك الحريات بالمشيئة الإلهية والإرادة القدرية، ومن ثم فقد تأجل تفجير الأطر القبلية تفجيراً كاملاً إلى مرحلة مجتمعية أعلى، لكن مجرد وجود الفكرة عن الفردية المطلقة والمساواة المطلقة والمسئولية الفردية المطلقة أمام الإله فى عالمه السماوى القادم فيما بعد، فى الآخرة بعد البعث، إنما يشير بالتأكيد إلى تواتر الفكرة فى المجتمع المدنى والمكى حينذاك، وربما فى عالم جزيرة العرب، بعد تفكيك الطبقية للشكل الجماعى والمسئولية الجماعية القبلية، وأن الواقع قد أفرز الفكرة، وأنها كانت مطروحة بالفعل فى زمانها.

وعليه؛ فقد ظهرت الفردية ومسئوليتها بالفعل، ولكن كفكرة، فى مجال القوة، وكممكن قادم فى عالم الفعل، لكن فى تطور قادم، وهو ما يظهر المرحلة الآنية كجزء من الحركة الانتقالية وكدرجة أعلى تم ارتقاؤها داخل المرحلة الانتقالية ذاتها، تتلاءم ومعطيات مجمل ظروف الواقع آنذاك، وهو الأمر الذى سيتيح للنبى التحرك داخل ذلك التوازن بين النقائض دون مشاكل، فجاءت التنظيرة لا تصادم الواقع ولا تفرض عليه ما لم يتهيأ له تماماً بعد، مما سيمكن مؤسسة الدولة من استخدام الأممية دوماً، والعشائرية أحياناً، فى موضعها المناسب من الظروف المتغيرة، لتحقيق أهداف أكثر نفعاً، حين الحاجة إلى أىّ منهما وحسب الطارىء وظروفه، وما يستدعيه من حاجة إلى أى من الطرفين النقيضين.

وتأسيساً على كل ذلك، فإن غزوة بدر، قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة، كان الإفصاح عنها مؤجلاً حتى يأتى الله بأمره، وكان أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لنظام قريش السياسى، فى حكومة الملأ شبه الجمهورية البدائية، بالقضاء على سادتها المترفين من الملأ والسادة، المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن، بالاعتماد على ذلك التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى، ستمسك بأعنتها قبيلة قريش، وقبيلة النبى، والأرستقراطيون فيها تحديداً من البيت الأموى، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى الرحم وصلات العشيرة، التى صبت الأمر بيد الطبقة التى سيتطور شأنها ويتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، وهو ما أدى إلى وضع الشروط السياسية للسلطة المتوازنة للدولة التى انتهت لمركزية متوارثة صارمة.

ويسبيل حدوث ذلك، ستبدأ الدولة تفصح تدريجياً عن وجهها الطبقى دون موارية، ليهدأ تنديد الآيات بالثروة وأصحابها، مع خفوت متساوق فى حديثها عن المستضعفين فى الأرض، ولكن ليظل التوازن بين النقيضين وعدم حسمه وسيلة بيد المستضعفين، عندما يرتدى الصراع الطبقى زيه العشائرى، فى صراع على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وفى عدد آخر من ثورات المستضعفين ضد الدولة، والذى ارتدى عادة زيه الفاطمى والهاشمى والعباسى، العشائرى أيضاً.

الباب الثانى



حروب دولة الرسول

جزء أول

باب ثان

السياسة بعد بدر الكبرى

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾

[٨٥/ آل عمران]

عن ابن اسحاق راوى السيرة النبوية أنه قال:

ولما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، مرجعه من بدر، ... لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم.

وقال الواقدى:

... فلما أتاه وجد الحى خلوفاً، فاستاق النعم، ولم يلق كيدا، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة[1].

وعليه، فإن السياسة العسكرية الواضحة، تشير إلى أنه بعد قطع الرؤوس من شيوخ قريش وسراتها، اتجه الجيش الإسلامى نحو القبائل الكبرى فى باطن الجزيرة لإخضاعها لدولته، وإرهابها لتؤوب إلى حلف يثرب، إمعاناً فى تقطيع أوصال الإيلاف القرشى لصالح الدولة الجديدة، أما حديث (الواقدى) هنا، فيشير إلى الأثر العظيم لوقعة بدر فى نفوس أعراب بنى سليم، تلك القبيلة التى لا يستهان بها، إلى الحد الذى هربوا فيه من مضاربهم لمجرد سماعهم بمقدم المسلمين، وتركوا ديارهم وأنعامهم، ليقيم المسلمون على مياههم وحياضهم ومضاربهم أياماً ثلاثة، يعودون بعدها إلى يثرب بغنيمتهم آمنين.

وتشير الأخبار إلى مسير آخر للنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى سليم، بعد أن رنا إلى علمه اجتماع سليم وغطفان بحلف يريد الانتقام، ومرة أخرى تهرب سليم هرباً غير كريم وتترك حيها:

فلما سار إليه لم يجد به أحداً... فوجد خمسمائة بعير مع الرعاة... فحازوها وانحدروا بها نحو المدينة... فأخرج خمسه، وقسم الأربعة أخماس على أصحابه[2].

وتخميس الغنائم هنا يعود إلى أمر الوحى:

﴿واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول﴾ (٤١/ الأنفال).

وهى الحصة التى سبق واشترعها لأول مرة، ابن عمة الرسول (عبد الله بن جحش) فى سريته إلى نخلة، والتى خرق فيها الأشهر الحرم، واستولى على مغانم القافلة، وكانت أول غنم للمسلمين، ثم قال لرفاقه:

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

(٢) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٠.

إن لرسول الله مما غنمناه الخمس، ثم فرق الباقى بينه وبين أصحابه.

وهو ما جاء الوحى بعد ذلك مصدقا عليه فى الآية السالفة[٣].

هذا بينما كان الحال فى مكة غير الحال فى يثرب، فكانت مكة موتورة بقتلاها، حائرة فى أمرها وأمر مهابتها وتجارتها وهو ما يعنى كل مصيرها، ولما وصل (أبو سفيان) بقافلته، التى كانت سبب بدر الكبرى، ورأى قريشاً تعود فلولا منهزمة وهو لا يستطيع شيئاً، وهو صاحب اللواء والعسكر، نذر بيمين مغلظ إزاء ما رأى من هوان، ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو يثرب، ومعلوم فى تراثنا، أن الغسل من الجنابة كان ميراثاً فى تقليد العرب من قديم، مثله مثل الصلاة على الموتى، ومثل الحج وشعائره[٤]، وكذلك القسم باليمين، كان واجب الوفاء.

ولما طال الأمر بالرجل، وهو من السادة المرفهين، وكان غزو يثرب بحاجة إلى زمن وإعداد، لم يحتمل عدم الاغتسال، ولم يكن ممن يحنثون باليمين، وهو حنث عند العرب عظيم، فخرج على رأس مائتى راكب من قريش إلى يثرب متخفياً يريد أن يبر فقط بقسمه حتى يغتسل، فحرقوا بعض النخل المتطرف، وقتلوا رجلين من فلاحى الأنصار كانوا فى حرثهما، ثم عادوا هاربين إلى مكة، فخرج النبى عليه الصلاة والسلام مع رجاله فى إثرهم، مما اضطر رجال أبى سفيان إلى إلقاء ما معهم من قرب السويق للتخفف والسرعة، والسويق هو حنطة تحمص وتطحن وتمزج بالسمن واللبن والعسل، وتتخذ زاداً فى السفر، فغنمها المسلمون، لذلك سميت تلك الغزوة (غزوة السويق)[٥].

ولا يمضى شهر حتى يخرج النبى برجاله لتأديب غطفان على حلفها مع سليم، فى الغزوة المعروفة بغزوة (ذى أمر)، وهنا تحكى كتب السير أن غطفان وجدت السلامة فى تصرف بنى سليم:

> وهربت منه الأعراب فوق ذرى الجبال، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا أمر، وعسكر به، فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبلل ثوبه، فجعل رسول الله وادى ذى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(٣) ابن حبيب: المحبر، ص ١١٦.

(٤) نفسه: ص ٤٧٩.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ١، ص ٣٠٤، ٣٥٥.

ثم عاد - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب، بعد أن أقام هناك شهر صفر كله، إرهاباً لهم[٦].

ولم تمض سوى أيام حتى خرج إلى بنى سليم، الطرف الثانى فى حلف (غطفان/ سليم)، فى غزوة ثالثة، حتى بلغ (بحران) وليقيم هناك شهر ربيع الآخر وشهر جمادى الأولى، يستعرض قوة المسلمين وينشر هيبتهم، دون أن يتجرأ عليه أحد، ثم عاد إلى يثرب[٧].

تناقضات يثرب

وهكذا بات غير خافٍ عن الأعراب، أن أحوال المسلمين قد تبدلت، وصاروا يخرجون ذرافات فى سرايا لا تنقطع لقطع طريق الإيلاف، وطرق التجارة الداخلية، وللإغارة على القبائل فى مواطنها لإرهابها لقطع موالاتها لمكة، وإخضاعها للدولة الإسلامية، لكن رغم كل هذا، فإن يثرب من الداخل لم تكن خالصة تماماً لصاحب الدعوة، وكان كل ما حدث من قبل، وبخاصة الصحيفة، مجرد تسكين مؤقت للأوضاع حتى يأتى الله بأمره، وبعد بدر بدأ الظرف يتغير، وفقدت المصلحة المشتركة بين اليهود والمسلمين، وأخذت السياسة طريقاً جديداً، فالسلاح قد فاض بعد بدر ولم تعد الحاجة ملحة لسلاح اليهود، والمال قد جاء من فداء الأسرى المكيين، والأممية إلى تضخم يضيق بالإطار القديم ويتناقض معه، وتحويل يثرب إلى دولة تناوىء دولة مكة، كان لابد أن يسبقه إزالة التناقضات الداخلية، بجمع شمل المدينة جميعاً، ونقلها من كونفودرالية تحالفية، إلى مؤسسة سياسية مركزية واحدة جامعة، تتجاوز القبائل المتحالفة إلى الدولة الموحدة.

ولما كان التناقض فى يثرب يتجاوز القبلية إلى العنصرية الدينية، فقد كان لابد من حسم فى الموقف السياسى نحو توحيد لكل العناصر، أو تخليص يثرب من العناصر المناقضة للتطور الجديد، ومن ثم كان لابد من موقف باتر لكل لون من المعارضة الداخلية كخطوة إجرائية أساسية، خاصة إذا جاءت تلك المعارضة من الجانب الذى يمثل اختلافاً أيديولوجياً غير مرجو الانضواء للدولة، وهنا نقرأ ما حدث بعد إصابة الملأ المكى فى بدر، والفزع الذى أصاب يهود النضير مصحوباً بالحزن والأسى، ممثلاً فى قول (كعب بن الأشرف):

---

(٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦٧، ١٦٨.
(٧) نفسه: ص ١٧٢.

أترون محمداً قتل هؤلاء؟... فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس!! والله لئن كان محمداً قد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظاهرها.

ثم أخذ يرسل نحيبه الباكي شعراً يرثى صرعى القليب ويقول:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا، إن الملوك تصرع
كم ذا أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليه الضيع
صدقوا، فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها، وتصدع

وهنا قام شاعر الرسول (حسان بن ثابت) يكيل لكعب بن الأشرف الرد قائلاً:

فابكى، فقد أبكيت عبداً راضعاً	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولو شفى الرحمن منّا سيداً	وأهان قوماً قاتلوه وصرعوا

فرد كعب مرة أخرى ينادى المسلمين أن يردوا حساناً عن الشتم والإيذاء بقارص الكلم، وأنه مابكى بشعره القوم إلا لود كان بينهم فى قوله:

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا	عن القول بأنى غير مقاربِ
أتشقنى إن كنت أبكى بعبرة	لقوم أتانى ودهم غير كاذبِ
فإنى لباك ما بقيت وذاكر	مآثر قوم مجدهم بالجباجبِ[8]

وهنا يروى ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم قد هتف قائلاً:

من لى بابن الأشرف؟

فنهض محمد بن مسلمة يقول:

أنا لك يا رسول الله، أنا أقتله[9].

ويحكي البيهقى مفصلاً «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم اكفنى ابن الأشرف، فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقتله، فقام محمد بن مسلمة منقلباً إلى أهله فلقى

(٨) السهيلى: تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٣٩، ١٤٠ (الأخطاء العروضية بالأبيات هكذا بالمصادر).
(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٨.

سلكان بن سلامة... فقال له محمد بن مسلمة: إن رسول الله قد أمرنى بقتل بن الأشرف، وأنت نديمه فى الجاهلية، ولم يأمن غيرك، فأخرجه إلىّ لأقتله... فخرج سلكان ومحمد بن مسلمة وعباد بن بشر وسلمة بن ثابت وأبو عيسى بن جبر (ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)... حتى أتوه فى ليلة مقمرة، فتواروا فى ظلال جذوع النخيل، وخرج سلكان فصرخ: يا كعب، فقال له كعب: من هذا؟ فقال له سلكان: هذا أبو ليلى يا أبا نائلة، وكان كعب يكنى أبو نائلة، فقالت امرأته: لا تنزل يا أبا نائلة، إنه قاتلك، فقال: ما كان أخي ليأتيني إلا بخير، ولو يدعى الفتى لطعنة لأجاب... وأدخل سلكان يده فى رأس كعب وشمها فقال: ما أطيب عبيركم هذا!! ثم صنع ذلك مرة أو مرتين حتى أمنه، ثم أخذ سلكان برأسه أخذة نصله منها، فجأر عدو الله جأرة رفيعة، وصاحت امرأته وقالت: يا صاحباه، فعانقه سلكان وقال: اقتلوني واقتلوا عدو الله، فلم يزالوا يتخلصون بأسيافهم حتى طعنه أحدهم فى بطنه طعنة بالسيف، خرج منها مصرانه، وخلصوا إليه فضربوه بأسيافهم... فقتل الله عز وجل ابن الأشرف»[10].

وزعم الواقدى أنهم جاءوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... وفى ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعاً	فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته	بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلاً	إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر	ومحمود أخو ثقة جسور[11]

(ويقول البيهقى إن كعباً فى كلام له كان قد شبب بنساء المسلمين؟!)[12]. ولكن شعر (ابن مالك) هنا يصل إلى غاية المراد فى تأكيده (فذلت بعد مصرعه النضير)، أحد أهم قبائل يهود يثرب، بموت سيدها، ومن الجدير بالذكر أنه فى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان، ذكر قتل (كعب بن الأشرف) عنده، فقال (ابن يامين) وكان يهودياً أسلم فى غزو النبى للنضير: لقد كان قتله غدراً، وسكت معاوية ولم يعقب كما لو كان راضياً عما يقال، أو سامعاً للقصة كما تروى

---

(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩١، ١٩٢، انظر أيضاً السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢٠٠.

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

(١٢) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٩٠.

بموضوعية لا مجال فيها للمجاملة، وكان (محمد بن مسلمة) قاتل (كعب) حاضراً رواية (ابن يامين) لمعاوية، فنهض ثائراً يقول: يا معاوية، أيغدر عندك رسول الله ثم لا تنكر، والله لا يظلنى وإياك سقف بيت أبداً، ولا يخلو لى دم هذا إلا قتلته[13].

وبعد مقتل (كعب)، وعودة الرجال، قام النبى ينادى ورجع الصدى منه يسرى مجلجلاً:

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه.

ومن ثم يروى ابن هشام:

فوثب محيصة بن مسعود من الخزرج، على ابن سنينة، رجل من تجار يهود، كان يلابسهم ويبايعهم، فقتله، وكان حويصة بن مسعود (أخو محيصة) إذ ذاك لم يسلم، وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول: أى عدو الله قتلته، أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله، قال محيصة: والله لقد أمرنى بقتله، من لو أمرنى بقتلك، لضربت عنقك، قال: أو الله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى؟ قال نعم... فأسلم حويصة[14].

وعليه؛ آذن فجر الأيام البدرية، بمغرب مرحلة آن غروبها، وأخذت آيات القرآن تتتالى تحمل روح السياسة الجديدة، تنسخ ما قد سلف من آيات المرحلة السابقة، بآيات تنبىء بما هو آت، توطئة لخلاص يثرب الكامل لسادتها الجدد.

نعم، قالت الآيات فى المرحلة السابقة يقيناً:

- ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٦٢/ البقرة).
- ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة).
- ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ (٤٣/ المائدة).

لكن السياسة الجديدة، جاءت بقرارات جديدة وحاسمة تقول:

- ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩/ آل عمران).

---

(١٣) نفسه: ص ١٩٣.

(١٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٤.

- ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ (٨٣/ آل عمران).

- ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (٨٥/آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى، والعقدى، بحيث لا يكونون أحلافاً على ذات القدر من الندية السياسية والدينية، أو العمل على إجلائهم عن يثرب، أو استئصال شأفتهم، وهو الأمر الذى سيتم تحقيقه بإصرار ودون هوادة، والذى كان سببه الوضع الخاص لليهود كأصحاب كتاب سماوى، ودستور عقدى، وهو ما جعلهم المنكر السماوى الحى لنبوة النبى العربى، وهو ما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة وأيديولوجيتها.

وهنا تروى لنا كتب السير قصة غزوة (بنى قينقاع)، تلك القبيلة اليهودية التى يصف المؤرخون المسلمون رجالها بأنهم «كانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول»[١٥].

غزوة قينقاع

عن ابن عباس قال:

لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، جمع يهود فى سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم بمثل ما أصاب قريشاً[١٦].

فكان رد قينقاع المتحدى:

يا محمد إنك ترانا كقومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[١٧].

وهنا يعلن (الواقدى) ما كان مقدور الحدوث فى باطن الأيام بقوله: فحاصرهم رسول الله

(١٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٤.

(١٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٣.

(١٧) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٩.

خمس عشرة ليلة، لا يطلع فيهم أحد، ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتفوا وهو يريد قتلهم»[18].

ويتقدم رواة السير المسلمون بتقديم التبرير الذى رأوه مناسباً لنقض الصحيفة، والسير إلى قينقاع وأسرهم، بحكاية عن امرأة عربية، ذهبت تبتضع فى سوق قينقاع، فتلاعب بها شباب اليهود، بأن ربطوا ثوبها بظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه[19].

ومثل تلك القصة التبريرية واضحة الضعف والوهن، فالمرأة العربية التى سببت تلك الوقعة الهامة فى تاريخ الدولة الإسلامية، لا ذكر لاسمها، ولا لقبيلتها، ولا ما إذا كانت مسلمة أم لا؟ ولا نعرف اسم الصائغ اليهودى، ولا من هؤلاء الذين تلاعبوا بها، بل والأخطر لا نعلم اسم ذلك المسلم الذى استشهد وهو يدافع عن المرأة، ولا إلى أى قبيلة ينتمى، ولم تزعم قبيلة أنه قد حدث مثل ذلك لأحد من رجالها، وهو الأمر الذى يخالف ما ألفناه مع المتفق عليه بكتب الأخبار والسير، والقصة بكاملها - فى رأينا - مختلقة، صيغت على مثال نموذج قديم حدث زمن حرب الفجار الأولى وكان سبباً لها، وقد لاحظ الحلبى راوى السيرة ذلك التشابه بين الحادثتين، فتطوع بتذكير القارىء الفطن بقوله: «وقد تقدم وقوع مثل ذلك وأنه كان سبباً لوقوع حرب الفجار الأولى»[20].

وربما وافقنا قارىء حصيف فى رفضنا للقصة أعلاه، إذا ما أحطناه علماً بالتبرير الحقيقى لما حدث، وهو ما جاء مروياً عن (الزهرى) عن (عروة):

> نزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (58/ الأنفال). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أخاف من بنى قينقاع فسار إليهم، ولواؤه بيد حمزة[21].

ولما كان يهود قينقاع، حلفاء للخزرج وسيدهم عبد الله بن أبى بن سلول، فقد قام عبد الله وهو يرى حلفاءه يساقون إلى الذبح مكتفين، بعد أن استسلموا، ليخاطب النبى ويقول: يا محمد أحسن فى مواليّى، فلم يرد عليه النبى، فقام يكرر، يا محمد أحسن فى مواليّى، ومرة أخرى يعرض

(18) نفسه: ص 480.

(19) ابن كثير: سبق ذكره، ج 4، ص 4.

(20) الحلبى: سبق ذكره، مج 2، ص 475.

(21) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج 1، ص 353، انظر أيضاً الطبرى: سبق ذكره، ج 2، ص 480.

عنه النبى، فيأخذ الغضب بعبد الله حتى يدخل يده في جيب درع الرسول يمسكه من لحمه الشريف وهو يقول: يا محمد أحسن فى مواليّى، حتى غضب النبى غضباً شديداً، ورؤى لوجهه ظلل وهو يقول لعبد الله: ويحك، أرسلنى، أرسلنى، بينما ابن سلول لا زال ممسكاً به ويقول: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليّى، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسود من الناس، تحصدهم فى غداة واحدة؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر!! وهنا قال له النبى: هم لك»[٢٢].

وهكذا ألغى الأمر النبوى بقتل بنى قينقاع، لكن شرط جلاءهم من المدينة خلال أيام ثلاثة لا تزيد، وبالفعل لم تمض الأيام الثلاثة حتى كان بنو قينقاع يحملون متاعهم راحلين، تاركين مزارعهم وحصونهم وما لم يقدروا على حمله، متجهين إلى أذرعات ببلاد الشام، وبذلك كان أول صدام بين النبى وبين يهود المدينة، وأول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول ويعنى قيام حاكم واحد لدولة المدينة، وهو القرار الذى أدى دوراً عظيماً فى انكماش بقية المعارضين فى يثرب لسلطان الدولة الجديدة، كما أدى من جانب آخر إلى تقليم أظافر (ابن سلول) وإضعاف مركزه، بهجرة حلفائه الذين كانوا حماية له من الأحمر والأسود من الناس، أى من اليهود والعرب، ويكفى أن نعلم مدى ذلك الأثر على (ابن أبى)، فى فارق الساعات ما بين إمساكه بلحم جنب النبى الشريف، وإصراره على مطلبه، وبين مغادرتهم يثرب بقرار آخر، ما أن سمعه (ابن أبى) حتى عاد مسرعاً إلى النبى ليسأله بقاء قينقاع فى يثرب، فحال بينه وبين الدخول إلى النبى جماعة من الصحابة، فلما حاول الدخول دفعوه إلى الحائط فشج وجهه، بينما قينقاع ينظرون ينتظرون آملين فى نتيجة المحاولة، فلما ضرب (ابن أبى) بالحائط وشج، ذهبت قينقاع فى طريقها وهى تقول: والله لا نمكث فى بلد يفعل فيه ذلك بأبى الحباب، ولا نستطيع أن ننتصر له، وغادروا يثرب، بل والجزيرة جميعاً إلى الشام[٢٣].

وقد عقبت الآيات على موقف (ابن سلول) بقولها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين. فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين﴾ (٥١، ٥٢/ المائدة).

(٢٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.
(٢٣) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٧٨.

أما (الحلبى) كاتب السيرة، فلم يرض فيما يبدو بخروج قينقاع سالمين من يثرب، والرجوع عن قتلهم، فقال إن النبى دعا عليهم بالهلاك، فما بلغوا أذرعات الشام، حتى هلكوا جميعاً بتلك الدعوة[٢٤].

وهكذا ذلت النضير بمقتل (كعب بن الأشرف)، وغادرت قينقاع، وقلمت أظافر (ابن سلول) وشج وجهه أمام حلفائه وأهله، فى الوقت الذى استمرت فيه السياسة العسكرية على طريق الإيلاف، حتى جاءت سرية ذى قرد، لتكشف المدى الذى وصلت إليه قريش من هوان، ويروى لنا الطبرى أنها كانت فى جمادى الآخرة عام ثلاثة للهجرة، عند مياه فى نجد تدعى ماء القردة من بطن عالج، والقصة «أن قريشاً خافت طريقها التى كانت تسلك إلى الشام، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة ... وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً بن حارثة، فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله... **فكان الخمس عشرين ألفاً**، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم الأربعة أخماس على السرية[٢٥].

وهنا قام حسان بن ثابت ينادى العرب، يخبرهم بشأن قريش وجبنها، ساخراً من خوفها ورعبها قائلاً:

فلجأت الشام قد حال دونها	جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم	وأنصاره حقاً وأيدى الملائك
إذا سلكت الغور من بطن عالج	فقولا لها ليس الطريق هنا لك[٢٦]

وكانت السبة عظيمة، والخسارة أعظم، ومجريات الأحداث التى تجرى مع سرايا يثرب تحمل لقريش خراباً تاماً مقبلاً، وما كان الانتظار بعد ذلك ممكناً، فقامت قريش تتهيأ لحماية تجارتها ومصيرها، وتثأر لكرامتها المهدورة، تريد ضرب المدينة والقضاء على هؤلاء الذين خرجوا منها متسللين، لتقوى شوكتهم حتى درجة القضاء على السادة، وطريق التجارة العالمى، وذلك فى الغزوة الكبرى المعروفة باسم غزوة أحد.

(٢٤) الموضع نفسه.
(٢٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩٢، ٤٩٣.
(٢٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

باب ثان

الهزيمـــة

«فناديت بأعلى صوتى: يامعشر المسلمين أبشـروا، هذا رسـول الله، فـأشـار إلىّ: أنصت».

[كعب بن مالك الأنصارى]

وبأحد تبدأ المرحلة الرابعة من مراحل تطور الدولة الإسلامية، التى تنتهى عند صلح الحديبية، ويروى لنا (ابن كثير) كيف بدأت حرب أحد بين المسلمين والمشركين فى قوله: «لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة... مشى... رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا، قال ابن إسحق: ففيهم... أنزل الله تعالى:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ (٣٦/ الأنفال).

... فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن (النساء) التماس الحفيظة، وألا يفروا»[١].

ويستكمل (برهان الدين الحلبى) فى سيرته فيقول: «وبلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذلك، أرسل به إليه عمه العباس، بعد أن راودوه على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر، ولم يساعدهم بشىء، وذلك فى كتاب جاء إليه صلى الله عليه وسلم، وهو بقباء، أرسله العباس مع رجل استأجره من بنى غفار، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها، ففعل... ويقال: أن عمرو بن سالم الخزاعى مع نفر من خزاعة، فارقوا قريشاً من ذى طوى، وجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه خبرهم، وانصرفوا»[٢].

وعليه، فقد بلغت أخبار مسير قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة عاجلة من عمه العباس، الذى كان عيناً له مع بعض بنى هاشم على قريش، إضافة إلى هوى خزاعة مع النبى، التى كانت عضواً بقبائل الإيلاف، وظلت على إيلافها مع قريش لتتسقط أخبار قريش للنبى، وهو ما يفصح به (عبد الله بن أبى بكر) فى قوله: «كانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة رسول الله، أى موضع سره وعيونه على قريش»، وبخاصة (معبد الخزاعى) الذى لم يكن مؤمناً بدعوة الإسلام، فيما تخبرنا به صدور كتب الأخبار[٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ١١، ١٢.

(٢) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٥.

ولما بلغت الأنباء رسول الله والمسلمين، فرح المسلمون، ورأى من لم يخرج منهم إلى بدر فلم يصب مغنماً، أن له نفلاً فى وقعة قريبة، فيروى (ابن هشام) «فقال رجال من المسلمين... ممن كان فاته بدر: يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون إنا جبنا عنهم وضعفنا»[٤]. هذا بينما كان (عبد الله بن أبى بن سلول)، ذلك الذى تصفه كتب السيرة بأنه زعيم المنافقين، يرى غير ذلك، والجهاد عنده هو الجهاد سواء داخل المدينة أم خارجها، ولا يجد - وهو الرجل الموسر - فى المغانم رغبة، قدر ما كانت نظرته تقدم على رؤية تعمل الخبرة القتالية، والحكمة العسكرية، وكان الخروج من المدينة إلى (أحد) حيث عسكر المشركون على بعد ما لا يزيد عن ثلاثة أميال من المدينة، يعنى لابن سلول هزيمة محققة للمسلمين، ومن هنا تقدم بالرأى يقول:

> يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا[٥].

وقامت الأنصار بدورها تقول:

> يا رسول الله؛ ما غلبنا أحد أتانا فى دارنا... فكيف وأنت فيها؟[٦].

ومع ذلك، ظل الراغبون من المتحفزين للنفل، أو للقاء الله على حميتهم للخروج إلى قريش، وظلوا بالنبى يحفزونه حتى قام فلبس لباس الحرب، فوضع البيضة على رأسه وتدرع بدرعين، وكان ذلك يوم الجمعة من شوال، من السنة الثالثة للهجرة.

وخرج المسلمون، ولكن على مشارف المدينة، لا أكثر من ميل منها، قرر (ابن أبى) العودة بأتباعه وهو سيد الخزرج، فناداهم بقوله:

> ارجعوا أيها الناس، عصاني وأطاع الولدان، وما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟[٧].

---

(٤) السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.
(٥) نفسه: ص ١٤٩.
(٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩١.
(٧) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

ورجع (ابن سلول) بمن تبعه من قومه «من أهل النفاق والريب، وكانوا ثلث الناس، حوالى ثلثمائة رجل»[8]، مما يشير إلى أن مجموع المسلمين الذين خرجوا إلى أحد كان تسعمائة مقاتل، مقابل ما تخبرنا به كتب الأخبار عن عدد مقاتلى مكة الذين زادوا عن الثلاثة آلاف، وهو موقف بالمقاييس العسكرية وحدها، كان يفسر بعقلية عسكرية كعقلية (ابن سلول) بأنه لون من الانتحار المؤكد، وأتى واضحاً فى قوله: «علام نقتل أنفسنا ها هنا؟»، ومن ثم نستطلع وضع الجيشين فى كتب الأخبار فتقول: «حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشوط من الجبانة، انحزل عبد الله بن أبى بقريب من ثلث الجيش، ومضى النبى وأصحابه وهم فى سبعمائة، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس، جنبوها، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل... **فكان أصحاب رسول الله فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم**»[9].

ومن ثم فكان حال الجيش الإسلامى، كحال قريش فى بدر، منقسم على نفسه، لكنه فى أحد، كان لا يشكل أكثر من ربع جيش قريش، وهى عوامل موضوعية، كانت كفيلة لمن يقرأها أن يتنبأ بهزيمة ماحقة للمسلمين، وهو ما قرأه (ابن أبى) الذى صقلته الحروب بالحنكة العسكرية، فنصح بعدم الخروج، ثم رأى إنقاذ أتباعه فعاد بهم إزاء وقعة هى فى رأيه لون من الانتحار، ولا شك أن عودته كانت من جانب آخر ضغطاً على المسلمين ليتراجعوا إلى المدينة، وكان مثل ذلك الموقف كفيلاً بوضع (ابن سلول) فى التاريخ الإسلامى كرأس للمنافقين، وهو ما عبرت عنه عبارة ابن هشام:

فرجع بمن اتبعه من قومه، من أهل النفاق والريب[10].

وهكذا تم وصف ثلث المقاتلين المسلمين أنصار رسول الله وأخواله، بأنهم منافقون، يرتابون فى نصر الله لنبيه، وربما كان ذلك الوصف الذى دمغ به ثلث المسلمين، راجعاً لكون (ابن سلول) وأتباعه لم يأخذوا فى اعتبارهم إلا الواقع فقط، دونما أنزل الله تعالى وتبارك من وعد وبشرى حيث يقول:

- ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ (١٥١/ آل عمران).

- ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم.

---

(٨) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٤.

(٩) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

(١٠) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.

إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ (١٢١: ١٢٥/ آل عمران).

ومن ثم؛ فإن موقف (ابن سلول) إنما يعنى عدم أخذه الوعد الإلهى مأخذ الجد، واعتماده معطيات الواقع فقط فى اتخاذ القرار، مما يشير إلى عدم إيمان حقيقى، لكن الواجب هنا التنبيه إلى أن (ابن سلول) وهو يدعو إلى عدم الخروج من يثرب، وإشارته إلى أنه ما هاجمها أحد وانتصر، إنما يعنى اعتماداً واثقاً على حصانة يثرب، وما بها من حصون وآطام، كما يعنى أن الرجل يغامر بمدينته وأهله بالكامل فى حال انتصار المهاجمين، وهو احتمال وارد أمام العدد الهائل لجيش قريش، وإن كان ضعيفاً، وهى مغامرة قبلها على بلده وأهله، مع خيار النصر المحتمل فى رد المهاجمين، مفضلاً ذلك على أن تنزل بالمسلمين إذا خرجوا هزيمة محققة، قد يفنى فيها الرجال جميعاً، وهو نصح لو أخذناه بإنصاف لأنصفنا الصدق والحق على الأقل، خاصة أن ما حدث فى وقعة أحد بعد ذلك، كان هزيمة حقيقية للمسلمين على مستويات عدة.

وكانت تلك الهزيمة النكراء لجيش المسلمين، مدعاة لمحاولة بعض المفسرين القول: إن وعد الآيات بالإمداد بالثلاثة وبالخمسة آلاف ملك، كان يوم النصر البدرى، وليس يوم أحد، بينما وقف آخرون موقفاً صارماً، يلتزم التأريخ وأسباب النزول وسياق الآيات فى السور مقارناً بالحدث، بحجج فقهية تؤكد أن الآيات نزلت فى أحد تحفيزاً للمسلمين، أما السر فى عدم انتصار المسلمين - رغم هذا المدد العظيم، وهو ما كان يعنى عدم نزول الملائكة، لأنهم لو جاءوا لحققوا نصراً سهلاً دون جهد يذكر للمسلمين - فهو أن الإمداد كان معلقاً بشرط، هو التقوى ومصابرة عدوهم، لكن المسلمين لم يصبروا بل فروا، فسقط الشرط، فتوقف الإمداد، ولم يمدوا بملك واحد، أما ذكر بدر فى الآيات السالفة فقد جاء اعتراضاً فى سياق آيات أحد، تذكيراً بنعمة الله على المؤمنين ونصره لهم فى بدر رغم ضعفهم ومذلتهم، ليحفزهم على خوض أحد بذات الثقة فى نصر الله، مع حجة أخيرة تقول: إن القصة الواردة فى سورة آل عمران هى قصة أحد وحدها مستوفاة مطولة، وإن مقارنتها بسورة الأنفال التى تعلقت ببدر، يقطع باليقين أن الآيات نزلت فى أحد وليس فى بدر[١١].

---

(١١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٥٨.

وقائع أحـد

وتجمع كل كتب السير والأخبار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يكره الخروج إلى أحد، لكنه خرج لرغبة أصحابه، ولما لبس لامته، جاءه الذين استكرهوه على الخروج يراجعون موقفهم ويعتذرون، فكان رد النبى: ما كان لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحارب، وجعل النبى لأصحابه فى ذلك اليوم شعاراً يشبه شعار بدر، مع اختلاف بسيط، فقد أسقط من شعار بدر (يا منصور)، ليصبح بدلاً من (يا منصور أمت) كلمة واحدة تقول: (أمِتْ، أمِتْ)[١٢].

وعند خروج النبى إلى أحد قال له الأنصار:

- يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟

- فقال: لا حاجة لنا فيهم[١٣].

ولما سار بجيشه ووصل رأس الثنية، «وجد كتيبة كبيرة، فقال: ما هذا؟ قالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبى من يهود... فقال:

إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك»[١٤].

ويبدو لنا أن تلك الكتيبة كانت من قبيلة بنى قريظة، خرجت إعمالاً لبنود الصحيفة، وانتصاراً لحليفتها الخزرج، لكن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن على ثقة كافية بهم، ومرة أخرى عرض الأوس على النبى بعد رجوع (ابن سلول)، الاستعانة بحلفائهم من يهود بنى النضير، حلفاء (سعد بن معاذ)، ومرة أخرى رفض النبى[١٥]، ومع ذلك فقد أصر (مخيريق) اليهودى على الخروج إلى أحد، وهو على دينه، وأوصى بماله للنبى إن هو قتل، وبالفعل قاتل الرجل حتى قتل، وآل ما يملكه إلى رسول الله، وفيه قال النبى الكريم: «مخيريق خير يهود»[١٦].

ولما كانوا بالقرب من أحد - حيث بدت لهم صفوف الثلاثة آلاف مكى تنتشر بدروعها وقضها

(١٢) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٩.
(١٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٤٩.
(١٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٣.
(١٥) نفسه: ص ٤٩٥.
(١٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

وقضيضها، قد اتخذوا مواقعهم حسب خطتهم فى بقاع أحد. استرسل الوحى يحمل إلى قريش برقية تقول:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ (٣٨/ الأنفال).

والبرقية هنا رغبة فى السلم، لكنها رغبة المقتدر، لذلك فهى نصيحة أكثر منها رغبة، فإن تنتهوا وتعودوا إلى مكة، يغفر الله لكم ما قد سلف، وبمعنى موضوعى، توقف ما جرته الأحداث الماضية على مكة، لكن النصح هنا جاء مصحوباً بذكر الملأ القرشى الذين أهيل عليهم تراب القليب البدرى، «فقد مضت سنة الأولين»، أى مضى الأشياخ ومضت معهم سنتهم ونهجهم، ولا معنى للاعتراك على ثأر لقوم ذهبوا، لكن ذلك التذكير كان كفيلاً بتأجيج لهيب الذكرى وحمية الرغبة فى الثأر، بضرب تلك القوة اليثربية التى إن بقيت فستقضى تماماً على قريش وتجارتها، وحتى يتم تأمين طريق الإيلاف مرة أخرى، بعد أن أشرفت مكة على الهلاك بحصارها الاقتصادى.

ووقف (أبو سفيان / صخر بن حرب) يؤكد أن سنة الأولين باقية، بتصرفه تصرف (عتبة ابن ربيعة) فى بدر، فقام ينادى أهل يثرب بعدم رغبة مكة فى قتال يثرب، ويعلنهم أنهم يريدون فقط غرضاً محدداً، يتضح فى قوله:

يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بنى عمنا، وننصرف عنكم.

لكن الرجل (بسنة الأولين أيضاً)، وكرأس من رؤوس قريش، لم يع حتى الآن ما تمخضت عنه ظروف التطور، ولم يدرك ما جد فى وجدان الأنصار ووعيهم، وأنهم قد أدركوا ممكناتهم ومستقبلهم، وأنهم قد أصبحوا المنافس الحقيقى لمكة، ليس فقط على الطريق التجارى، إنما أيضاً على من بالحجاز جميعاً، فكان ردهم أقبح الشتائم بأقذع اللعنات لأبى سفيان ورهطه(١٧).

وهنا قامت (هند بنت عتبة) مع نساء مكة وصباياها الغيد، اللائى ترفلن فى النعمة، فمشقوا القد، وحازوا الحسن واللطافة، يضربن الدفوف يحرضن رجال مكة ويغنين، مستخدمين أفصح فحيح أنثوى للإغراء، بنداء الوصال (وى ـ ها):

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأديار

ضرباً بكل بتار

(١٧) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.

إن تقبلـــــــوا نعـــــــانـــــق ونفـــــــــرش النمـــــــــارق
إن تدبـــــــروا نفـــــــارق فـــــراق غـــــير وافـــــق[18]

وعلى الجانب الإسلامى، ركز النبى خطته على حماية رجاله السيافة، بالرجال النبّالة، فأنزل الرماة فى مواقع تواجه خيل العدو، وأمّر عليهم نبالاً مشهوداً له، هو (عبد الله بن جبير)، وأمرهم بعدم ترك مواقعهم حتى يأتيهم منه الأمر بذلك، مهما حدث، فقط كان مطلبه منهم الذى أكده لهم «اكفونى الخيل»[19].

أما قريش فكانت البادئة بتسخين أحد، «فخرج طلحة بن أبى طلحة، وأبو طلحة والده اسمه عبد الله بن عثمان بن عبد الدار... وطلب طلحة المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد، فقال:

يا أصحاب محمد؛ زعمتم أن قتلاكم فى الجنة، وأن قتلانا إلى النار...
فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفى إلى الجنة؟

فلما لم يخرج إليه أحد، من بين المسلمين، نادى يقول:

كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك حقاً، لخرج إلىّ بعضكم.

فخرج إليه على بن أبى طالب... فالتقيا بين الصفين، فبدره على فصرعه، أى قطع رجله ووقع على الأرض وبدت عورته، فقال: يا ابن عم، أنشدك الله والرحم، فرجع عنه ولم يجهز عليه،.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما منعك أن تجهز عليه؟ فقال: ناشدنى الله والرحم، فقال: اقتله، اقتله»[20].

وهكذا، بدا تردد المسلمين واضحاً لأهل مكة، فخرج رجل ثان من صفوف المشركين يدعو للمبارزة، «فأحجم عن الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى استوى معه على البعير، فعانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذى يلى حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير، فذبحه»[21].

وارتفعت معنويات المسلمين بهذين القتيلين، وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر من صفوف

---

(18) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥١، انظر الشرح للألفاظ ص ١٦٠ (والنمارق هى وسائد تفرش على الأسرة، كناية عن النكاح).
(19) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٠٩.
(20) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٤٩٧.
(21) نفسه: ص ٤٩٩.

المشركين، فقال: من يبارز؟ فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهراً سيفه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: شم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا نفسك»[٢٢]. أما أبو دجانة (سماك بن خرشة) الأنصاري، ذو الخبرة الحربية، والشجاعة المتفردة بين أقرانه، فقد نهض يتناول من يد رسول الله سيفاً، ورجل مثل أبي دجانة إن قام للقتال، كان ذلك تحفيزاً لنفوس من يعرفون قدره، ويقول ابن هشام في أمر أبي دجانة:

> وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذ كانت، وكان إذا أعلم بعصابة حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفوف، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر: إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن[٢٣].

ثم بدأت الوقعة فعلياً عندما هتف النبي صلى الله عليه وسلم برجاله: أمت، أمت، وبدأت وقعة أحد بداية متميزة، فقد صرع المسلمون أصحاب اللواء من بيت عبد الدار، ثم انتشر النبي وأصحابه، وصاروا كتائب متفرقة، فجاسوا في العدو ضرباً حتى أجهضوهم عن أثقالهم، وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مغلولة، وحمل المسلمون عليهم فنهكوهم قتلاً[٢٤].

ولاحت بوادر النصر، وتقهقر المشركون وهم يلقون بدروعهم وجحفهم وتروسهم، تخففاً للهرب، بينما علا صراخ نساء قريش المنعمات وهن يولولن، يبرز صراخهن الخائف مفاتن أنوثتهن، وأخذن يهربن أمام أعين المسلمين.

> وقصدن الجبل، كاشفات عن سيقانهن، يرفعن الثياب، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم[٢٥].

بينما يصف (عبد الله بن الزبير) الموقف بقوله:

---

(٢٢) نفسه: ص ٤٩٩.

(٢٣) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٠، ١٥١.

(٢٤) البيهقي: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٠٩.

(٢٥) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.

والله لقد رأيتنى أنظر إلى هند بنت عتبة وصواحباتها، مشمرات هاربات، ما دون أخذهن قليل ولا كثير[٢٦].

بينما يقول آخر:

والله لقد رأيت النساء يشتددن على الجبل، قد بدت خلاخيلهن وسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير- الرماة- الغنيمة، الغنيمة[٢٧].

وهكذا نزل الرماة يلهثون وراء الغنيمة، وهو ما يصوره أحدهم: «والله ما نجلس هنا لشيء، قد أهلك الله العدو، فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبى ألا يتركوها»[٢٨]. «ونهاهم أميرهم عبد الله ابن جبير، فقالوا له: انهزم المشركون فما مقامنا ها هنا؟ وانطلقوا ينتهبون وثبت عبد الله بن جبير، وثبت معه دون العشرة»[٢٩].

لكنها لقارئ مدقق، كانت الخطة والتكتيك، فقد تقهقر قلب جيش المشركين، وشمرت النساء عن سوقهن يصعدن الجبل فى المعتليات، وانطلق المسلمون خلفهن، وترك الرماة مواقعهم، بينما كانت ميمنة (خالد بن الوليد) فى مكانها لا تتزحزح، كذلك ميسرة (عكرمة بن أبى جهل)، ظلت ثابتة دون حراك، حتى إذا ما نزل الرماة، أطبقت الأجنحة على الوسط، وثبت القلب المتقهقر ليعاود الهجوم، فى هجمة مرتدة سريعة، ثم ثنى (خالد) و(عكرمة) على الرماة، فحملوا على من بقى منهم فقتلوهم مع أميرهم ابن جبير.

وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والسلب، إذ دخلت خيول المشركين تنادى فرسانها بشعارها: يا للعزى، يا لهبل، ووضعوا السيوف فى المسلمين وهم آمنون... واختلط المسلمون، وصار يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار، وهو أمت، أمت، مما أصابهم من الدهش والحيرة[٣٠].

أما الأخطر من نسيان المسلمين لشعارهم، نتيجة الدهشة والذهول، وقتلهم بعضهم بعضاً، هو

(٢٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣.
(٢٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٩.
(٢٨) نفسه: ص ٢١٠.
(٢٩) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٢.
(٣٠) نفسه: ص ٥٠٢، ٥٠٣.

تمكن المشركين من الانغراس فى العمق إلى نهايته، والوصول إلى موقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتأخذ منه ثأرها، وتنال منه فيخمد الجسد الإسلامى ويستسلم، وهو ما خرجت من أجله، لإيقاف نهر الدم، وإنقاذ ما بقى من مصالحها، بقتل النبى عليه الصلاة والسلام بالذات وبالتحديد.

صرخة الشيطان

وعندما وصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هرب أصحابه من حوله، حتى صار ينادى:

> إلىَّ يا فلان، إلىَّ يا فلان، أنا رسول الله، فما يعرج إليه أحد، والنبل يأتى إليه من كل ناحية(٣١).

ويروى (الطبرى) إنه عند الهجوم على النبى، تفرق عنه أصحابه، فهرب بعضهم وعاد إلى المدينة لا يلوى على شيء، بينما صعد البعض الآخر إلى صخرة فوق الجبل، بينما استمر النبى ينادى:

> إلىَّ عباد الله، إلىَّ عباد الله(٣٢).

واستطاع (عتبة بن أبى وقاص) أن يصل إلى النبى، ويهشم بيضته فوق رأسه، بينما تمكن (عبد الله بن شهاب) من أن يشجه فى جبهته، ثم كر عليه (ابن قمئة الحارثى)، فكسر أنفه ورباعيته، وضربه بالمغفر فدخلت حلقتان من حلقات المغفر فى وجنته الشريفة، كل هذا والرسول ينادى أصحابه(٣٣). ثم وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى حفرة، عندما هاجمه ابن قمئة فى كرة ثانية، فضربه على عاتقه ضربة شديدة، لكن الدرعين كانا وقاء له، لكن عزم الضربة جعل رسول الله يشكو من عاتقه بعدها شهراً أو أكثر(٣٤).

وهنا لمح المحارب الصلب (أبو دجانة) رسول الله وهو على حاله هذا، فانطلق إليه ليرتمى

---

(٣١) نفسه: ص ٥٠٥.

(٣٢) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥١٩، ٥٢٠.

(٣٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٦.

(٣٤) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٣.

فوقه يحميه، والنبل يتساقط عليه بغزارة حتى ملأ ظهره وهو لا يتحرك، في الوقت الذى أخذ فيه المهاجمون دورتهم الواسعة فى كرة جديدة، انطلق أثناءها إلى النبى عدد من أصحابه، فأنهضوه من الحفرة، وأسرعوا به يصعدون شعب الجبل نحو صخرة منيعة، فى اللحظة التى عادت فيها كرة المهاجمين، «فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا لهم يا رسول الله، فقال: كما أنت يا طلحة، فقال: رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله، فقاتل عنه، وصعد رسول الله ومن بقى معه، فلحقوه، فقال: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال له: طلحة مثل قوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فأذن له، فقاتل مثل قتاله وقتال أصحابه، ورسول الله وأصحابه يصعدون، ثم قتل، فلحقوه، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا يا رسول الله، فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقال رسول الله: من لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا»(٣٥).

وتصف كتب السير أبا طلحة بأنه «كان رجلاً رامياً شديد الرمي»، فنثر نبله، وأخذ يرمى والرسول يجلس خلفه محتمياً به(٣٦)، بينما كان النبى يرسل قوله الآسف على هرب أصحابه المهاجرين عنه: «ما أنصفنا أصحابنا»، ويشرح البيهقى «معناه ما أنصفت قريش (المهاجرين) الأنصار، لكون القرشيين لم يخرجوا للقتال دفاعاً عن النبى، بل خرجت الأنصار واحداً بعد واحد»(٣٧).

وظل (أبو طلحة) يرمى دفاعاً عن النبى يومذاك، ويترس دونه، حتى كسر ثلاثة أقواس، وكان المسلم يفل هارباً فيمر غليهما فيناديه رسول الله صلى الله عليه وسلم: انثر نبلك لأبى طلحة(٣٨)، حتى وتره رام أصاب يده فى أوتارها فشلت من فورها فصرخ متألماً: حس، فقال له النبى؛ **لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك، حتى تلج بك فى جو السماء**(٣٩).

وفى كرة رابعة، عادت موجة مهاجمة إلى المكان الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(٣٥) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٣٦.
(٣٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٥.
(٣٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٣٥.
(٣٨) نفسه: ص ٢٣٩.
(٣٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧، ٢٨.

بينما كان النبى قد تقهقر من مكانه مصعداً فى الشعب، وخرج لهم (مصعب بن عمير) دون رسول الله، فوجد (ابن قمئة) مصعباً فى دروعه وخوذته فى مكان رسول الله، فشد عليه شدة قتله بها، وهو يظن أنه محمد، ثم أكمل دورة فرسه نحو المشركين وهو يصيح مهللاً: قتلت محمداً[٤٠]، فى اللحظة التى كان فيها الرسول يتابع صعوده فى شعب الجبل متحاملاً على طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، الذى هرع إلى طلحة يساعده فى حمل رسول الله[٤١].

وإذ يقول زعيم طبقة المفسرين ورواة السير والأخبار الحافظ ابن كثير، أن صيحة ابن قمئة: قتلت محمداً، قد أدت إلى بهتة عظيمة بين المسلمين[٤٢]، فإنها على الفور أوقفت لا جدال يد القتل المكية عن استمرار القتل والقتال، فهذا ما جاءوا من أجله، وقد تحقق، ولم تعد ثمة ضرورة لاستمرار القتل، وبالفعل هدأ الميدان تماماً بعد صيحة ابن قمئة، تلك الصيحة التى تصر كتبنا التراثية على القول: إنها صيحة الشيطان، لا لشيء إلا أنها قالت مكروهاً بحق النبى، رغم أن المتأمل بقليل من النزاهة، يمكنه أن يراها صيحة جاءت فى موعدها تماماً، وكانت صيحة الإنقاذ لرقاب المسلمين، ولنبيهم.

هذا بينما يرى آخرون - بتغافل حقائق عدة - أن تلك الصيحة كانت السبب فى هزيمة المسلمين، ومن ثم لا شك أنها كانت صيحة الشيطان الذى يعنيه هزيمة حزب الله، وذلك بالتأثير الذى فعلته الصيحة بنفوس المسلمين، وخوار عزيمتهم وفزعهم لما علموا أن نبيهم قد قتل، وهو المعلق به مصيرهم ومصير دولتهم، ولكن دقائق الحدث لا تترك لأصحاب ذلك الرأى ما يتمحلون به، لأن الهزيمة كانت قد حلت بالفعل قبل تلك الصيحة، وكانت يد القتل القرشية قد بدأت تفعل فعلها فيمن بقى من المسلمين، ووصل المشركون إلى النبى وفر أصحابه عنه، حتى أصيب إصابات شديدة، وكانت الصيحة متأخرة إلى حد بعيد عن الهزيمة التى تمت قبلها بوقت، عندما ضرب ابن قمئة مصعباً وهو يحسبه محمداً، وما كان ممكناً أن يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مؤخرة جيشه، إلا إذا كان ذلك الجيش قد تهاوى وتشرذم، ولم يعد هناك حائل بين المشركين وبين النبى، لكن هؤلاء يصرون، مستندين إلى روايات مثل رواية (الزبير بن العوام):

---

(٤٠) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٣، انظر أيضاً البيهقى: ج ٣، ص ٢٣٨.
(٤١) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢١١.
(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

وصرخ صارخ:

ألا إن محمداً قد قتل،

فانكفأنا، وانكفأ القوم علينا[٤٣].

هذا بينما أصحاب تلك الرؤية، وفى روايتهم أنفسهم عما حدث، يظهر واضحاً أن (الزبير) كان يصعد مع (طلحة) يساعدان نبيهم الجريح على ارتقاء الشعب، بعد أن خلا الميدان حولهم من أصحابهم وبقية الصحابة إلى فرار، ومن بقى منهم أخذوا يضربون بعضهم بعضاً من البهتة، أما (البيهقى) فيقول:

وصاح الشيطان: قتل محمد[٤٤].

ويقول (ابن هشام):

الصارخ: إزب العقبة، يعنى الشيطان[٤٥].

أما من هو (إزب العقبة)؟ فهو ما يأتى فى حديث منسوب لعبد الله بن الزبير، «أنه رأى رجلاً طوله شبران على رحله، فقال: من أنت؟ قال: إزب، قال: ما إزب؟، قال: رجل من الجن»، أما (الحلبى) الذى اعتدناه يقف مع ما لا يجده متسقاً ومتوافقاً، يتساءل أحياناً، ويبرر أخرى، فقد حاول تقديم تبرير لتضارب الروايات حول صاحب الصرخة، فقال: «ويجوز أن يكون قد صدر عن الثلاثة: ابن قمئة، وإبليس، وإزب العقبة»[٤٦].

وعليه، فإن تلك الصرخة المنقذة التى أطلقها (ابن قمئة)، كانت سبباً فى تراخى أيدى قريش عن القتل، بينما النبى وطلحة والزبير يتسللون متخفين فى الشعب، يريدون صخرة عالية، تصادف أنها كانت الصخرة التى فر إليها بعض المسلمين الفارين، ولجأوا إليها لمنعتها، فكان أن رآه (كعب بن مالك) من أعلى الشعب وهو قادم مع صاحبيه، ويروى:

قد عرفت عينيه الشريفتين تزهران تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى:

---

(٤٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.
(٤٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٧٠.
(٤٥) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٥.
(٤٦) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٣.

يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله فأشار إلىّ: أنصت، فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا، ونهض معهم نحو الشعب على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب،... فى نفر من المسلمين[٤٧].

لكن ليلمحهم (أُبى بن خلف) وهم يخفون إلى النبى يساعدونه على الصعود، وقد تطرف (أبى) عن قومه، فسمع صيحة (كعب بن مالك)، فعلم أن الرسول ما زال حياً، وبينما النبى يسند رأسه تعباً فى الشعب، كر (أبى بن خلف) بفرسه وهو يهتف متسائلاً: أى محمد (؟!) لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله: لا، دعوه فلما دنا تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة،.. وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض،.. ثم استقبله فطعنه فى عنقه، طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا[٤٨]، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح»[٤٩].

ولمزيد من المنعة، بعيداً عن متناول قريش «نهض النبى صلى الله عليه وسلم إلى صخرة فى الجبل ليعلوها، وقد كان بدن رسول الله بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيدة، فنهض به حتى استوى عليها»[٥٠]، وهكذا نال الإجهاد من النبى كل منال، وأخذ منه الألم كل مأخذ، حتى أنه بعد العودة «ذكر عمرو مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً»[٥١].

وبعد أن امتنع المسلمون الذين بقوا مع نبيهم على الصخرة المنيعة - التى ما كان لأحد أن يصعد عليها إلا ويصاب برماح وسهام الممتنعين فوقها - ومعهم سيوفهم، لا مجال لأخذهم، تقدم أبو سفيان حتى اقترب من سفح الصخرة ثم نادى: «أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ثلاثاً، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه»، وهكذا كانت حصافة القائد تملى على رجاله رغم الامتناع فوق الصخرة، أن يتركوا قريشاً تتوهم قتله، حتى لا يحاولوا الكر عليهم مرة

(٤٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٦.
(٤٨) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٦.
(٤٩) الحلبى: مج ٢، ص ٥١١.
(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.
(٥١) الموضع نفسه.

أخرى، كما سبق وأمر (كعب بن مالك) بعدم الإعلان عنه وأمره بالصمت، لكن (أبو سفيان) استمر ينادى «أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك»(٥٢). فكان أن رد عليه (أبو سفيان) ومن معه ينادون شامتين متوعدين:

يوماً بيوم بدر، إن موعدكم بدر للعام القابل.

«فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد... ثم بعث رسول الله على بن أبى طالب فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده، لئن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم، قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة»(٥٣).

وهكذا، انتهت غزوة أحد بثأر قريش، الذى أعملت له حسابات دقيقة، وهم تجار أصحاب حسابات، يدققون فيما لهم وفيما عليهم، تحدوهم المصلحة والمكاسب فى الأول وفى الآخر، فتؤكد كتب الأخبار أنهم قتلوا على التدقيق سبعين مسلماً، بسبعين مشركاً يوم بدر، وأسروا سبعين مسلماً بسبعين مشركاً يوم بدر، وهو ما يردفه المفسرون بالآية الكريمة:

﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾

(١٦٥/آل عمران)(٥٤).

(ومثليها هنا تعنى مثل الأمرين، السبعين قتيلاً، والسبعين أسيرا)، وهو ما عبر عنه منطق التاجر الأموى، أبى سفيان صخر بن حرب، وهو ينادى المعتصمين بالصخرة، مقدماً كشف حساب تجارى دقيق، يقول:

يوماً بيوم بدر، وإن موعدكم بدر العام القابل.

هو ما عقب عليه الطبرى فى حديثه عن أحد مقارناً ببدر، وهو يقول:

(٥٢) نفسه: ص ٢٧.

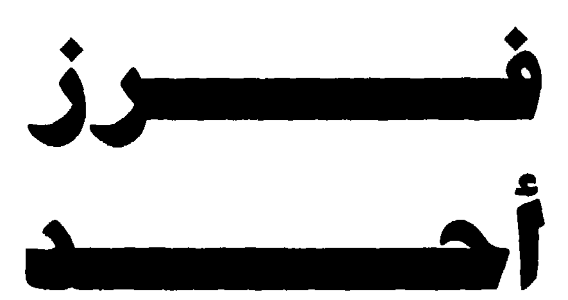
(٥٣) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٧٠، ١٧١.

(٥٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٧.

فلما كان العام القابل فى أحد، عوقبوا بما صنعوا، قُتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعون، وأُسر سبعون، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وفر أصحاب النبى وصعدوا الجبل(٥٥).

(٥٥) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٥.

باب ثان



«لو كان من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا» .

[عتاب بن قشير الأنصاري]

وكانت أحد ابتلاء فرز واختبار وتمحيص للمؤمنين الصادقين، منهم من أخذهم الرعب فولوا هاربين من حول رسول الله حتى انكشف للمهاجمين، وهو صلى الله عليه وسلم يناديهم:

أنا رسول الله، إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، فلم يثبتوا وفروا عنه ليعتصموا بصخرة فى أعلى الشعب، فأنّبهم الوحى الكريم بقوله:

﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم...﴾ (١٥٣/ آل عمران).

هذا عمن فروا، ثم هناك ما جاء وحياً يحدث عمن ظنّوا بالله ظن الجاهلية، وشكّوا فى صدق الرسول بل وفى الدعوة برمتها، ليرد عليهم قائلاً:

﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (١٥٤/ آل عمران).

ثم يتوجه الوحى نحو من قالوا: لو سمعوا نصحنا لهم بالتحصن فى يثرب، وعدم الخروج إلى المشركين ما قتلوا، قائلاً:

﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (١٦٨/ آل عمران).

أما الذين تساءلوا كيف يُهزمون والله معهم ورسوله؟ فقد جاءهم جواب الوحى مفحماً يذكرهم أنهم وإن أصيبوا فى أحد، فقد سبق وأصابوا فى بدر، ويقول:

- ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير﴾ (١٦٥/ آل عمران).

- ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ (١٤٠/ آل عمران).

ثم يثنى الوحى بصدقه بالقول الفصل، لتأكيد أن ما حدث كان خطة إلهية مقدورة سلفاً، من الله تعالى، لفرز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، بقوله:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا...﴾ (١٦٦، ١٦٧/ آل عمران).

مواقف من الهزيمة

ونعود إلى عيون التاريخ نقرأ فيها المفاجأة التى رتبتها قريش للمسلمين، بقرارات مقاتلين من جيل جديد، تلتمع أسماؤهم مع نصال سيوف شرذمت شمل المسلمين وصعقتهم، مثل (خالد بن الوليد) و(عكرمة بن أبى الحكم)، حتى صار المسلمون يضربون بعضهم ويقتلون بعضهم بعضاً على غير هدى، ولا شعار، بعد أن أضاعت البهتة لبهم فنسوا شعارهم، ثم جاءت صيحة (ابن قمئة): إن محمداً قد قتل، لتترك أثراً أعمق فى الفارين يحتمون بالشعاب والصخور، فأصحاب الشعب يقولون:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فارجعوا إلى قومكم فيؤمنونكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، فإنهم داخلون البيوت[1].

وقد ذهب هؤلاء تحديداً إلى رأى يقول:

نلقى إليهم بأيدينا، فإنهم قومنا وبنو عمنا.

ويعقب رواة السيرة بالقول:

وهذا يدل على أن هذه الفرقة ليست من الأنصار، بل من المهاجرين[2].

هذا؛ بينما كان بعض المسلمين ينتهز فرصة المعركة، ويحفز الناس للخروج إليها، من أجل أخذ ثأره من مسلم آخر فى حومة الوغى دون عيون تراه، مثل (الحارث بن سويد بن الصامت) ابن صاحب صحيفة لقمان، ذلك المسلم الذى لم تؤثر فيه الأخوة الإسلامية والأممية الجديدة، بل ظل أسير الحمية القبلية الجاهلية، يخضع رغبته الثائرة على مضض ينتهز لها فرصة، يريد بها (المجذر بن زياد) الذى كان قد قتل أباه (سويد) فى حرب الأوس والخزرج، وما أن تبدأ المعركة ويختلط الناس بالناس، حتى يغمد سيفه فى قاتل أبيه ليشفى غليل ثأره[3].

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٠.

(٢) الحلبى: السرية، سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٦٨، انظر أيضاً: ابن سيد الناس؛ عيون الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥.

ثم موقف ثالث لأصحاب الصخرة الذين فروا من حول النبى، واعتصموا بها يردون عن أنفسهم فى خفائها، وقد رأى هؤلاء رأياً آخر:

> فقال بعض أصحاب الصخرة، ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، يا قوم، إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم(٤).

وقد بلغ الرعب أصحاب الصخرة أنهم كادوا يقتلون نبيهم وهو يخف إليهم متحاملاً على مناكب صاحبيه، وهم لا يميزونه، ورفعوا عليه نبالهم ورماحهم.

> فقال رسول الله: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح رسول الله حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع بهم... فقال الله عز وجل فى الذين قالوا: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ (١٤٤/ آل عمران)(٥).

أما الموقف الرابع، فيمثله من جاء ذكرهم فى الواقدى وهو يقول:

> لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس، فمنهم من ورد المدينة، حتى دخلوا على نسائهم وجعل النساء يقلن: عن رسول الله تفرون؟!(٦).

وقد عدد (البلاذرى) فِى أنساب الأشراف (٣٢٦/١) أسماء بعض الفارين من الميدان تماماً - الذين يمثلون موقفاً خامساً - بعد أن تركوا إخوانهم ورسولهم إلى مصيرهم، وهم عثمان بن عفان، وسواد بن غزية، والحارث بن حاطب، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيظى، حتى أبعدوا عن المدينة بما يصل إلى ثلاثين ميلاً(٧)، ولم يعودوا إلى يثرب إلا بعد أن وصلتهم الأخبار بعودة النبى إليها مع من بقى من أصحابه، فعادوا إليها من مهربهم بعد أيام ثلاثة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد ذهبتم فيها عريضة، ثم جاء الوحى بشأنهم يقول:

---

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.
(٥) نفسه: ص ٢٤.
(٦) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٣١٠.
(٧) نفسه: ص ٣٠٠.

﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ (١٥٥/آل عمران).

ويقول (ابن حبيب): «الذين تولوا يوم التقى الجمعان فعفا الله عنهم من المهاجرين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن عثمان من الخزرج وأخوه عقبة بن عثمان»[٨]. وكان لهرب (عثمان بن عفان) من أحد، مدعاة بعد ذلك بسنين في الصراع السافر الذي قام على السلطة في الدولة الإسلامية، للتدليل على أن الموقف العدائي لبني أمية من الهاشميين بل من النبي ودعوته، كان متأصلاً في نفوسهم، فحكى البخاري عن عثمان ابن وهب قوله: «جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء، أتحدثني؟ أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم فكبر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه، فأما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت النبي وكانت مريضة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه، أما تغيبه عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة»[٩].

ثم موقف سادس. أعلن تشككه في أمر الدعوة بكاملها، وعلاقة الرسول بالسماء، يمثله عتاب ابن قشير الذي وقف يتطلع إلى هزيمة المسلمين وهم يقتلون في أحد ويقول:

لو كان من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا[١٠].

وجاوبه رجع الصدى ممن هم على مثل رأيه:

لو كان نبياً ما قتل، فارجعوا إلى دينكم الأول[١١].

وهكذا كان الفرز، وهكذا جاءت أحد لتفصح بوقعتها عما بذات الصدور، وتحدد مواقف،

(٨) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ٢٨٣، ٢٨٤.
(٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.
(١٠) السهيلي: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٤.
(١١) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٠٤.

وتصنف الأتباع تصنيفاً كامل التحديد والوضوح، لأنه مقابل كل تلك المواقف المتخاذلة والمؤسفة، كانت هناك مواقف أخرى وإن كانت قليلة نادرة ضعيفة، لكنها دخلت الفرز وبرزت كمواقف مبدئية صارمة لا تقبل المساومة، فهذا (أنس بن النضر) ينادى (عمر بن الخطاب) و (على بن أبى طالب) و(أبا بكر) وصحبهم من أصحاب الصخرة ويقول:

> يا قوم؛ إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه يقاتل، حتى قتل[١٢].

وهكذا، وبينما المهاجرون فى فزعهم، والأنصار يقتلون الواحد بعد الآخر دون رسول الله وهو يصعد الشعب، وبينما المهاجرون يفكرون فى اللحاق بقومهم، فإن «رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار، وهو يتشحط فى دمه، فقال له: يا فلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمداً قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم»[١٣].

ثم ذلك الأنصارى المبارز الفارس، (أبو دجانة / سماك بن خرشة)، الذى ترس عن الرسول يتلقى عنه النبل، وظل محارباً يخوض معه المواقع بعدها بذات البطولة، (وقزمان) الأنصارى، الذى أبلى فى أحد بلاء يعادل فى ميزان القتال جيش المسلمين جميعاً، فنزل الحومة لا يكل ولا يهرب ولا يتراجع، يتخطف سيفه رؤوس المشركين رأساً فى إثر رأس، ويصول حتى ينغرس فى عمق ثلاثة آلاف مقاتل دون خطوة واحدة للوراء، حتى أعمق بينهم، وحتى عددت له كتب السير عشرة قتلى، من بين اثنين وعشرين قتيلاً مكياً هم كل من قتل المسلمون من قريش فى أحد، وبينما يعدد (ابن هشام) أسماء المقتولين من قريش، وقاتليهم من المسلمين، نقتطع ما يخص (قزمان) وحده، حيث يقول ابن هشام:

> ... وكلاب بن طلحة، والحارث بن طلحة، **قتلهما قزمان**... وأبو يزيد ابن عمير.. **قتله قزمان**، وصؤاب غلام له حبشى **قتله قزمان**... والقاسط ابن شريح.. **قتله قزمان**... وهشام بن أبى أمية بن المغيرة **قتله قزمان**، والوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة، **قتله قزمان**... وعبيدة بن جابر وشيبة بن مالك بن المضرب، **قتلهما قزمان**.. قال ابن إسحق: **فجميع**

---

(١٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤.

(١٣) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

من قتل الله تبارك وتعالى من المشركين يوم أحد، اثنان وعشرون رجلاً[١٤].

ومع ذلك تصر كتبنا التراثية على وصم قزمان بأنه كان منافقاً، وأنه من أهل النار، وأن الله قد ينصر دينه على الكافر بالفاجر(؟!!)، حتى أن تلك الكتب قدمت روايات تستجهل (قزمان)، وتتجاهل معرفته من بين صحبه وآله من الأنصار، ومن تلك الروايات:

كان فينا رجل أتي لا يُدرى من هو، يقال له: قزمان، فكان رسول الله يقول إذا ذكر: إنه لمن أهل النار، فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً... وكان ذا بأس، وأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دار بنى ظفر[١٥].

أما لماذا حمل إلى دار بنى ظفر بالذات، فإن كتب السيرة تروى روايات بعد أن تتذكر معرفتها بالرجل، فنعرف عند (ابن هشام) أنه «حليف بنى ظفر»[١٦]، فهو لم يكن مجهولاً، إنما التجهيل جاء عن عمد، ورغم نسبة قتلاه العشرة من المشركين إلى الله جل وعلا، «فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً»، ضمنهم عشرة قتلهم قزمان وحده، دون أن يفر إلى شعب، ولا أن يلجأ إلى صخرة، ولا أن يهرب إلى المدينة، ولا أن يوغل ثلاثين ميلاً هرباً بعيداً عن الميدان، لينتظر هناك أياماً يستخبر على من كانت الكرة، ليحدد موقفه، أما السر وراء كل هذا التجهيل والتبخيس لرجل هذا بلاؤه، فيرجع إلى حديث ترويه كتب السيرة عن قزمان وهو جريح فى دار بنى ظفر:

فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتدت عليه جراحه، أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه[١٧].

وهو موقف يختلف إلى حد ما عن موقف (حاطب بن أمية) الذى أصيب ابنه (يزيد) فى أحد، فحملوه إلى دار قومه واجتمع حوله أهله،

فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء، أبشر يا ابن حاطب

---

(١٤) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.
(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.
(١٦) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٩٢.
(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧.

بالجنة، وكان حاطب شيخاً قد عسا فى الجاهلية، فنجم يومئذ نفاقه فقال: بأى شيء تبشرونه؟ بجنة من حرمل؟ غررتم والله هذا الغلام من نفسه»[18]، وفى شرح السهيلى «الجنة من حرمل، يريد الأرض التى دفن فيها وكانت تنبت الحرمل، أى ليس له جنة إلا ذاك»[19].

مقتل أسد الله

فى يثرب، وبعد العودة من أحد «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدار من دور الأنصار، من بنى عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله فبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له، فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل، أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله»[20]. وهو ما يظهر مدى اللوعة التى أصابت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على مصابه فى عمه (حمزة بن عبد المطلب)، الذى قتله (وحشى الحبشى) عبد (جبير بن مطعم)، انتقاماً لمقتل عم جبير (طعيمة بن عدى) الذى سبق وقتله المسلمون فى بدر الكبرى، مع وعد لوحشى الحبشى بالعتق من العبودية إلى الحرية إن فعل، هذا مع وعد آخر تلقاه الحبشى الوحشى من (هند بنت عتبة) إن قتل حمزة انتقاماً لأبيها وأخيها وعمها، وكان المقابل الذى سيناله وحشى من هند، هو ما يعبر عنه نداؤها له كلما مر بها فى أحد، أو مرت به، وهى تردد بغنج وبدلال وترغيب:

ويها أبا دسمة،

اشـــف

واشـــتف[21].

ويرسم رواة السيرة، صورة حية لمقتل حمزة رضى الله عنه، بلسان قاتله وحشى، الذى يروى، أنه بينما كان حمزة يصول بسيفه «مر به سباع بن عبد العزى الغبشانى، وكان يكنى أبا نيار، فقال له حمزة: هلم إلىّ يا ابن مقطعة البظور، وكانت أمه أم إنمار... ختانة بمكة، فلما

(18) السهيلى: سبق ذكره، مج 3، ص 168.
(19) نفسه: ص 177.
(20) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج 2، ص 532.
(21) ابن كثير: سبق ذكره، ج 4، ص 12.

التقيا فضربه حمزة فقتله». وهنا عثر حمزة فوقع، فانكشف درعه الحديدى عن بطنه «فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوى، فغلب، فوقع، وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت عن العسكر، ولم تكن لى بشىء حاجة غيره»[٢٢].

وهنا هرولت (بنت عتبة) المدللة الثائرة، لتبقر بطن حمزة رضى الله عنه، وتخرج كبده وتلوك منه قطعة تشفياً، حتى إذا انتهت المعركة ورحلت قريش، مر رسول الله بعمه وهو على تلك الحال، فوقف على رأسه وقد أخذ منه الكمد مأخذاً، حتى جعل يقول:

> لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم[٢٣].

وقد عقب بعض المفسرين بالقول: إن الوحى جاء يرد النبى عن ذلك بقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ (١٢٦/النحل)، لكن ابن كثير بحصافته، يدرك أمراً، فيقول:

> قلت هذه الآية مكية، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين!! فكيف يلتئم هذا؟![٢٤].

أما ابن مسعود فيروى القول عن حال النبى يوم مقتل حمزة:

> ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً، أشد من بكائه على حمزة رضى الله عنه، وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشق، وحتى بلغ به الغشى، وهو يقول: يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاب[٢٥].

أما الأنصار، ورغم مصابهم فى قتلاهم، فإنهم عندما شاهدوا حزن ابن أختهم على عمه قالوا:

(٢٢) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ١٥٢.
(٢٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.
(٢٤) الموضع نفسه.
(٢٥) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٣٤.

والله لئن ظهرنا عليهم يوماً من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط[٢٦].

ومن ثم ـ وعلى شرط مسلم ـ جاءت نساء الأنصار تبكى حمزة وتندبه، لما قال النبى: لكن حمزة لا بواكى له[٢٧].

وهكذا عادت قريش بعد أن أشفت ثأرها، واستشفت لقتلاها، تحمل فى ركابها حبلاً طويلاً تجر فيها الأسرى من المسلمين، تشعر أنها قد أعادت هيبتها فى عيون الأعراب، وردعت من فكر بموادعة يثرب على طرق التجارة الداخلية، وأعادت لطريق الإيلاف أمنه، مع اعتزازبنجاحها فى إعادة كنانة إلى إيلافها، ومشاركتها قريشاً فى أحد، وهو ما عبر عنه شعر هبيرة بن أبى وهب وهو يقول:

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن	عرض البلاد على ماكان يزجيها
قالت كنانة: أنى تذهبون بنا؟	قلنا: النخيل، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد، فقلنا نحن نأتيها

فأجابه شاعر الرسول حسان بن ثابت وهو يقول:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم	إلى الرسول، فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية	فالنار موعدها والقتل لاقيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت	أهل القليب ومن ألقينه فيها

ثم قام (كعب بن مالك) يدعم (ابن ثابت) بالقول:

ونحن أناس لا نرى القتل سبة	على كل من يحم الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى	على هالك لنا عيناً لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشىء نقوله	ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع

وهنا قام (عبد الله بن الزبعرى) يرد على (حسان بن ثابت) مؤكداً أن النصر كان حليف قريش، وأنهم مقابل شيوخ الملأ فى بدر، قد قتلوا من سادة يثرب ومحاربيها من لا يقلون شرفاً

(٢٦) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

ومحتداً، بل ويزعم أن قريشاً قد قتلت من اليثاربة ضعف ما قتل المسلمون من قريش فى بدر، ويقوم ذلك فى قوله:

يا غـراب البـين؛ أسـمعت فقـل	إنمـا تنطـق شـيئاً قـد فعـل
أبلغـن حسـان عنـى آيـة	فقريـض الشـعر يشـفى ذا الغـلل
كـم قتلـنا مـن كريـم سـيد	ما جـد الجـدين مقـدام بطـل
ليـت أشـياخى ببـدر شـهدوا	جـزع الخـزرج من وقـع الأسـل
حـين حكـت بقـباء بركهـا	واسـتحر القتـل فى عبـد الأشـل
فقتلنـا الضعـف مـن أشـرافهم	وعدلنـا ميـل بـدر فاعتـدل

فأجابه (حسان) يرد له الصاع صاعين بقوله:

ذهبـت يا ابـن الزبعـرى وقعـة	كـان منـا الفضـل فيهـا لـو عـدل
ولقـد نلتـم ونلنـا منكـم	وكـذاك الحـرب أحـياناً دول
نضـع الأسـياف فى أكتـافكـم	________________
نخـرج الإصـبع مـن إسـتاهكم	________________
وتركنـا فى قريـش عـورة	يـوم بـدر، وأحـاديث المثـل

أما (هند بنت عتبة) فقد كانت ترسل شعرها يعلن استشفاءها بعد ثأرها من (حمزة)، وهى تنادى المسلمين بقولها:

نحـن جـزينـاكم بيـوم بـدر	والحـرب بعـد الحـرب ذات سـعر
ما كـان لى عن عتبـة مـن صـبر	ولا أخـى وعمـه وبكـر
شـفيت نفسـى وقضـيت نـذرى	شـفيت وحشـى غليـل صـدرى
فشـكر وحشـى علـىّ عمـرى	حتـى تـرم أعظمـى قـبرى[٢٨]

هذا، وإن كانت (هند) ترى فى نفسها بقية من رغبة لم تتحقق، فى القضاء على كل هاشمى وكل أنصارى، فتقول:

---

(٢٨) نفسه: ص ٣٩. (الخطأ العروضى فى الشطر الثانى من البيت الثانى من شعر كعب بن مالك هكذا فى الأصل).

رجعت وفى نفسى بلابل رحمة | وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم | بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئاً ولم يكن | كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى(٢٩)

فقامت (هند بنت أثاثة بن عبد المطلب)، سليلة البيت الهاشمى، وقد استنفرها شعر (هند بنت عتبة)، لترد عليها قائلة:

خزيت فى بدر وبعد بدر | يا بنت وقاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجر | م الهاشميين الطوال الزهر
بكل قطّاع حسام يفرى | حمزة ليثى وعلىٌّ صقرى
إذا رام شيب وأبوك غذرى | مخضباً منه ضواحى النحر

ونذرك السوء فشر نذر(٣٠)

واستمر (حسان بن ثابت) يتبع قوافى (هند بنت عتبة)، ليقع بها وقعة فاحشة، ويرفع الستر عن سرها، ليقول:

لعن الإله وزوجها معها | هند الهنود عظيمة البظر
أُخْرِجْتِ مرقصة إلى أحد | فى القوم، مقتبة على بكر
بكر ثقال لا حراك به | لا عن معاتبة ولا زجر
وعصاك إستك تتقين بها | دقى العجاية هند بالفهر
قرحت عجيزتها ومشرجها | من دأبها نصاً على القتر
ونسيت فاحشة أتيت بها | يا هند ويحك سبة الدهر
زعم الولائد أنها ولدت | ولداً صغيراً كان من عهر(٣١)

---

(٢٩) السهيلى: سبق ذكره، مج ٣، ص ٢١٥.
(٣٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٩.
(٣١) الطبرى: سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦.

باب ثان

نتـــائج غـزوة أحـد

«والله ما أبتغى أن يستغفر لى، إن قمت إلا لأشدد أمره» .

[عبدالله بن أبى بن سلول]

يقول البيهقى مصوّراً حال يثرب بعد هزيمة المسلمين فى أحد بقوله:

وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين فى المكر... وتحزين المؤمنين... وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل[1].

ونعت النفاق عند أُحد تحديداً، صار- كما هو واضح فى كتب الأخبار- يلحق بكل معترض، أو بكل من عقب على الهزيمة بالتشكيك، وهو ما يظهر واضحاً فى قول ابن كثير:

وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب، لكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذى أصابوا منكم[2].

والإشارة هنا إلى ثلاثمائة أنصارى، قرروا قبل المعركة البقاء فى المدينة، وعدم الخروج إلى أحد، برأى عسكرى عركته خبرتهم بمناعة مدينتهم، وإزاء ذلك الفوران، الذى بات يهدد هيبة الدولة الناشئة، ويعطى الفرصة للرؤوس المحنية للتعالى والتغامز، وما قد يجره ذلك من تردى هيبة صنعها المجاهدون بدمائهم فى بدر، كان لابد من خطوة أولى لتهدئة روع المسلمين، ومن ثم استرسل الوحى يرد على هؤلاء بالقول الكريم:

- ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (١٦٨/آل عمران).

- ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين...﴾ (١٦٦/ آل عمران).

- ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ (١٤٥/ آل عمران).

- ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ (١٤٢/ آل عمران).

أما الذين حزنوا على المغانم الزائلة من عرض الدنيا، فقد توجه إليهم الوحى يقول:

- ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ (١٤/آل عمران).

---

(١) البيهقى: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٩.

- ﴿ولئن قتلتم فى سبيل الله أو مُتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ (١٥٧/آل عمران).

- ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (١٦٩/آل عمران).

العلاج النفسى

والدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق، لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهدوا فى الجهاد، قال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله..﴾»[٣].

ثم يلتفت المصطفى إلى (جابر) رضى الله عنه ويقول له: «يا جابر؛ ألا أبشرك؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: شعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمن على عبدى، ما شئت أعطكه، قال: يارب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل مع نبيك، وأقتل فيك مرة أخرى، قال: إنه قد سلف منى القول، لا يرجع إليها»[٤].

وهكذا كان العلاج النفسى، والبلسم الشافى المداوى، ولم شتات الأنفس المبعثرة فرقاً وهلعاً، وتقوية العزائم بتثبيت الإيمان، لكن مؤرخينا لا يجدون - عافاهم الله - فى تلك الخطة المداوية، والكلام السديد بالرأى الرشيد، كفاية وشفاء وغناء، إنما يطمحون دوماً كدأبهم إلى حديث الأحاجى والمعجزات، وهو حديث ما كان يشفى أصحاب أحد وهم مهزومون، قدر ما يشفيهم الوحى الصادق، والقيادة الحكيمة، لكن أحاديث الأحاجى كتبت على ما يبدو لأجيال بعد ذلك ستقرأ التاريخ، وربما تتساءل فى ضوء المشروع عقلاً، فكان إلقامهم سلفاً تلك الدلائل على الإعجاز، رغم تجرع المسلمين مرارة الهزيمة فى هدوء وبطولة، فجاءتنا الروايات تقفو بعضها، لتعيد حديث الملائكة، وتؤكد أن الملأ الأعلى المحارب قد هبط إلى أحد، وأعمل خبرته القتالية

(٣) انظر الحديث فى مسلم، رواه موقوفاً فى ٣٣ من كتاب الإمارة، بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة.
(٤) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

فى المعركة، غير مدركين إلى أى منزلق يذهبون بتلك المزاعم، ومنها ما جاء يحكى عن الوقعة فى حميتها، والرسول يتعرض للهجوم، وأمامه سعد بن أبى وقاص، «فقال عليه الصلاة والسلام لسعد: ارددهم، قال: كيف أردهم وحدى؟ فقال له: ارددهم، قال سعد رضى الله عنه: فأخذت سهماً من كنانتى فرميت به رجلاً منهم فقتلته، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمى الذى رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى».

ولا تفطن الروايات إلى أن سعداً لو استمر بسهمه المبروك هذا، لأفنى المشركين، ثم تؤكد أن هذا السهم «كان بعده عند بنيه... وروى عنه أنه قال: لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد، فيرده علىّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد... فظننت أنه ملك».

ثم ينسب لسعد حديث آخر يقول فيه:

> رأيت يوم أحد عن يمين النبى عليه الصلاة والسلام وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده[٥].

بل وتحدد كتب التراث الرجلين البيض بالثياب البيض بالاسم فقد كانا الملكين (جبريل) و(ميكائيل)[٦].

ورواية أخرى، تضع سعداً مرة أخرى، فى حبكة أخرى، تقول:

> لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعد يرمى بين يديه، وفتى ينبل له كلما ذهبت نبلةٍ أتاه بها، يقول: ارم أبا إسحق، فلما فرغوا نظروا: من الشاب؟ فلم يروه ولم يعرف[٧].

ومثل تلك الروايات التى تصر على نزول الملائكة إلى أحد وحربها مع المسلمين، رواية تحكى عن أمر تعلمه كتب الأخبار، وهو أن (أبا الروم) أخو (مصعب بن عمير)، حمل اللواء من (مصعب) بعد سقوط أخيه شهيداً، وفى زحمة المعركة وهولها، ومع إصابة النبى تلك الإصابات الشديدة، ظن أبا الروم مصعباً، لكن الرواية تتم حياكتها لتخبرنا خبراً آخر يقول:

---

(٥) البخارى: كتاب المغازى، باب: إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا.
(٦) مسلم: كتاب الفضائل، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبى يوم أحد.
(٧) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٦.

ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه، وسقط اللواء، أخذه ملك فى صورة مصعب... وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم للملك الذى على صورة مصعب: تقدم يا مصعب، فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه ملك أُيِّد به.

هذا بينما يعقب الحلبى فى سيرته على الرواية فيقول: «... رأيت فى رواية أنه لما سقط اللواء، أخذه (أبو الروم) أخو (مصعب)، ولم يزل فى يده حتى دخل المدينة»[8].

وفى سياق سوق المعجزات، لا يرضى (الحلبى) فى موضع آخر من سيرته، إلا بموتة قميئة لابن قمئة الذى شج النبى فى وجهه وضربه بالمغفر، فيقول:

إن هذه الشجة لم تشنه، بل زادته جمالاً... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقمأك الله... وقد استجاب فيه دعوة نبيه، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشد عليه كبشها، فنطحه أرداه من شاهق الجبل فتقطع[9].

كذلك تثنى الروايات على (أبى بن خلف) الذى قتله النبى بالحربة، حتى يسكته عن إسماع المشركين نداءه وهو يهتف: أى محمد؟ لا نجوت إن نجا، لتقول بلسان عبد الله بن عمر:

مات أبى بن خلف ببطن رابغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل، إذا نار تتأجج لى فهبتها، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتنبها وهو يصيح: العطش العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله، هذا أبى بن خلف[10].

ثم لا يجد مؤرخونا بأسا هنا من تكرار بعض ما صاغوه لبدر الكبرى، ومنها القول: «أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبى يوم أحد وقد ذهب سيفه، فأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم عسيباً من نخل، فرجع فى يد عبد الله سيفاً... وأصيبت يومئذ عين قتادة بن نعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه وأحدّهما،

(٨) الحلبى: السيرة، مج ٢، ص ٥٤٤، ٥٤٥.
(٩) نفسه: ص ٥١٣، ٥١٤.
(١٠) البيهقى: سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٩.

وتفصيل إعادة تركيب العين فى موضعها، فى أن النبى «رفع حدقته فوضعها موضعها ثم غمزها براحته، وقال: اللهم اكسه جمالاً، فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت»[11].

ثم يعرج رواة السير والأخبار على ألوان أخرى من الروايات، قصدوا بها التدليل على صدق نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعصمته، وطهارته، وطهارة جسده، وما قد ينال المؤمن الصادق إذا ما نال من ذلك الجسد شيئاً، يرفع من مكانته ويزكيه، لكنها من جانب آخر- إن كانت قد حدثت- فإنها تلقى ضوءاً على المكانة التى وصل إليها رسول الله بين أتباعه وربما قصد بتلك الروايات وضعها فى مقابلة مع أخبار من شك أو فر وهرب، لإثبات وجود المؤمنين الصادقين الثابتين، الواثقين بنبيهم إلى حد التبتل فيه، حداً لم يصله قبله إنسان ولا بعده، ومن تلك الروايات أن (مالكاً بن سنان الخدرى)، أبا (سعيد الخدرى)، قد امتص دم النبى من جروحه فى أحد، وازدرد تلك الدماء، فقال النبى:

من سره أن ينظر إلى رجل لا تمسه النار، فلينظر إلى مالك بن سنان، من مس دمى لم تصبه نار.

ويعقب (الحلبى) على ازدراد دم النبى تعقيباً شارحاً مطولاً يقول فيه: «ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم، أمر هذا الذى امتص دمه بغسل فمه، ولا أنه غسل فمه بعد ذلك، كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضى الله عنها، بغسل فمها، ولا هى غسلته بعد ذلك لما شربت بوله صلى الله عليه وسلم، ففيها رضى الله عنها أنها قالت: قام رسول الله من الليل إلى فخارة تحت سريره، فبال فيها، فقمت وأنا عطشى فشربت ما فى الفخارة، وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم، قال: يا أم أيمن، قومى إلى تلك الفخارة فأهريقى ما فيها، فقالت: والله لقد شربت ما فيها، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: لا يجفر بطنك بعده أبداً... أى لا تشتكى بطنك... وقد شربت بوله أيضاً امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بنت عمرو، وكانت تخدم أم حبيبة رضى الله عنها، جاءت معها من الحبشة،... وفى كلام ابن الجوزى، بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان الحبشية، خادمة أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم،... فقال لها حين علم أنها شربت ذلك: صحة يا أم يوسف، فما مرضت قط، حتى كان مرضها الذى ماتت فيه»[12].

---

(11) نفسه: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣.

(12) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥١٥، ٥١٦.

غزوة حمراء الأسد

هكذا كانت البلسمة الشافية لجراح أحد على المستوى النفسي، لإعادة تثبيت المؤمنين حول الإيمان، وحول نبيهم صلى الله عليه وسلم، وعلاقته الحميمة بمحبيه ومريديه والخلص له، أما على المستوى العسكري، فإن (ابن هشام) راوي السيرة يحكي:

> فلما كان الغد يوم الأحد، لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن الرسول في الناس بطلب العدو،... أنه لا يخرجن معنا أحد، إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

ثم يعقب بالقول: «وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم»[١٣].

وعليه، فإن قريشاً لم تستمتع بنشوة نصرها سوى ليلة واحدة، أو بضع منها، وخاب فألها في هيبتها، وسقطت آمالها في تأمين طريق الإيلاف، فلم تمض شوطاً عن المدينة، حتى خرج المسلمون وهم بعد جرحى، بزعامة قائدهم المقتدر، رغم ما أثقل جسده الشريف من آلام وجراح، إلى حمراء الأسد، ليوهم قريشاً أنه خرج لها مطارداً، وأن المسلمين لم يهنوا أو يتخاذلوا ليسلبهم لذة نصر الأمس، ونشوة عزهم الكاذب، وليثبت لهم أن ما حدث بأحد، كان أمراً اعتراضياً في مشوار طويل سيطول مداه، وأن النبي لن يتراجع عما انتواه، وبالفعل خرج المسلمون إلى حمراء الأسد طاعة لنبيهم رغم جراحهم، «فمنهم من كان به تسع جراحات، وهو أسيد بن حضير رضي الله عنه، وعقبة بن عامر رضي الله عنه، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصمة رضي الله عنه، ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة، وهو كعب بن مالك رضي الله عنه، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة، وهو طلحة بن عبيد الله... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مجروح في وجهه من أثر الحلقتين، ومشجوج في وجهه، ومكسورة رباعيته، وشفته السفلى قد جرحت من باطنها، وشفته العليا قد كلمت من باطنها، متوهن منكبه لضربة ابن قمئة لعنه الله، وركبتاه مجروحتان من وقعته في الحفيرة»[١٤].

ثم نعلم أن خزاعة بمشركيها، رغم هزيمة المسلمين، ظلت على عهدها ليثرب وقائدها، وهنا يجب ألا ننسى، أن خزاعة لم تنس أبداً أن قريشا سلبتها سيادتها على مكة وعلى البيت، وطردتها

(١٣) السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج ٣، ص ١٧٣.
(١٤) الحلبي: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.

من مكة بعد أن تحالفت مع من والاها من قبائل العرب، بحيلة احتال بها سلف قريش (قصيّ بن كلاب) على (أبى غبشان الخزاعى)، فاشترى منه مفتاح الكعبة بزق من الخمر وقعود[١٥]، لذلك:

كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد بن أبى معبد الخزاعى يومئذ مشرك، مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهومقيم بحمراء الأسد، فقال: يا محمد؛ أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله بحمراء الأسد، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه،... فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل... فقال النبى وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة، والذى نفسى بيده، لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب[١٦].

وعليه، شدت قريش فى طريق العودة سراعاً نحو مكة، وهى تظن يثرب بجمعها قد خرجت وراءها تطلبها، بينما كان النبى عليه الصلاة والسلام فى طريق عودته من حمراء الأسد إلى يثرب، بعد أن حقق غرض الإرهاب لقريش، ليبدأ بالمرحلة الثالثة من علاج نتائج أحد، بعد العلاج النفسى، والإرهاب العسكرى، فقام يضرب بسرعة وبقوة، كل القوى المناوئة والمضادة فى يثرب، وكل من سولت له نفسه التشفى أو التهكم أو ابتهال الفرص، وهو ما بدأه بإصدار الأمر بقتل (الحارث بن سويد بن الصامت)، الذى قتل (المجذر بن زياد) فى أحد، ثأراً لأبيه:

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، عويمر بن ساعدة بضرب عنقه، فقال له: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد واضرب عنقه، وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك (والمرجح أن عثمان هو الذى قتله)، فقدم ليضرب

---

(١٥) انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره،

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠ :٥٢.

عنقه، فقال الحارث: لم يا رسول الله؟ فقال: بقتلك المجذر بن زياد،... فقال الحارث: والله قتلته، وما كان قتلى إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية من الشيطان، وإنى أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة، فلم يقبل منه النبى صلى الله عليه وسلم(١٧).

أما (ابن سلول) الذى عاد بثلث جيش المسلمين من أحد، متشككاً فى النصر الموعود، والملائكة المنزلة، فكان له شأن آخر، نقرأه فى رواية تقول:

كانت عادة عبد الله ابن أبى بن سلول، إذا جلس النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به وأعزكم، فانصروه وعززوه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم جلس.

ومثل ذلك القول المعتاد من (ابن سلول)، يشير إلى أمر الرجل كسيد من سادة المدينة، يوجه نصحه وأمره لرجاله وأتباعه وحلفائه، بطاعة النبى، كما يشير لهم أنه بخطابه قد بدأ هو بالطاعة للنبى وعليهم اتباعه، كما أن تلك المقدمة الدورية منه كل جمعة، كانت تعنى من جانب آخر، تنازلاً مضطراً للسيد الجديد، كما كانت تمسحاً به وتزلفاً لبقية المؤمنين، وهو يعطيها كما لو كان يعطى برضاه، أو كمن تنازل عن السيادة وأمر أتباعه بالطاعة ولولاه ما أطاعوا، إنها المحاولة الدائبة من سيد انحدر أمره يريد التشبث بما بقى له من ظلال السيادة، ولو على من بقى له من أتباع، ليقوم ممثلاً لهم معطياً بيعة دورية للسيد الجديد، لكن بعد أحد، حدث ما جاء فى كتب السير يقول:

فبعد أحد، أراد أن يفعل ذلك، فلما قام، أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنى إنما قلت هجراً؟! وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله، فقال: والله ما أبتغى أن يستغفر لى، إن قمت إلا لأشدد أمره(١٨).

وهكذا سقط ما كان قد تبقى لابن سلول من سيادة وتشريف، كان يلتمسه عبر تقديم سيد

(١٧) الحلبى: سبق ذكره، مج ٢، ص ٥٥٥، ٥٥٦.

(١٨) نفسه: ص ٥٩٤، انظر أيضاً ابن كثير: سبق ذكره، مج ٤، ص ٥٣.

المدينة الجديد لأتباعه، وانحدر أمره، وتضاءل حجمه وأمعن بقيّة الأنصار مع المهاجرين فى تصغيره، حتى لا يكون فتنة للمسلمين بعد الهزيمة، وحتى لا يكون ذا أثر محسوس لمعارضة حية أو نشطة فى الدولة الجديدة، زمن حرب ومعركة دائبة.

المعارضون

ثم كان أن سل الإسلام سيفه على الرؤوس الكبيرة داخل المدينة وخارجها، إرهاباً وإنذاراً، لتعود القبائل إلى الانكماش، ولا تجد فى أحد فرصة للتطاول على دولة المسلمين الطالعة، وفى ذلك يذكرنا (ابن حبيب) بمقتل الرأس اليهودى (كعب بن الأشرف)، الذى هاله أمر قتلى المشركين في بدر وأفصح بالعداء للمسلمين، لكن ليضيف إليه رأساً آخر تم اجتثاثه، فيقول: «وفى سنة ثلاث، بعث محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة إلى كعب بن الأشرف فقتلاه... وبعث فى النصف من رجب عبد الله بن أنيس إلى سلام بن أبى الحقيق اليهودى فقتله»[19]، ويفصّل لنا (ابن كثير) أمر اغتيال (أبى رافع/ سلام بن أبى الحقيق) بقوله: «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتل سلام بن أبى الحقيق وهو بخيبر، فأذن لهم، قال ابن إسحق: فحدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، أن هذين الحيين من الأنصار والأوس، كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك، ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله قالت الخزرج: والله لايذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا من رجل لرسول الله فى العداوة كابن الأشرف، فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله فأذن لهم، فخرج من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود حليف لهم... حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلاً...»، ثم يروى راويهم «فلما دخلنا عليه، أغلقنا عليه وعلينا الغرفة، فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فو الله ما يدلنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة... وتحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو

(١٩) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص ١١٧.

يقول: قطني قطني...». أما (ابن أنيس) فيؤكد المقتلة حتى الموت بقوله:

فوضعت السيف في بطنه، ثم انكفأت عليه، حتى سمعت صوت العظم.

وقال (الزهري): قال (أبي بن كعب): فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: فلما رآهم قال: أفلحت الوجوه ... فقال حسان بن ثابت في ذلك، يعلم الحاضر والبادي أن سيف الإسلام وإن تراجع مهزوماً في أحد، فلا زال قادراً على قطع الرؤوس:

لله در عصابة لاقيتهم	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم	مرحاً كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بلادكم	فسقوكم حتفاً ببيض ذفف
مستبشرين لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمر محجف[٢٠]

وإذ يصر (ابن حبيب) في كتابه المحبر، على اغتيال أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، بعد أحد مباشرة، فإن رواة السيرة في مواضع مختلفة يحاولون تبرير المقتلة، فيقولون إنها حدثت فيما بعد، بعد وقعة الخندق، والسبب هو أن (سلام بن أبي الحقيق) كان أحد الذين حزبوا الأحزاب ضد دولة الرسول وهو ما يناقض ما جاء في شعر (حسان بن ثابت)، عندما جمع بين مقتل (كعب ابن الأشرف) ومقتل (أبي رافع سلام بن أبي الحقيق) في قصيدته التي تستعرض قوة السيف الإسلامي، ومعلوم أن (ابن الأشرف) قد تم قتله بعد أحد مباشرة لقولته التي قالها، هذا بينما نعلم من (ابن سيد الناس) في مغازيه (عيون الأثر)، أن (أبا رافع سلام بن أبي الحقيق) قد قتل بعد أحد، وتم تسييد سيد بعده على خيبر هو (أسير بن رزام)، وذلك في قوله: «لما قتل أبو رافع سلام ابن أبي الحقيق، أمرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار في غطفان وغيرهم فجمعهم لرسول الله»، ومن ثم فإن من حزب الأحزاب هنا هو (أسير بن رزام) وليس (أبا رافع)، لأن أبا رافع كان قد قتل بعد أحد، وقد تم خلط بعد ذلك بين كليهما، إذ أن (أسير بن رزام) هو الذي قتل بعد تحزيبه الأحزاب في سرية إسلامية أخرى، سرت إليه لتقتله بعد غزوة الأحزاب أو الخندق كما سنرى[٢١]. بل إنه في رواية ابن هشام ما يؤكد قتل (أبي رافع) بعد أحد مباشرة، في قوله السالف «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله في قتل سلام بن أبي الحقيق».

---

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣٩ : ١٤٢.

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٥.

ثم انطلق سيف الإسلام داخل يثرب يعمل عمله لإسكات أى لون من ألوان الاستهانة بالدولة، وهى الاستهانة والمعارضة التى يمكن أن تشكل كارثة لدولة عسكرية فى زمن حرب، وهو ما نقرأه فى قصة اغتيال (أبى عفك/ عمرو بن عوف)، ذلك الشيخ الذى تخطى بعمره من الزمان قرناً، فلم تبق لديه قوى تمكنه من إمساك دمعه واستمرار تجلده، وهو يرى مسلماً آخر هو (الحارث بن سويد بن الصامت)، وهو يذبح بباب المسجد النبوى وهو ابن (سويد بن الصامت) الذى عرف بين العرب بالحكمة، وبأنه صاحب صحيفة لقمان التى وافق عليها الوحى القرآنى، فانهمر دمع (أبى عفك) مرسلاً شعره نحيباً باكياً (الحارث) بن صاحب صحيفة لقمان، ورجل فى عمر (أبى عفك) إن أرسل نواحه فى الفيافى بين العربان، الذين يقدسون المسنين، ويعبدون الأسلاف ويحنون الهامة للمعمرين، لا يتركها إلا بقلوب كليمة موجوعة جزعة، وهو الشعر الباكى الذى جاءنا خبر منه فى رواية ابن إسحق عن «غزوة سالم بن غمير لقتل أبى عفك، أحد بنى عمرو بنى عوف، ثم بنى عبيدة، وكان قد نجم نفاقه حين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن سويد بن الصامت، وإشارة ابن إسحق لنفاق الرجل تشير إلى أنه كان حتى قوله ذلك الشعر مسلماً، وما نافق إلا بتلك البكائية التى تقول فى طرف منها:

لقد عشت دهراً وما إن أرى	من الناس داراً ولا مجمعاً
أبر عهوداً وأوفى لمن	يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قيلة فى جمعهم	يهد الجبال ولم يخضعا
فصدعهم راكب جاءهم	حلال حرام لشتى معاً
فلو أن بالعز صدقتم	أو الملك تابعتم تبعا

فقال رسول الله: من لى بهذا الخبيث؟ فخرج إليه سالم بن عمير، أخو بنى عمرو بن عوف (أى أحد رجال عشيرته) فقتله، وهو ما طربت له (إمامة المزيرية) حتى قالت:

تكذب دين الله والمرء أحمداً	لعمر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الليل طعنة	أبا عَفَك خذها على كبر السن

ولكن لمصرع رجل مثل (الحارث)، ثم مقتل رجل السنين والطوال والحكمة (أبى عفك)، كان لابد أن يدوّى الصدى ليرجع الأمر ترجيعاً بين النفوس الجازعة، ولم تتمكن (عصماء بنت مروان) من الإمساك على إسلامها، فأرسلت عبراتها شجوناً، تعول تبكى وتهجو وتحرض، ليسرى شعرها بين الناس مرجعاً لوعتها وهى تقول:

باسـت بنـى مـالك والنبيـت	وعـوف، وباسـت بنـى الخـزرج
أطعتـم أتـاوى من غيـركـم	فـلا مـن مـراد ولا مـذحـج
ترجونـه بعـد قتـل الرؤوس	كمـا يرتجـى مـرق المنضـج
ألا أنـف يبتغـى غـيره	فيقطـع مـن أمـل المرتجـى؟

ومن ثم لا يجد (ابن هشام) من أمر عبراتها إلا نفاقاً، بقوله:

«فلما قتل أبو عفك نافقت».

وهو النفاق الباكى الذى استحقت عليه ما جاء ذكره (عند ابن هشام) فى قول النبى بين أصحابه هاتفاً:

ألا آخذ لى من ابنة مروان؟

فسرى إليها ليلاً واحد من بنى عشيرتها، هو (عمير بن عدى) فكلاهما من بنى خطمة، فأعمل سيفه فى أحشائها وهى مستسلمة لنومها فى فراشها، «ثم أصبح مع رسول الله فقال: يا رسول الله إنى قتلتها، فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير».

أما النتيجة التى ترتبت على قتل عقيلة بنى خطمة، فهى هرع من لم يسلم منهم إلى إعلان إسلامه، «فذلك اليوم أول ما عز الإسلام فى دار بنى خطمة... فأسلم، يوم قتلت ابنة مروان، رجال من بنى خطمة لما رأوا من عز الإسلام»[٢٢].

ويستمر راوى السيرة (ابن هشام) فى سرد ما سقط من أحداث فى سيرة (ابن إسحق)، ليضيف إلى مقتل (أبى رافع) و(أبى عفك) و(عصماء بنت مروان)، عدداً من السرايا لعل أهمها سرية (عبد الله بن أنيس) لقتل سيد هذيل (خالد بن سفيان الهذلى) وسرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة.

ويروى (الطبرى) قصة سرية (عبد الله بن أنيس) فيقول: إن النبى عليه الصلاة والسلام بعث إلى (عبد الله بن أنيس) وقال له: «بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزو لى، وهو بنخلة - أو بعرنة - فأته فاقتله»، وذهب (ابن أنيس) حتى التقى بالرجل، وأخذه فى مسيره شوطاً بعيداً عن أصحابه وهو يحكى له عن رغبته فى الالتحاق به، حتى وجد

(٢٢) السهيلى: سبق ذكره، مج ٤، ص ٢٤٤، ٥٤٥.

منه فرصة بعيدة عن الأعين فقتله، وعاد إلى يثرب ليحكى لنا «فلما قدمت على رسول الله وسلمت عليه ورآنى قال: أفلح الوجه»[٢٣].

أما سرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة بوادى القرى، فكانت إلى (فاطمة بنت ربيعة) المعروفة بأم قرفة، وكانت عجوزاً كبيرة تجاوزت من عمرها قرناً، وكانت مطاعة فى قومها، ذات منعة وشرف وسيادة، بلغ صيتها كل العربان، وضربوا بعزها الأمثال، وبقى من الأمثال التى تتعلق بأم قرفة مثلان على الأقل، وهما «أمنع من أم قرفة»، و «لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت»[٢٤]، وهى كلها أسباب تكشف عن ملامح غزوة (زيد بن حارثة) وغرضها الذى تم بهبوطه عليها على غرة، فأعمل السيوف في الفزاريين، ثم أسر أم قرفة وابنتها هنداً، وبينما أبقى على (هند) سبية، فقد أمر بقتل أم قرفة قتلاً ذكر (ابن هشام) أنه كان عنيفاً[٢٥]، وهو ما جاء تفصيله فى (الطبرى) شارحاً: أنه تم ربط رجليها بحبلين، ثم ربط الحبلان ببعيرين متعاكسين، ثم ضرب البعيران فانطلقا، فشقاها شقاً[٢٦].

وهكذا جاء مسلسل الاغتيال والعنف والتصفية الجسدية، لإعادة تثبيت هيبة الدولة التى ترنحت فى أحد، ولإعلان الإصرار الذى لا يتزحزح على استدامة الدولة وسيادتها والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

ومن ثم كان ضرورياً أن تهدأ المدينة، بعد قبر الأصوات المعارضة، لكن بعد أن أصلت غزوة أحد الثارات بين اليثارية وبين المكيين ناراً، كما تركت سرايا الاغتيال بدورها أحقاداً ثأرية فى نفوس قبائل، قطع السيف الإسلامى رؤوس سادتها وأشرافها. وهو الأمر الذى ظل قائماً ومحركاً لأحداث سيتناولها الجزء الثانى من هذا الكتاب، لحروب دولة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٣) الطبرى: التاريخ، سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٦.

(٢٤) نفسه: ج ٢، ص ٦٤٣.

(٢٥) السهيلى: (فى سيرة ابن هشام)، سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٧.

(٢٦) الطبرى: التاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٤٣.

حـروب دولـة الرسول

الجـزء الثـانى

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى

تأسيس

مسار التاريخ

﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾

[١٣ الشورى/ قرآن كريم]

فى الجزء الأول من هذا العمل، قدمنا تأسيسا تمهيديا يساعد على تفهم المراحل التى اجتازتها دولة العرب وهى فى طور النشأة، والتى أقام نواتها الأولى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى عاصمته (يثرب)، عبر حروب طويلة خاضها بصحبة رجاله، من أجل تأمين دولته الوليدة، وتوحيد قبائل العربان تحت راية دولة واحدة، وقائد واحد، وعبادة واحدة.

وإعمالا لذلك؛ قمنا بقراءة واقع جزيرة العرب، الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فى الفترة الواقعة قبل الدعوة، فكان حديثنا عن حكومة الملأ الابتدائية فى مكة، التى كانت شبه جمهورية، والتى قامت بهدف إحكام سيطرة الأرستقراطية التجارية المكية، على مختلف الشئون، فى خطوات بدأت بتقريش قبائل مكة زمن (قصىّ بن كلاب)، أى جمعهم بعد تفرق، ثم كانت الخطوة الثانية: الإيلاف، للتأليف بين قبائل مكة التجارية، وبين القبائل الضاربة على الخط التجارى الواصل بين مكة وبين الامبراطوريتين: الفارسية والرومانية، وبينها وبين القبائل المتناثرة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية، ثم بين مكة وبين الامبراطوريتين.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث، حيث كان مركز اليمن الزراعى قد تهاوى وكذلك التجارى، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية:

الغساسنة والمناذرة، وذلك فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما أحدث فراغا سياسيا واضحا، كما انهارت مجموعة طرق تجارية أخرى لم يبق آمنا منها سوى الطريق المار بمكة، نتيجة للحرب الضروس التى دارت بين الفرس والروم.

وكان لمنعة الطريق المار بمكة، دور حوّل مكة من قابضة للعشور على بضاعة الترانزيت المارة بها، إلى مركز للأرستقراطية التجارية التى نهضت بأمر تجارة العالم المعروف آنذاك، وهو الأمر الذى أدى إلى تراكم ثروى عظيم، بخزائن الأرستقراطية المكية، التى أخذت تتاجر لحسابها بثروات العالم.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابهم، ومع حجم تلك التجارة الهائل، كان محتما أن تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة فى الظهور داخل القبيلة الواحدة، مما أدى إلى تهشيم الأسس الأولية القديمة لروابط العشيرة، وما صاحبه من اختلاف أوضاع الناس فى العملية التجارية التى تقودها مكة، مما ساعد على تحول تدريجى ابتدائى عن الولاء للقبيلة إلى الولاء للطبقة، وظهرت قيم الفردية، التى اتضحت فى إمكان تحديد قيمة الفرد دون جماعة، بتحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر، إلى ما يملكه الفرد من مال، وهكذا جمعت المصالح المادية لأول مرة، بين أفراد من قبائل مختلفة، كما جمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين مختلف القبائل.

وقد لحظنا بما قدمناه من أمثلة، أن كل تلك التطورات لم تصل فوراً إلى نتيجتها الواضحة، فلم يتم تفجير القيم القديمة تفجيراً كاملا، إنما تخفى المحتوى الطبقى الجديد برداء قبلى قديم، عندما سعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح، وإشراك صغار التجار فى قوافلهم التجارية، وهو ما تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين قبليين كبيرين بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين لكن بملامح قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت الهاشمى الذى غلب عليه الفقر.

وكان مفترضا أن يؤدى التفاوت الطبقى، وتناقضه مع الشكل القبلى، إلى مرحلة تفجر الشكل لصالح المحتوى، لولا أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية ـ ولمصالح الأرستقراطية التجارية تحديداً ـ مكسبا ثرويا أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقى، لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدها كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره مستوى المرحلة الفكرية.

وعلى المستوى الفكرى، كان الرب القبلى سيد القبيلة وسلفها البعيد، ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب، وبينما كان المحتوى الطبقى يسير نحو تفجير الشكل القبلى

لصالح توحد القبائل جميعا، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكنا رفض القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عن الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة، فكان الأرستقراطيون ينحون نحو التوحد المصلحى الذى احتاج أدلجة أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ويكون فى مرتبة تليق بمكانتهم السيادية والإدارية، فوق آلهة الكعبة جميعا، وراعيا غائبا لمصالحهم، كذلك كان المضطهدون والمعدمون والرقيق، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب باتت لا تعدل فى قسمة الأرزاق.

ومن ثم ظل التشرذم القبلى قائما، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاص ومخاض، دون ميلاد حقيقى، بينما انتشر اعتقاد فى مهمة باقية للأرباب القبلية، وهى التشفع لأصحابها لدى الإله الواحد الأعلى، فاتخذوها إليه زلفى، وهو ما كان إخضاعا نفسيا داخليا وذاتيا للقبائل، لملأ مكة وسيادتهم، باعتراف القبائل العربية بسيادة إله الملأ الأعلى على أرباب القبائل.

وبينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى، لصالح توحد كامل، يقضى على التمثيل القبلى، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحساباتها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى لصالح دولة كبرى ومصالح أعظم وأعم نفعا لكل عربان الجزيرة، حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأرجحة بين القبلية والتوحد نحو أمة واحدة، بدأت تسرى فى الآفاق نبوءات الحكماء والكهان عن قدوم موحد فرد يتفق فى مواصفاته مع حالة الجزيرة الاجتماعية، فهو لن يأتى ملكا، لأن أى قبيلة سترفض فوراً أن يحكمها ملك من خارج نسبها، لذلك سيأتى الملك بصيغة أخرى، صيغةٍ جامعة مانعة يقبلها الجميع، ومن ثم سرى الإرهاص يلهب الأحاسيس القومية، بمقدم نبى منتظر[١].

وكان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضآلة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات فى حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقى يعود بفوائده على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها فى شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورتها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى

(١) ارجع فى تفاصيل ذلك إلى موضوعنا: دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع/أكتوبر ١٩٨٦، ص ٦:٢٧، والموضوع نفسه موسعاً فى كتاب بعنوان: الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠، انظر أيضاً التأسيس الذى مهدنا به للجزء الأول من كتابنا: حروب دولة الرسول، دار سينا، القاهرة، ط ١، ١٩٩٣.

قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملأ على حالهم المحافظ الرجعي بالاكتناز حتى موسم التجارة.

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الوسطيين مثل أبي بكر بن أبي قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الوسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعي، تلك القراءة التي أدركت غاية خط سير التطور. حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعا، بتوحد ينتهي إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهالكتين.

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القومية الجديدة التي أخذت تسرى مع سفى الرياح في فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج في الجزء الأول من هذا العمل، ونعضده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينوري) في الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر)، ملك الحيرة العربي المسيحي، المنوب عليها من قبل كسرى فارس، ذلك الرجل الذي ظهر شعوره القومي العربي تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذي يزن) العربي اليهودي الذي ثار في اليمن على الاحتلال الحبشي المسيحي لبلاده، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذي يزن بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط في تبعية الفرس.

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس في اليمن لظلمناه ظلما بينا، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماما، فقد استمرت سياسة النعمان في موالاة القبائل العربية، حتى توجس منه كسرى الذي وعى بدوره شكل التحولات التي تجرى في الجزيرة ونذرها، فتخلص منه، وأوجز سبب قتله في خلاصة واضحة معبرة تماما عن خط سير الأحداث، حيث قال:

> وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتي الملك عن آل عمرو ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم في ذلك كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا[٢].

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغير على سواد العراق كراً وفراً[٣]، ثم تصاعدت

---

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٣، ١٠٩، ١١٠.
(٣) الأصفهاني: الأغاني، المكتبة الحيدرية، ط ٢، النجف، ج ٢٠، ص ١٣٢.

المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية[٤]، حتى تأتى موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية، ذلك النصر الذى دوى أمره يرجع صداه بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره. مع فرح عام شمل الجزيرة جميعا، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومى واضح لاشية فيه، ليلقى بصداه فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موحد العرب، النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعقب على نصر ذى قار قائلا: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»[٥].

وفى مكة، كان أبرز من وعى ممكنات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم، لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرباب القبلية جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نشأ يتيما فقيراً كادحا، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادى، بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فخبر الأمرين، وعاش الحالين، وعاين الطبقتين، مما كان كفيلا بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

وإعمالا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملأ مكة، ابتداء بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحد الآتى، ومن ثم كان إعلانه كفران قريش ﴿قل ياأيها الكافرون..﴾، وسلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان، مع رفضه الصارم لقواعد التجارة التى قعّدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التنموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سنن الكون التاريخية ويلتقى معها، حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى رواية ابن حنبل:

---

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ١٢٩.

(٥) خليفة بن خياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العانى، ط ١، بغداد، ١٩٦٧، ص ٤٣.

«إن النبى قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : أى مال نتخذ؟ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يارسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أى مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»(٦).

وتكرر موقفه من المال فى مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يوما لعبد الرحمن ابن عوف ـ رضى الله عنه ـ : «ما بطأ بك ياعبد الرحمن؟ قال: ماذاك يا رسول الله، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك آخر أصحابى لحوقا بى يوم القيامة، فأقول: ماحبسك عنى، فيقول المال: كنت محاسبا محبوسا حتى الآن»(٧).

وكان طبيعيا أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشى، إنها كنوز كسرى وقيصر بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (٥/القصص).

ويروى البلاذرى: «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا جلس فى المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد مَن الله عليهم من بيننا»(٨).

وإعمالا لذلك بات واضحا أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (١٣ الشورى)، ومن هنا، وفى تلك المرحلة، قام الإسلام يضرب القبلية، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما دعا إليه

---

(٦) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٧) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحه، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٩.

(٨) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج ٢١، ص ١٥٦.

الوحى فى قوله: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (١١٣/ التوبة).

وقد أفصحت الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بزمن بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماما دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضرى الكيفى المتجاوز للتجمع القبلى الكمى، وهو المبدأ الوارد فى نصها المضىء فى مبتداها: «هذا كتاب من محمد النبى، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»[9].

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهى إسقاط نظام الملأ المكى، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام فى أساسه الخرسانى، بقطع طريق الإيلاف التجارى المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول فى يثرب.

(٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبدالرءوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج ٢، ص ٢٤١.

التأسيس التاريخى للأمة

«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»

[النبى محمد]

كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجا جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحى المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين﴾ (١٢٠/ النحل)، فإنها جعلت من محمد - صلى الله عليه وسلم - آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ (١٠٤/ آل عمران).
﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (١١٠/ آل عمران).
﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ (٩٢/ الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خاتما، وبمن سلف من أنبيائهم أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربا جامعا لوحدتهم فى كيان اجتماعى عقدى واحد.

ومن البداية كان واضحا أن هذه الأمة الجديدة هى الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جدا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل فى موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس فى ذى قار.

ومن هنا أضحى واضحا أن مصطلح أمة فى العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهى مع معنى المدنية والحضارة.

ومنعا لأى التباس فى عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالى الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول:

> «أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»[١٠].

كان التوحيد الربوبى ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لابد أن يرافقه توحد اثنى جنسى يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب فى الوقت ذاته، لتتحقق الوحدة المرجوة، ومن ثم كان تأكيد النبى على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبى يتمثل فى الالتفاف حول لاء واحدة هى قول لا إله إلا الله، والقبول بالانضواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل فى الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمى للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العربان من الوضع القبلى إلى الوضع القومى.

ولتحقيق الهدف؛ كان لابد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدى والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شراذم العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائى كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن

---

(١٠) نقلاً عن ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص ١٦٦، ١٦٩.

ماضيها وأحوال من سبقهم، وهو انقطاع تاريخى مع التأريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة، ورغم أن البعض اليوم يقعّد تلك الحضارات فى مجلس التاريخ العربى، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمنى، فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوى وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطى الذى تطور عنه الخط العربى بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، ولم يبدأ ذلك الشعور جليا إلا مع دخول الرسملة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقى، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس فى وقعة ذى قار، وعندما تمكن ابن ذى يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لابد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطىء قدم راسخ فى عمق الزمان الماضى، فأى أمة لابد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره فى الماضى البعيد المؤسس للتطور التالى المنشىء للأمم أصلا.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسى العقدى لإلقائه فى رحم التاريخ القديم، بربط النبى محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة فى القصص الدينى، ليصبح تاريخ الأمة الجديدة تاريخا نبويا، ومعرفيا سماويا، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوى القبل خلقى، فتصبح لغة الملأ السماوى، ولغة آدم أبو البشر جميعا فى الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة من بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء فى سياق تاريخى كان هدفه النهائى هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية تطورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبى وأمة المسلمين، ويصبح جميع الأنبياء فى بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بنى إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود فى الشام واليمن، أو فى العراق كما فى حالة إبراهيم، أو فى مصر كما فى حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوى، وجدلهم المعرفى والحضارى مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخى للأمة العربية الطالعة، وهو الأمر الذى سيلتقى تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هى ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء فى جميع الأمم.

ومن هنا تتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمثابة إعادة اكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضي الأمة.

ولأن الغرض (توحد) في أمة (مُوَحَّدة) في عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيري على بعض الآراء والعقائد في الديانات السابقة والتي دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما في بعض حالات أنبياء اليهودية وفي حالة يسوع المسيح. لتصبح القيم التي مثلوها هي القيم التي تتساوق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبي التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب في دولة مركزية واحدة.

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء﴾ (١٥٩/ الأنعام)، وهي الآيات التي تعني أن تلك القبائل إنما كانت في الأصل على الدين النبوي التوحيدي الذي أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعاً، مما يعني أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل، ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخي للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا﴾ (١٣/الشورى)،

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية في يثرب كان لابد من مركز تأسيسي يمثل المركز الحكومي الإداري، وفي ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا، ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة»، لتبرك الناقة فيتقدس الموضع الذي بركت فيه ويبني فيه المسجد الذي تقدس في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة.

وفي المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكد المعنى المدني للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية في آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ (٩٧/التوبة).

﴿ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر﴾ (٩٨/التوبة).

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ (١٠١/ التوبة).

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ (١٤ / الحجرات).

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبة الحضارية، لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيا، لظرفها الاقتصادى والمجتمعى، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمها، فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا»[11].

ومن ثم تقدست أيضا تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالا ومقدسا. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء اليثربية عليهم، مع الظفر الذى تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار فى طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكى عن حروب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقريش وحصارها اقتصاديا، فقال: «كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهتكت أموالنا»[12].

(١١) الثعلبى: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت، ص ٢٤٩.

(١٢) المقدسى: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج ٦، ص ٩٤.

الوسطية بين النقائض

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾

[١٩ آل عمران/ قرآن كريم]

كان يوم بعاث - وبعاث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة، قتل فيه خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل. وقد روى البخارى فى صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبى أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، وقد افترق ملاؤهم وقتل سراتهم»[١٣].

هذا نص ابن كثير الواضح اللماح، الذى يعلن فى إيجاز بليغ، بلاغا واضح المعانى، حول الظروف التى انعقدت فيها الاتصالات بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل، حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب - من خزرج وأوس - المنهار والمتفسخ، بعد مقتلة يوم بعاث بين القبيلتين، وقتل الرؤوس منهم والسادة، مما جعلهم فراغا من أصحاب (الكاريزما) الرئاسية والحنكة المشيخية، وهو ما رآه ابن كثير ترتيبا ربانيا قدمه الله هدية لرسوله، بقتل الرؤوس الكبرى من كلتا القبيلتين، مما هيأهم لقبول

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨، ج ٣، ص ١٤٦.

السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون منافسين أقوياء.

وغنى عن البيان أن عاملا آخر أساسياً، هيأ لذلك الحلف ومهد له، هو المصاهرة الوثيقة التى سبق أن تمت بين الخزرج وبين بيت النبى الهاشمى، ناهيك عن كون موقف الخزرج ـ تحديداً، إضافة لقرابة الخئولة ـ كان ردأ واضحا على قريش وسادة البيت الأموى، إزاء وقفتهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومى معبس ومضرس، وهى الوقفة التى عمد إليها ملأ مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعا، كى لا تشكل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى، ولإجهاض قوتها حتى لا تطالب بنصيب من الجعالات التى كان يدفعها ملأ مكة للقبائل القائمة على الطريق التجارى. بحيث أسقطت مكة يثرب من حساباتها تماما، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيسا على ذلك استشرف خزرج يثرب الوعد النبوى بوعى نافذ، لوحدة تلم الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتى الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتأريخ، وماتقدمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعا تستقبل سيدها الجديد المهاجر بالترحاب، وتصدح بنشيد: «طلع البدر علينا» بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمنحوا النبى والمهاجرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم، فإن العين الحصيفة المدققة، والقراءة المحايدة المتأنية، لا تجد ذلك الزعم أبداً، حيث نجد وفد يثرب الذى التقى بالنبى فى عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجى وحده وهم أخوال النبى، وأن اللقاء التالى بعد عام كان يضم اثنى عشر، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة، يضم ثلاثة وسبعين، منهم أحد عشر أوسيا فقط، وستون خزرجيا، وهو ما يشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفى مستوى آخر ـ يأخذ بسوء الظن ـ يمكن احتساب أوس العقد دسيسة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخى، لتسقط أخباره، وهو أمر وارد فى ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود الجواسيس كان أمراً مألوفا، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملأ مكة، وهم من قال الوحى بشأنهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ (٢٧/ الأنفال).

ثم هناك مستوى ثالث فى قراءة موقف الأوس، يتمثل فى مباعدة أبى عامر بن عمرو بن صيفى الأوسى مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارها للنبى والمهاجرين، ومشاركته بعد ذلك فى وقعة أحد ضد النبى. إلا أن الواضح الجلى هو أن النبى قد دخل يثرب فى حمى

أخواله الخزرج أساسا، مع تعضيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يفصح عن قدر شديد من المبالغة فى روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعا قبل الهجرة مباشرة، ويدلل عليه ما حدث فى وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبى من جمع أكثر من ثلثمائة رجل معه فى الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر فى المدينة للنبى، وقدرته على حشد قوة تماثل عشرة أضعاف ما جمعه فى بدر، وهو ما يشير إلى انضمام جموع أخرى متأخرة إلى حلف النبى اليثربى.

لكن ذلك لا يعنى سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، متهيأة لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التى أتيحت لها دون أى موقع آخر بالجزيرة، ففيها كان أخوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمى، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملا جوهريا فى وضع التاريخ الدينى موضع احترام من عرب يثرب، إضافة إلى النبوءة التوراتية التى كانت تتواتر هناك عن مقدم نبى آخر الزمان، كما كان التوحيد اليهودى مدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هيأهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية، وقد تهيأت يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادى كعاصمة للدولة المقبلة، فى تحولها التدريجى للتوحد إيمانيا، بل وطبقيا، بذوبانها فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم، وتحولت الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل ووحدة عسكرية، مقاتلة، بدأت تداهم بدورياتها طريق الإيلاف الشامى، لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادى.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولاها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبى وقاص. ورغم أن كثيراً من تلك السرايا الأولى لم تحقق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أى أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذى لاقته تلك الغزوات حيث تمكن النبى من سلخ إيلاف بنى مدلج، وأخذ عليهم عهود الموادعة، كما تمكن من عقد عقود مكتوبة مع بنى ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكنت سرية عبد الله بن جحش، من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكى للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت، وسلبت، وأسرت، لتعلن القوة الجديدة فى يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد،

بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبى للقدس قبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودى، ذلك الاستخفاف الذى استهجنته قريش تعلن فى العريان أن محمداً قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبى عليهم وحيا يقول: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ (٢١٧/البقرة).

وبينما ينقطع قمح يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لتمنع شحنات القمح المصرى من الوصول إلى مكة، ودوريات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يردد لسان حال قريش وهى تقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا محمداً، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى اليمن فى الشتاء»[١٤].

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبى سفيان بن حرب، وهى وقعة بدر الكبرى، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبى فى العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، من ميثاق دفاعى إلى حلف هجومى محارب، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها- مهاجرون وأنصار- إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تماما، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، ممثلة شخصيا فى رسول الله ورمزيا فى ذات الله، وإلى المصالح المادية المباشرة التى جمعت بالفعل أعضاء الدولة، وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التى لعبت دوراً عظيما فى جذب الأتباع من مستضعفى القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبى- صلى الله عليه وسلم- يدعو فى مكة ثلاثة عشر عاما دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالى المائة نفر، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد، ولكن عندما تم الإعلان عن تحلّة الغنيمة من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية، وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذى سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط فى جيش المسلمين، وهو ما يفصح عنه إسلام (عمرو بن العاص) الذى ذهب إلى النبى- صلى الله عليه وسلم- يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليجيبه النبى-

(١٤) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٤٥٨.

صلى الله عليه وسلم ـ بكل صراحة ووضوح: «نعما بالمال الصالح للرجل الصالح». ثم أرسله قائداً عسكريا غازيا وهو يقول له: «إنى أريد أن أبعثك وجها يسلمك الله فيه ويغنمك، وأزغب لك زغبة من المال»، ومن ثم كان إعلان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تميز عمرو بقوله: «أسلم الناس وآمن عمرو»[15].

ومع النصر البدرى الساحق، أصبح النبى مرموق الود من القبائل، خاصة المتاخمة ليثرب، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق، دون أن تعلن هذه القبائل ولاءها الدينى لدولة النبى بإشهارها الإسلام، كان الغرض عسكريا وسياسيا فى هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة، بهدف مرحلى تكتيكى على الطريق الاستراتيجى الطويل، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية، وتفكيك إيلافها مع القبائل، وإسقاط هيبتها أمام العربان، وقد لحق نتيجة ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرسانى لمنظومة مكة المتمثل فى ثروتها التجارية، وهو ما حدا بالقبائل إلى مراجعة موقفها من قريش، إزاء القوة اليثربية الطالعة، فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية فى التحسن المطّرد، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية، سلاحا، ومالا، ومنحتهم مزيداً من الثقة النفسية فى أنفسهم وفى مشروعهم وفى قائدهم، فامتلأوا ـ بتلك القوة المعنوية ـ جرأة، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، بل وقتل أى شخص يتجرأ على معارضة الدولة.

هذا ـ بالطبع ـ مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعى للدولة، كناتج طبيعى لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهى النتائج التى أخذت تتضح فى تراجعات الدولة الوليدة عن الأممية المطلقة والأخوة المطلقة التى كادت فى بدئها أن تكون مشاعا، وذلك بعقد صحيفة المعاقل فى مرحلة تالية، التى كانت إعلانا مكتوبا سافراً عن سلطة النبى كسيد مطلق ليثرب جميعا، ومن ثم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثل فى تراجع دقيق ومحسوب عن الأممية المطلقة، لتأخذ الدولة السمت الوسطى بين الأممية، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية.

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة، حيث لحظنا ـ كما شرحنا فى الجزء الأول من هذا العمل ـ بداية توازن الدولة بين النقائض، فكانت دعوتها لتوحد أممى تحت راية واحدة وفى ظل سيادة دولة موحدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة، وضمت فى شكلها الاقتصادى تقاربا ماديا زاد من ذلك التوحد، لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضا الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقى، ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت

(١٥) السهيلى: الروض الأنف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج ٣، ص ١٩٣.

المستضعفين فى الوحى والأحاديث، بدأت الدولة تفسح بداخلها فجوات المجتمع الطبقى، ثم فجوات المجتمع القبلى معا، حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مدعاة لوضوح شكل الدولة فى أضمومات قبلية محزمة وموثقة بوثاق الدولة الواحدة. أما إذا تتبعنا أنساب العشرة المبشرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلا قبليا وسياديا لأهم البطون القرشية، فهذا أبو بكر وطلحة يمثلان تيم، وهذا على يمثل هاشما، وهذا عثمان يمثل أمية، وهذا عمر وسعيد بن زيد يمثلان عدى، وهذا عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص يمثلان زهرة، وهذا الزبير يمثل أسداً، وهذا أبو عبيدة يمثل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذى أصبح يوازى فى يثرب، حكومة الملأ القرشية فى مكة. (وقد لحظ ذلك بذكاء الأستاذ خليل عبدالكريم).

وتأسيسا على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مؤجلا حتى يأتى الله بأمره، لكن أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملأ القرشى، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على سادتها المترفين، أولئك المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن بالاعتماد على التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى ستمسك بأعنتها قبيلة النبى: قريش، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التى وضحت فى تحرك رحم النبى لأهله الهاشميين فى وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أى من بنى هاشم، ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصب الأمر كله بيد الطبقة التى سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقى منظومة قريش القبلية، ليظل حال التاريخ العربى والإسلامى بعد ذلك وحتى اليوم، إعمالا للمقدس واتباعا له، يظل واقفا على حافة الوضع الاجتماعى الاقتصادى المعروف بالإقطاع التجارى، ويبقى المأثور مصراً على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.

ويتضح ذلك جليا عندما نقرأ المراحل اللاحقة فى تطور أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها، حيث بدأت تفتح صدرها تماما للتجار، خاصة بعد فتح مكة، وحيث احتلت طبقتهم فى الإسلام مكانا، كان مكانهم الطبيعى فى الفرز التطورى، ولا ننسى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان هو من يحاول دوما جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته، وبعد هذه النقلات سنلحظ دون عناء كيف خففت السور اللاحقة والمتأخرة - التى تناغمت بصدقها مع متغيرات الواقع - من حدتها إزاء الأثرياء، وهدأ تنديدها بهم، مع خفوت متساوق فى الاهتمام بقضايا المستضعفين، بعد أن كان هؤلاء المستضعفون المقاتلون مادة الحركة ووقود حروبها، وتحول من بقى منهم حيا إلى طبقة كبار الملاك، وهو ما يكفى أن نذكر له مثلا واحداً فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدا وتقشفا وورعا، وكان أرق نظرائه حالا وأقلهم مالا.

> عـن علـى رضى الله عنـه .. «لقــد رأيتنى مع رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وإنى لأربط الحجـر على بطنى من الجـوع، وإن صدقتـى اليوم لتبلغ أربعين ألـف دينار»[١٦] .

ثم يمكننا أن نلحظ المـال نفسه الذى كان مـحل هجوم شرس وضار، وأُحل للمسلمين مصادرته بالغزو، وهو يتحول ليصبح بالإمكان بقاؤه وتناميه، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، ويبيت كسبا حـلالا، وتسعـة أعشـار الرزق فى التـجـارة، والمـال والبنون زينة الحـيـاة الدنيا. لقد كـانت خطوات التـاريخ فى طريقـهـا إلى إنضاج الطبـقـة التـجـارية ـ وليس الغـاؤها ـ فى سـبيل كـيـان سيـادى يسد الفراغ السياسى تحت لواء عقيدة عقدتها حتمية السنن الكونية.

وجولة سريعـة للعين فى كتبنا التـاريخيـة ستلحظ دون عناء يذكر كيف أضحت التجارة فى أحـــاديث النبى هى أطيب مكاسب المؤمـن[١٧]، وأن التـــاجـــر الأمين مع الكرام البـــررة يوم القيامة[١٨]، ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية، فقد طالهم الوعد جميعا، ثم لابد أن نلحظ أنه لم تفرض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة، أما أبو يوسف فيورد لنا حادثة لها فى سياقنا هذا دلالاتها الواضحة، حيث يقول:

> أن السعـر غلا فى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقـال الناس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن السعر قد غلا، فوظف وظيفة نقوم عليـهـا، فقال: إن الرخص والغلاء بيد الله، وليس لنا أن نجـوز أمــر الله وقضاءه[١٩] .

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تماما، بل ولم يعطهم النبى من أموال الفىء باعتبارهم فى كفالة غيرهم من الأحـرار[٢٠]، ثم نجد النبى بعد ذلك يهدى بنفسه أعداداً من العبيد لآخرين، كما فى أمثلة عديدة، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاعة (الشيماء) ولغيرها، ويتقبل الهدايا عبيداً أيضا. وهو ما سنجده فى مواضعه من هذا العمل.

---

(١٦) الحلبى: سيـرة الأمين المأمـون إنسان العيـون، دار المعرفـة، بيـروت، ١٩٨٨، مج ٢، ص ٤٧٣. ويشـرح الحلبى أن تلك كـانت صدقة العام الواحد فقط.

(١٧) الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٣، ص ٢٠١٢.

(١٨) الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد سماحة، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ط ١، ١٩٣٨، ص ٣٧.

(١٩) أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٤٩.

(٢٠) ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ص ٧٣.

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التى تتوازن بين النقائض، على كل المستويات: بين القبلية وبين الطبقية، بين العشائرية وبين الأممية، بين الوحدة الشاملة وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل فى شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبى الإسلام، وبين الوحدانية المطلقة للإله التى لا تقبل شراكة، ومن ثم كانت التراجعات التى اعترفت بمقدسات القرشيين والتى كانت تعد وثنيات، كالاعتراف بالكعبة، ثم فى فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعى، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسى له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم)، معبد يجتمع عنده جميع العربان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول فى المقام الأول، وسدنته الهاشميون آل البيت.

كذلك تم الوقوف وسطيا بين نقائض أخرى، وبين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنسابا، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودى، متمثلا فى سبايا تأتى من الحروب وانتصارات الدولة، ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تؤسلم جميع الناس تحت رايتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع موادعتها وعقد المحالفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة، مع ما فرضته ظروف أخرى متأخرة، فى غزوات النبى على أصحاب الأراضى الخصبة، وقيمة تلك الأراضى التى كان يمكن أن تبور تماما، مما أدى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تقرّهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطور بعد ذلك فى نظام الجزية.

ثم تطور آخر على ذات الخط بين النقائض، عندما صب الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتلأت خزائنها بالخيرات، ليأتى نداء جديد بأن من يعلن إسلامه معترفا بوحدانية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، على أن يدفع الضرائب للدولة فى نظامى الزكاة والصدقة، وهى مجموعة الخطوات التى اقتربت مرة وتباعدت مرة من القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام. وهى مجموعة التوازنات الوسطية التي تأرجحت مع المستجدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائض خلقت فجوات دائمة فى تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كفتاه إزاء الموقف الوسطى على الخط الفاصل بين توازنات النقائض، مما أعطى الفرصة دوما لأقدار السياسة، وبحرفية وسطاء الساسة المحترفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كفتى الميزان أثقالا مناسبة دوما.

صحيفة المعاقل

«لليهـــود دينهـــم وللمســـلمين دينهـــم»

[نص بصحيفة المعاقل]

بين بدر وأحد لم تتوقف سرايا المسلمين عن مداهمة طريق الإيلاف، وشن حملاتها التأديبية على القبائل، مع ظاهرة جديدة تمثلت فى شرع نظام الاغتيال، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسراتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذى رثى قتلى بدر شعراً. وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الظافرة من بدر الكبرى، كان الوحى يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك فى النص ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ (٦٠/ الأنفال)، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة، أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكى الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبى - صلى الله عليه وسلم - لرجاله: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه»، وهو ما تم تنفيذه بالفعل فى عدة رؤوس يهودية، وهو المنحى الذى جاءت مفاصله فى آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتنهى العمل بآيات من قبيل ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ (٦/ الكافرون)، وتلغى الصفح الجميل والصبر الأجمل، لتؤكد معنى جديداً هو ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (١٩/ آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى والعقدى، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذى كان سببه الوضع الخاص جداً باليهود، كأصحاب كتاب سماوى ودستور عقدى وأيديولوجيا تاريخية موثقة، وهو ما جعلهم المنكر الحضارى الحى لنبوة النبى العربى، مما كان يشكل خطراً دائما وحقيقيا على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية، وهو ما صب فى إعلان واضح يسفر عن الهدف، فيما جاء مرويا عن الزهرى عن عروة:

> نزل جبريل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (٥٨/ الأنفال)، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنا أخاف من بنى قينقاع، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة[٢١].

ومن ثم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضى عليها، وذلك فى الوقعة المعروفة بوقعة أحد، التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدت بالبيهقى إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «.. وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل»[٢٢].

وترنحت الدولة (الطالعة)، وكان لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودءوب لايكل ولا يهدأ، لإصلاح ماأفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع فى النيل من سلطان الدولة، ولما لم يكن ممكنا الخروج فى ذلك الظرف إلى قريش، والجروح لم تزل طازجة، ومعنويات المسلمين فى حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامى إلى اجتثاث الرؤوس التى أخذت ترتفع وتتطاول على السلطان المحمدى فى يثرب أو خارجها، ومن ثم تدحرجت رؤوس عدة، منها رأس (سلام بن أبى الحقيق) المعروف بأبى رافع، و(أبى عفك عمرو بن عوف)، و(عصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة)، وخالد بن سفيان سيد هذيل، وفاطمة بنت ربيعة زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها، ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية، إعلانا عن أن السيف المحمدى وإن كسرت منه الذؤابة فى أحد، فإنه مازال قويا مقتدراً بل وعنيفا، إعلانا عن

---

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج ٣، ص ٢١٦.

إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

بهزيمة أحد كان لابد من وقفة متأنية، تؤجل - مؤقتا - بعض القرارات، حتى يأتى الله بأمره، ويستعيد المسلمون - إبان ذلك التأجيل - قوتهم وتعافيهم المعنوى، كذلك دفعت الهزيمة فى أحد سيد يثرب ليفصح لرؤوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة، كى لا تتكرر مأساة أحد بهذا العنف، فهذا (أبو قتادة الأنصارى) تهزه مناظر أهله مذبوحين فى أحد، ومشهد الحمزة مبقوراً، فيشير بالتمثيل بجثث قتلى قريش فى أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - مفصحا برسالة تقول:

يا أبا قتادة:

«إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن طالت بك مدة، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن تبطر قريش، لأخبرتها بما لها عند الله»[٢٣].

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمعه وهو يقول فى طبقاته الكبرى: «إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما هاجر إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة.. فنزلت عليه: قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فوجه إلى الكعبة.. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى إلى بيت المقدس.. ونزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذه السنة بزكاة الفطر»[٢٤].

وهو ذات ما أكده ابن الأثير فى سرده لأحداث العام الثانى للهجرة، ولحظه ابن كثير الدمشقى، وهو يسرد أحداث ينسبها للعام الثانى للهجرة[٢٥]، فى قوله:

وفيها - أى عام ٢ هـ - حولت القبلة.. وفيها فرض صيام رمضان.. وفيها فرضت زكاة النصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل يثرب واليهود.. صانعوا المسلمين وأظهر الإسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود، وهم فى الباطن منافقون.. قال ابن جرير: وفيها كتب

---

(٢٣) الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٢٥.

(٢٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٣، ٥، ٨.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج ٢، ص ١١٥، ١١٦.

الرسول - صلى الله عليـــه وسلم - صحيفة المعاقل، وكانت معلقة بسيفه[٢٦].

إن حديث ابن كثير هنا يجسم أموراً كثيرة مختلف عليها بين كتاب السير والأخبار، فهناك من يشير إلى أن صحيفة المعاقل قد كتبت بين أهل يثرب جميعا وبين المسلمين، وأنها كتبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثانى للهجرة. وأهمية حديث المعاقل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سببته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير فى مبتدأ فصله مع الكثرة القائلة بكتابة المعاقل مبكراً وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعا قد عمها الإيمان، وبحيث يظهر النبى - صلى الله عليه وسلم - سيداً يملك كل مقومات السيادة من الوهلة الأولى، فخضع لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده، وقد ذهبنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبهنا إلى ضرورة إعادة النظر فى تزمين صحيفة المعاقل، الدكتور عبد الهادى عبد الرحمن[٢٧]، وكانت إعادة النظر مدعاة لنتيجة مفادها إن القول بعقد المعاقل عند الهجرة مباشرة، أمر يخالف معطيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل فى ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمهاجرة النبى ضعيفا متخفيا هاربا من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله فى يثرب، ولاجئا مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها، وهو ما يحيط الصورة - التى رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثارية لسيدهم المكى - بكثير من الشك وعدم القبول، حيث تناقض تلك الصورة الإخبارية بشدة بنود الصحيفة التعاقلية، التى وضعت أمر يثرب جميعا بيد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذات الوقت الذى تؤكد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهوداً أو وثنيين، وإن من دخل منهم فى حلف الدعوة كان فى الغالب من المنافقين أو الدسائس على المسلمين، ومن هنا رجع ابن كثير عما قال فى البداية ليؤخر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث تبدو النتائج متفقة مع مقدماتها من أحداث، فاختار زمنا تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

وللتحديد أو محاولة التدقيق فى الزمن الذى كتبت فيه المعاقل، نجد أن غزوة قينقاع لم يرد فيها - فى أى رواية إخبارية - أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمنابذة يهود

---

(٢٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٧.

(٢٧) عبدالهادى عبدالرحمن: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعاقل بعد غزوة بدر مباشرة.

قينقاع للنبى بنقض العهود، كما حدث فى وقائع أخرى تالية مع قبائل يهودية أخرى، وهو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كتبت بعد، ومن هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التى تمت بعد هزيمة المسلمين فى أحد.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المناوئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقض على القوة العسكرية الإسلامية التى تنامت وتضخمت منذ بدر الكبرى، وكان مقتل ذلك العدد من المسلمين فى أحد غير ذى تأثير حقيقى، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترتيق وإصلاح سريعين، ومن ثم نجد الحكاية الإخبارية تأتينا ببعض الروايات التى تؤكد أن حملة النبى على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة (بئر معونة)[٢٨]، ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمن، وبعد وقعة الرجيع التى وقتها الواقدى فى صفر سنة أربع للهجرة[٢٩]، ونعلم أيضا أن بنى النضير قد نابذوا النبى بنقض العهود والمواثيق فى تلك الغزوة[٣٠]، مما يشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير، وفى الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير، وهو ما يمكن الكشف عنه فى قراءة البيهقى:

> اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلا من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقى بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوا وآمنوا بك، آمنا بك، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب وترك بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم[٣١].

ويفهم من الحديث هنا أن يهوداً أرادت اختبار نبوة النبى بالحوار المعرفى والفقهى الدينى، لكن النبى رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية، وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهوداً تمت سوى صحيفة المعاقل، وهو الأمر الذى يعضد ما ذهبنا إليه فى توقيع المعاقل إبان محنة تطاول الرؤوس بعد هزيمة أحد، وما يبدو لنا أن المعاقل قد تمت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التى

---

(٢٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.
(٢٩) نفسه: ج ٤، ص ٦٤.
(٣٠) نفسه: ج ٤، ص ٧٧.
(٣١) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٧٩.

حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعا للسلطان النبوى، وتأمين الجبهة الداخلية، فى نفس الوقت الذى قدمت فيه دولة الإسلام تنازلا تراجعيا وضح فى النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»(٣٢). وإذا كان الإخباريون يصرون على ربط صحيفة المعاقل زمنيا بمجموعة أخرى من الإجراءات تمت فى ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربى.. إلخ، فمن المحتمل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمت ضمن مجموعة التراجعات التى أفرزتها أحد.

لقد كانت الحسابات التى سبقت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حسابا لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبى يحاول استمالة اليهود والتقرب منهم لتحييدهم على الأقل، ففرض على أتباعه صوم يوم الغفران اليهودى (يوم كيبور/ عيد الفصح)، وهو اليوم الأهم والأعظم فى تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين، بل واتجه النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أتباعه وجهة اليهود فى الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تمجد أنبياء بنى إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتمجد التوراة ككتاب سماوى صادق ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤/ المائدة) و﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ (٤٣ المائدة)، بل وتمجد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضلهم على العالمين.

ومع ذلك ظل اليهود يهوداً، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيداً، رغم كل الإشارات والتوضيحات التى كانت تصر على تأكيد أن محمداً من ذات النسل، فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة، وأن انتظار اليهود لمخلص نبوى مقبل يجد صداه فى النبى العربى الذى يحقق نبوءة التوراة، حتى جاءت وقعة (أحد) لتستدعى تحركا سريعا يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين المدينة داخليا، فتمت صحيفة المعاقل كما جاء خبرها السريع عند البيهقى، مع تحرك آخر على مفصل قريش يهدىء من عوارمها ويطمئنها، فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودى مع تقرير الصوم العربى الرمضانى، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله»(٣٣). ويؤكد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفى السنة

---

(٣٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥، ص ٦١.
(٣٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٨.

الثانية كانت وقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان فى السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة»[٣٤].

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضانى قد فرض فى شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت فى رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون، ومتى أهلوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مفطرين، وهى العادة مع كتب الأخبار التى تفصل تلك الأمور وتدقق بشأنها فى كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة فى غزوة (قريظة)، وما حدث بشأن الصيام الرمضانى فى فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضانى لو كان قد فرض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت فى شهر رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها فى سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث مما يعنى وجوب تأجيل فرض الصيام الرمضانى والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعاقل معا إلى الفترة التى افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث فى سياق واحد يناسب بعضه بعضا، وهو الفرض الذى يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وإعمالا لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التى تحدثت عن التوراة وهداها ونورها، وعن تفضيل الله لبنى إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان.. إلخ، كل ذلك أفرغ محتواه فى الصحيفة التى عقدت بين جميع أطراف القوى فى يثرب، والتى كانت أولا: نتيجة لتحول حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مواطنين على ذات الدرجة، وكانت ثانيا: محاولة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد بعد التهاوى المعنوى فى هزيمة أحد، لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مؤقتا، كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة - هذا إن كان فرضنا صادقا - فى رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعنى بالضرورة ضرب الرمز الدينى المكى، ورسالة موجزة برقية لأهل مكة أنفسهم تهدىء من روعهم إزاء سيد يثرب، أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سببا واضحا يعلل التحول عن أورشليم إلى مكة، سوى ما ردده الإخباريون مع الطبرى أن النبى: «كان يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله.. قد نرى تقلب وجهك فى السماء»[٣٥].

ثم جاء التحول إلى الصيام العربى ليلتقى مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يسمى يوم العروبة) فى وقت مبكر، ليعلن فى إشارات واضحة منحى التحول، أما أبرز الشواهد على أن

---

(٣٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٦/ معلومات النشر.

(٣٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ٤١٦.

صحيفة المعاقل قد عقدت فى ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها علقت بسيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ما لم يكن ممكنا زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنى لجميع سكان يثرب وللمنافقين، ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المؤسسية، ففرضت الضرائب (الزكاة)، أما أهم بنود الصحيفة التى كانت ترفرف على سيف النبى، فهى تلك التى قالت فى مفتتحها: «هذا كتاب من محمد النبى الأمى» وهو مايشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبى السيادية، فرغم أن المعاقل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن متكافئة، لأن صيغتها وأسلوبها وإيحاءاتها، ناهيك عن ذلك الاستهلال فى مفتتحها تشكل قراراً صادراً من سيد قوى فوق بقية الأطراف، فهى بمثابة كتاب أمان من النبى لسكان يثرب، إضافة إلى أن الصياغة لم تقل: (هذا كتاب من محمد بن عبد الله)، إنما فرضت صفة النبوة على جميع الموقعين أدناها، وهو الأمر الذى استثمر رغبة اليهود والمشركين اليثاربة فى الأمان بعد سل سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلاما مشروطا بسيادة المسلمين ونبيهم، وهو ما توضحه قراءة بقية بنود صحيفة المعاقل.

وضمن تلك البنود يأتى النص الذى يؤكد أن المعاقل قد تمت..

«.. بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. وإنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وإن بطانة اليهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله»[٣٦].

والمطالع لهذه البنود سيلمس فوراً أمراً شديد الأهمية، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادى يرفع عبئهم عن إخوانهم اليثاربة، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك، فالنص يؤكد «المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط»، ومن ثم

---

(٣٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلهم الأولى «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى»، أما البند الذى يؤكد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عقدت قبل بدر الكبرى، فهو تلك السلطة الواضحة فى إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى الخروج من المدينة لليهودى لا يتم إلا بإذن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأكثر بلاغة فى كل هذا، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليثربية فى معاقلها، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليثربية الأصيلة، بحيث اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعى، ليتحولوا من لاجئين إلى مواطنين، بل أفصح الأمر عما هو أشد بيانا، فغدا الأنصار تابعين لا مجيرين ومتبوعين.

وكانت النغمة العروبية الواضحة فى صيام رمضان وتقديس يوم العروبة، ثم العودة عن اغتراب القبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية، إشارة واضحة إلى بدء التخلى عن ممالأة يهود المدينة، والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد فى النهاية إلى أهل الله القرشيين، وأن القدس كله فى محل كعبتهم، وهى الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام لا يهدد أبداً مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دوما بالاقتصادية، وأن خط سير التاريخ يحث خطاه إلى نتائجه النهائية، وأن الحروب جميعا ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يمثلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم.

أما المعجزة القومية الكبرى التى قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل فى إعلان أن رب الأديان الكبرى المحيطة بالجزيرة، هو رب واحد، هو رب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمداً العربى، وأنه تكلم إليه باللغة العربية، ليسحب بذلك الامتياز الذى كان قاصراً حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمى بأنهم خير أمة أخرجت للناس.

الباب الأول

دية بنى عامر

الوقائع من أحد إلى الخندق

غــدر العربـان

«ما أنــا واللــه قتلــت خبيبـاً، لكــن أبـا ميســرة أخــا بنــى عبد الــدار أخــذ الحريــة فجعلها فى يدى ثـم طعنه» .

[معاوية بن أبى سفيان]

بينما كانت السرايا والغزوات تضيف باستمرار مزيداً من التراكم المادى والسلاح لدولة النبى اليثربية، فإنها كانت - من جانب آخر - تسهم باستمرار فى ضعضعة الحكومة المكية وسيرها نحو الانهيار، هذا إضافة إلى تعبئة القبائل المجاورة لمكة، والتى أبت - رعبا وخوفا وربما طمعا - إلى حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائعة مختارة كراهية فى قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتى سبق وخلعتها قريش وأقصتها عن مكة إقصاءً، ومن هنا وجدت خزاعة فى محمد وفى يثرب حليفا تحارب من خلاله قريشا، فلعبت دوراً تجسسيا عظيما على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد فى حسم أمور كثيرة لصالح الدولة اليثربية، ومع هذا وذاك، تمت عقود الموادعات بين يثرب وقبائل الساحل التى فضلت الخضوع ليثرب، رغبة فى مغانم قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وتجنبا لحرب يؤذنون بها من الله ورسوله.

وقد ترافقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة فى يثرب وسيادتها،

بضرب المنازع الأعظم داخل يثرب، اليهود، الشاهد الدينى القدسى الحى، صاحب دستور رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآنى، وهو ما كان من غير الممكن استمراره فى ظل دولة توحيدية موحدة تحكم بدستور واحد وتعبد إلها واحداً وتنتظم تحت إمرة قائد واحد، ومن ثم شكلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبة عظيمة للدولة الطالعة، ساعدت على اتساع سطوتها فى المحيط العربى، حتى جاءت وقعة أحد بضربة موجعة وغير متوقعة على جدول الحسابات، وهو الأمر الذى أدى إلى ترنح هيبتها فى نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك، ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذى طال الرؤوس من القبائل بكاف لإقناع العربان، بالكفاية القمعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التطاول على الدولة اليثربية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمون شعثهم فى خطوات متسارعة وحاسمة، بعقد المعاقل، وتكثيف السرايا المسلحة، للإعلان أن الدولة لم تزل قوية، وأنها وإن انكسرت فى أحد، فإن يراعها لم يزل بإمكانه أن يطول ويضرب ويؤدب لإخضاع القبائل، وبسرعة خرجت سرية أبى سلمة إلى بنى أسد فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة ـ بحسابات الواقدى ـ وبعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبى سلمة قد أبلت بعد، وكان الجرح الذى أصابه فى أحد بعضده لم يزل طازجا، وأمره النبى بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مضارب بنى أسد، وعند وصوله مضاربهم فزع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تاركين نعما كثيرة من الإبل والشياه، غنيمة للمسلمين، وأسر منهم ثلاثة.

ثم يحكى لنا (عمرو بن أبى سلمة) عن أبيه، أنه «لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثة بقين من جمادى الأولى، فاعتدّت أمى حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل بها فى ليال بقين من شوال، فكانت أمى تقول: ما بأس من النكاح فى شوال والدخول فيه»[1]، والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديدة الجمال قوية الشخصية ذربة اللسان فصيحته. ثم تأتى سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبى هريرة قال:

> بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت.. فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم.. حتى لحقوهم.. وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٤.

ألا نقتل رجلا منكم، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر، اللهم اخبر عنا رسولك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما فى سبعة نفر بالنبل، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذى معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً.. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه..»[٢].

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلا عن الواقدى، لكن ابن كثير لحظ اختلافا بين رواية الواقدى وبين رواية ابن إسحاق، فقال:

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف..

قدم على رسول الله بعد أحد رهط من عضل والقارة، وقالوا: يارسول الله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معهم نفراً ستة من أصحابه.. فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز.. غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم، فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً.. ثم قاتل حتى قتل، وقتل صاحباه.. أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران، وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.. وذكروا

(٢) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانا وتسليما[3].

والتضارب هنا واضح جلى، فى شأن الغرض الذى خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة، فهناك قول: إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيما يبدو ما لم يرتح له الطبرى وابن الأثير وابن إسحاق، ربما لوجوب أن تأتى الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذى كثيرا ما ذكرت عنه صحف السير أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها، ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كمينا محبوكا، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلى، بغرض النيل من هيبة الدولة التى اهتزت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكرنا أن العربان لا تترك ثأرها، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها (خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلى)، وهو ما يبرر الحدث ويفسره، فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لتقتل منهم أربعة، وتأسر اثنين تسلمهما لقريش هما خبيب بن عدى وزيد ابن الدثنة.

ويخبرنا ابن هشام أن حجيراً قد ابتاع خبيبا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيداً، وتم قتلهما ثأراً، ويقول ابن هشام: إنهم لم يعجلوا فى قتلهما تعظيماً لحرمة الأشهر الحرم، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذى وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيداً عند ثنية التنعيم، وكان قاتله هو معاوية بن أبى سفيان، الذى حاول أن يبرىء نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يقسم «والله ما أنا قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أخا بنى عبد الدار أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم طعنه»[4].

لقد استهانت هذيل بالدولة اليثربية، وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبى حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، معبراً عما آل إليه الأمر فى يثرب يومذاك ليقول:

إن سرك الغدر صرف لا مزاج له
فأت الرجيع فسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم
فالكلب والقرد والإنسان مثلان

---

(3) نفسه: ص ٦٦ : ٦٨. انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٧.
(4) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٢٦.

لـو ينطـق التيـس يومـا قـام يخطبهم

وكـان ذا شـرف فيهـم وشـان[٥]

وكـالمعتـاد فى مـثل تلك الأحـوال، كـان لابد من شىء يبلسم الجـراح، ولو بالجنوح إلى الخيـال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسى، بأسطورة تأتينا فى شكل خبر يتم تناقله بين كتاب السيرة عن عاصم بن ثابت، الذى ثبت للهذليين حتى قتل رافضا أن يعطى بيديه، وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولديها فى أحد، لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحـفه الخمـر، لكن هذيلا لا تستطيع أن تأتى برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنوداً تحميه من هذيل، فى شكل زنابير تجمعت على الدم المراق، فلم يقدروا منه على شىء[٦]، ولا يرضى ابن الأثير بحماية الزنابير وينتهى الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول: إن الوادى قد ابتلعه، لأنه كان قد عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك، فمنعه الله فى مماته كما منع فى حياته[٧].

وهو الأمر الذى حدث له نموذج شبيه مع الأسير الثانى خبيب، فهذه ماوية مولاة حجير تحكى بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حبس خبيب بمكة فى بيتى، فطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما فى الأرض يومئذ حبة عنب»، ليردف البيهقى الذى آل على نفسه جمع العجائب، راوياً عن أمية الضمرى الذى حكى لولده وعن ولده الذى حكى لحفيده، أنه تسلل ليلا لإنقاذ خبيب عن الصلب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقته، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا ثم التفت، فكأنما ابتلعته الأرض، فلم يذكر لخبيب رمة حتى الساعة»[٨]. هذا رغم أن رواية ابن كثير توضح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمرى ذاته، الذى أكد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى تنبه له الناس، فأسرع برميه على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلى»[٩].

ثم يأتى يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التى تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفو بعضها بعضاً، عندما

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(٦) نفسه: ص ٦٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٨.

(٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٣١.

(٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

تداعى المسلمون فى أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الغليل، فيما رواه أنس بن مالك، ويشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مدداً على عدو لهم، معلنين اتباعهم له، فيمدهم النبى بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبى حرام بن ملحان الأنصارى، إلى سيد بنى عامر (عامر بن الطفيل)، الذى ما أن يطالع الرسالة حتى يعمل سيفه وسيوف سليم في الأربعين مسلما عند بئر معونة، ثم يبقى على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمرى، فقط ليقول له متحديا:

> ارجع إلى صاحبك فحدثه، فخرج عمرو
>
> إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره.

وحديث بئر معونة بدوره - فى كتبنا الإخبارية - يحمل بعض التضارب، فرغم أن البيهقى بحديث أنس بن مالك قد قال: إن سليم استمدت النبى المدد على عدو لها[10]، فإن ابن كثير يروى عن ذات الراوى أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

> بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين رجلا لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقتلوهم، فدعا النبى عليهم شهراً فى صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت[11].

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

> قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك.. فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق، ليموت فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين.. فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر

---

(١٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٤٢، ٣٤٨.

(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.

فأبوا.. فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك، حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم حتى قتلوا عن آخرهم.. وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى.. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم(١٢).

والرواية هنا تلتقى إلى حد كبير برواية عضل والقارة فى أسبابها، وهو الأمر الذى لا يمكن قبوله، حيث يقع المسلمون فى الخطأ ذاته مرتين، ومن غير المعقول أيضا تصور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرسل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التى أخذها الرعب من النبى كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها، كما أنه من غير المستساغ أبداً أن يرسل النبى سبعين رجلا ليعلموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفى شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلا من أن يفقد من رجاله عدداً لم يفقده فى معاركه الكبرى، ثم لا يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بنى عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بنى عامر أيضا هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامرى قبائل أخرى هى قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلى إلا إذا تصورنا مؤامرة قد عقدتها سليم مع بنى عامر، فما كان ممكنا أن يستجيب النبى لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكنا أن يستجيب لبنى عامر، خاصة إذا كان الداعى عامرياً فى كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

كما يجب ألا تذهب مع القول أنه دعاهم ليعلموا العامريين الإسلام فكان يكفى فرد أو اثنان كما قلنا، لذلك يجب قبول الرواية التى تقول أن ملاعب الأسنة قد استمدهم على عدو له، وللتشجيع ـ ربما ـ تم تحديد هذا العدو بعدوة النبى سليم تحديداً، لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتمرير.

ومما يعضد ذلك التفسير المفترض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذى تتحدث عنه كتب السير والأخبار، والذى تم عقده بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين بنى عامر، حيث يستمر ابن كثير فى سرد قصة يوم بئر معونة ليقول: إن عمرو بن أمية الضمرى، الذى أطلقه عامر بن الطفيل ليبلغ رسالته المتحدية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا فى ظل هو فيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما،

---

(١٢) نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر.. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره الخبر، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقد قتلت قتيلين لأدينهما»[١٣].

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجى المعجز، فيقول الإخباريون: «لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمرى، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، قال: لقد رأيته بعدما قتل، رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض»[١٤].

وهكذا تروى المعجزة على لسان من لقبته كتبنا التراثية بعدو الله (عامر بن الطفيل)، ومع ذلك لم يؤمن الرجل رغم ما رأى؟! وبينما (البيهقى) يزيدنا إعجازاً بقوله: إن النبى دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك فى عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يورد سببا آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذى أجار مسلمى بئر معونة قد رأى فى قتل ابن الطفيل لهم تعديا على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت فدمى لعمى»[١٥].

ومع يقظة سليم وتحفز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيرسل النبى يستدعى عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم بن حريش، ليوجههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غرة فاقتلاه». ويحكى ابن الضمرى فيقول: فأتينا مكة فطفنا أسبوعا وصلينا ركعتين فلما خرجت لقينى معاوية بن أبى سفيان فعرفنى[١٦]، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية.. فقاموا فى طلبى وطلب صاحبى، فقلت له النجاء، هذا والله الذى كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصعدنا فى الجبل، فدخلنا فى غار فبتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هرباً، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار..»[١٧].

ويتمكن ابن الضمرى من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غاراً يبيت فيه ويحكى: «فبينما أنا فيه إذ دخل علىّ رجل من بنى الديل بن بكر، أعور، طويل، يسوق غنما له،

---

(١٣) نفسه: ص ٧٥.

(١٤) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٢.

(١٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٢.

(١٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

فقال: من الرجل؟ فقلت رجل من بنى بكر، قال: وأنا من بنى بكر.. ثم اضطجع معى فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم مادمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: «سوف نعلم، فلم يلبث الأعرابى أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحدٌ أحداً، قمت إليه فجعلت سية قوسى فى عينه الصحيحة ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه»[18]. ويتابع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت فى الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - .. وقد ربطت إبهامه بوتر قوسى، فلقد رأيت النبى يضحك، ثم دعا لى بخير»[19].

ومع فشل بعثة ابن الضمرى لقتل سيد مكة، كان لابد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التى باتت ساهرة الأجفان تتوقع الثأر الآتى لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة بقيادة النبى نفسه، لكن لتهرب سليم جميعا ويتركوا منازلهم وأنعامهم فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودوا بها إلى يثرب فيما عرف بغزوة (قرقرة الكدر)[20].

وكان من غير الممكن الاستمرار طويلا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تعيد للدولة هيبتها، وتعيد العربان إلى سابق انكماشهم، ومن ثم كان لابد من تحديد هدف كبير، ولإيجاد سبب مناسب يكون مدخلا إلى ضربة كبرى تعيد إلى المسلمين ثقتهم فى أنفسهم، وتلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا.

---

(١٨) الموضع نفسه.
(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٣.
(٢٠) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٨٠.

غزوة النضير

«اخرجوا من بلدى فلا تساكنوننى بها.. وقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه».

[رسالة النبى إلى بنى النضير]

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والملتبس بكتبنا الإخبارية، والذى عُقد بين النبى صلى الله عليه وسلم- وبين بنى عامر، ورغم المكيدة التى راح ضحيتها ما بين الخمسين السبعين من خيار المسلمين فى بئر معونة، والتى دبرت بشكل غير واضح فى مأثورنا، وقاد مذبحة الزعيم العامرى (عامر بن الطفيل)، فإن أمية الضمرى عندما قتل عامريين فى طريق عودته، وجد النبي غير راض عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية فى العامريين القتيلين، أن بينهما عهداً، وهو العهد الذى لم يعلم به الصحابة، وهو ما يوضحه عدم علم ابن الضمرى الذى قتل العامريين.

والأكثر التباسا أن يقول الطبرى: «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد فابعث بديتهما»[21].

الأمر هنا غير مقبول إطلاقا، فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمعاونة قبائل سليم

٢١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١.

سبعين مسلما، ثم يرسل للنبى طالبا الدية لعامريين قتلهما الضمرى ثأراً، ويصبح موقف النبى- صلى الله عليه وسلم- غير مفهوم فى إصراره ليس على الانتقام وإنما فى أداء الدية لبنى عامر!! كما حدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان انتقاما لسبعة فقط من رجاله فى مؤامرة مثيلة، وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح فى الإصرار على دفع الدية للمعتدى، كان إيجاداً لسبب لما هو أعظم وأجل، ألا وهو إجلاء بنى النضير، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب، وخاصة أن النضير كانوا حلفاء الأوس، وكان المنافقون من الأوس كثر، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد. خاصة أن كتب الأخبار التى أفاضت فى أمر دية بنى عامر، قد توقفت تماما عن ذكرها بعد غزوة النضير، حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلاً أم لا؟ كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بنى عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير، لتطهير يثرب، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء، ثم- من جانب آخر- تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تعوضهم عن هزيمة أحد.

ويتضح دور دية بنى عامر والإصرار عليه فيما أدت إليه من نتائج باهرة، توضحها رواية الطبرى عن النبى- صلى الله عليه وسلم- عندما ذهب إلى بنى النضير، يستعين بهم فى أداء دية العامريين، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالف فى صحيفة المعاقل، فتقول الرواية:

> فانطلق رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى قباء، ثم مال إلى بنى النضير مستعينا بهم فى ديتهما، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير،.. فلما أتاهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يستعينهم فى دية ذلك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه[٢٢].

إن أى قارىء كان لابد أن يتوقع من بنى النضير تسويفا أو مماطلة أو رفضا، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدروا الأمر تقديراً عميقا، فمازال خروج يهود قينقاع المهين ماثلا فى الأذهان، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من السلام لا يرجون غيره، مع مسلسل الاغتيالات الذى نال رجالهم المقدمين، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا مقتدرين ماليا على أداء مثل تلك الديات بعدما حصلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى، ومن ثم كانت الحكمة تقتضى إجابة مثالية واضحة، لا تعطى أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمض عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، رغم ما فى ذلك من نكاية بعهدهم مع بنى عامر وحلفهم معهم، وهو ما يعلمنا به ابن إسحاق، الذى أكد أن النضير

---

(٢٢) الموضع نفسه.

مثلما كانت قبل الهجرة على حلف تآخٍ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بنى عامر[٢٣] ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكوا حلفهم مع العامريين.

ويتابع الطبرى روايته فيقول: إن يهود النضير عندما أجابوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما طلب:

> قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انتهوا إليه.. فقالوا: يارسول الله، انتظرناك ومضيت، فقال: يهود همت بقتلى وأخبرنيه الله عز وجل[٢٤].

أما كيف همت نضير بقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبى وحده بتلك المؤامرة، فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائداً إلى المدينة»[٢٥]، وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعداً، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه»[٢٦].

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء الصادق بخيانة بنى نضير الواضحة، وهو الجلاء عن يثرب، وزيادة فى النكاية بهم أرسل النبى لهم واحداً من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنذر وتقول بلا لبس:

> اخرجوا من بلدى فلا تساكنوننى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئى بعد ذلك، ضربت عنقه[٢٧].

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هى، لكن ها هى الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مغادرتها فوراً وخلال أيام

---

(٢٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.
(٢٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥١، ٥٥٢.
(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٦.
(٢٦) الموضع نفسه.
(٢٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.

عشرة، أو يكونوا فى خسر، تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقى: أن النضير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسى يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يعد رسالة أخرى من النبى لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعقدها قائلة لابن مسلمة: «يامحمد؛ ماكنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب»[٢٨]، أو بنص الطبرى «تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود»[٢٩].

وهنا يعلمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل لهم يقول: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان»، ومن ثم كانت إجابة زعيم النضير، الذى لقبته العرب سيد الحاضر والبادى، حيى بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»[٣٠].

وهو أيضا ما أكده ابن كثير وهو يروى «فبعث لهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حيى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود»[٣١].

وهنا تسترسل آيات الوحى تنذر وتتوعد وتقول:

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ (١١، ١٢/ الحشر).

وكان الإنذار واضحا لا يحمل أى لبس، وهو ما كان كفيلا بتراجع المنافقين وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنضير أى تحرك من جانب الأوس، ولا من جانب ابن سلول وأشياعه، أما قريظة فقد فهمت الرسالة، ومن ثم التزمت صحيفة المعاقل وهو ما يقوله ابن سعد فى تقريره:

---

(٢٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٦٠.
(٢٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٤١.
(٣١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم[٣٢].

أما الطبرى فقد أفصح عن موقف قريظة فى إعلان زعيمها كعب بن أسد:

لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حى[٣٣].

ويحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حيى بن أخطب: «يا حيى اقبل هذا الذى قال محمد، وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: وما هو شر منه؟ قال: أخذ الأموال، وسبى الذرية، وقتل المقاتلة، فأبى حيى، وأرسل حيى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنا لا نريم دارنا فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكبر المسلمون معه وقال: حاربت يهود» ؟![٣٤].

ويقول ابن كثير أن النضير لما «نابذوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.. فحاصرهم ست ليال..»[٣٥]، لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبى بهدم مساكنهم المنتشرة حول حصونهم، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

يامحمد؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال تقطيع النخل وتحريقها؟![٣٦]

ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟[٣٧].

وقال الحلبى فى سيرته:

لما قطعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل. وعند ذلك نادوه.. يا أبا القاسم.. ما هذا الفساد؟.. يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض؟ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون؟![٣٨].

---

(٣٢) الموضع نفسه.
(٣٣) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٣.
(٣٤) الموضع نفسه.
(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.
(٣٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٢.
(٣٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٨٢.
(٣٨) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤.

قال السهيلى فى شروحه:

فوقع فى نفوس المسلمين شىء من هذا الكلام[٣٩].

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادىء توجه إليها الانتقادات والملامات، أو أفكار تعاب، فالمعركة يجب أن تحسم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التى قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم، وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبى وصحبه، يؤكد ألا ملامة فى قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآى الكريم ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين﴾ (٥/ الحشر).

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوما، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»[٤٠]. ولهم ما حملت الإبل، ووافق النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - لكن حتى لا تحمل الإبل متاعا، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيراً واحداً يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفى ذلك يقول الحلبى «كان نخل بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، **أعطاه الله تعالى إياه**.. وأكثر الروايات، أن أموال بنى النضير أى مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، حق لرسول الله خاصة له.. حبساً لنوائبه، وكان ينفق على أهله منها، وكانت صدقاته منها»[٤١]. وفى الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن أموال بنى النضير كانت مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالصة»[٤٢]. وهو ما جاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبذلوا فى سبيله ولم يحاربوا من أجله، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى النضير، لذلك فهو من حق النبى وحده، حين تقول الآيات ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ (٦/ الحشر)، أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تؤكد الآيات ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير﴾ (٦/ الحشر).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مهانة، يقودها حُيى بن أخطب الذى عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقبته سيد الحاضر والبادى، واتخذ المرتحلون طريق الشمال، لكن لينزل

---

(٣٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٤٠) نفسه: ص ٥٥٣.

(٤١) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٧، ٥٦٨.

(٤٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الحشر، ومسلم فى ٣٢ من كتاب المغازى ١٥، باب حكم الفىء، الحديث ٤.

بعض سادة النضير على يهود خيبر مثل سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب مع جمهور من يهود النضير، بينما يستمر باقى الركب يقطع الفيافى باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك فى فلسطين.

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيافى الجزيرة ويسرى مع الرياح يسمع مضارب القبائل فى كل مكان، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

﴿سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ (١:٤/ الحشر).

تأديب العربان

«فأبلــغ أبا سـفيان عنــى رســـالة
فإنــك مــن غــر الرجــال الصـعالك» .

[حسان بن ثابت]

كان خروج النضير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المزرى، وانهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التى كانت فى نظر العرب معاقل كبرى، عاملا عظيم الأثر فى بث الرعب فى قلوب العربان الذين لا يملكون حصونا ولا صياصى. ورجعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين، فكانت حكاية العربان الراجفة المزلزلة، عن تلك القبيلة التى استقرت فى يثرب قرونا، وكونت لنفسها بين العرب جليل المكانة، ليطيح بها السيف المحمدى خارج حدود جزيرة العرب جميعا، وكان طبيعيا أن ترجف هذيل وتسفى رياح الحدث بأعصاب رجالها وتشتت أمنهم، فثأر أصحاب الرجيع لم يزل قائما، وكان تأديب فخذها اللحيانى أمراً آتياً لا محالة، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعت درس أصحاب (بئر معونة)، الذين هربوا ما أن حذروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفروا فراراً غير كريم، ومن ثم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار، بينما كان النبى يلج برجاله عليهم، لكن ليسلك طريقا غير الطريق المضروب لدار لحيان، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة، فسلك برجاله طريقا طويلا وعثا وعراً نحو الشام، حتى يرى العرب أنه يريد أمراً بعيداً، لكن ليلتف بجيشه التفافة كبرى لم تغب عن عيون لحيان المرعوبة، فتركت له

الديار ليصلها فيجدها فراغا، وأصحابها قد صعدوا رؤوس الجبال وتمنعوا بوعورة بيئتهم، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم فى مواضع الأمان، وهنا اتخذ القائد خطا آخر ليستدير على مواضعهم المنيعة من طريق عسفان، ذلك الطريق شديد الوعورة قرب مكة، مما كبد النبى وجيشه مشقة ووعثاء شديدتين. لكن مكة ظنته قادما إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مواجهته تحتمل هزيمة يقينية، مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبده جيش المسلمين من مشاق، مع الانسحاب الهادىء والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده، بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أى مغنم وبدون تحقيق أى هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما ردده النبى العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشىء:

أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر فى الأهل والمال[٤٣].

ولم تنقض أيام بيثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التى كانت حليفا للنضير، والتى وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة، ومن ثم كان من الضرورى إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هى الغزوة المعروفة (بذات الرقاع)، التى أراد بها النبى بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان، لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعداداً عسكريا متميزاً لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ويروا أمامهم جيشا مستعداً متجهزاً. ليروى لنا الطبرى ما حدث فى قوله: «الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضا، حتى صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين»[٤٤].

ومع الحملات الفاشلة على التوالى، كان لابد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففى غزوة ذات الرقاع، يروى لنا الإمام النويرى رواية عجيبة تقول «وفى هذه الغزوة جاءته - أى إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه وقال: اخسأ عدو الله، أنا رسول الله، ثم قال - صلى الله عليه وسلم -: شأنك بابنك، لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه، فكان ذلك»[٤٥].

---

(٤٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٩٨.

(٤٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٥٦.

(٤٥) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧٦.

وفى تلك الغزوة التى لم تحقق شيئا، نجد حديثا آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات، حيث لا ملائكة، ولا دور عسكرى يقوم به جبريل، فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل، فنفدت ميرتهم من الطعام، فعثروا على ثلاث بيضات نعام، فقال النبى للصحابى جابر: «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات، قال جابر: فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة، فجعلنا نطلب خبزا فما نجد، فجعل النبى وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز، حتى انتهى كل إلى حاجته، أى إلى الشبع، والبيض فى القصعة كما هو»[٤٦].

ويبدو أن تلك الغزوة التى خاف فيها النبى والمسلمون القتال، حتى صلوا صلاة الخوف، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات، لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء، وهى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية، فطرد الشيطان من الأجساد، وإطعام الجمع الغفير فى القفر بالقليل من الطعام، معجزات معلومة للمسيح، فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية، كما أطعم جمعا غفيراً برغيف وسمكتين بعد أن باركها، وبقيت فضلات تملأ أجولة، ثم تأتى هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية، يتحول فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى قدرة التحادث مع الحيوانات، وهو ما ورد فى قصة البعير الذى جاء وحدث النبى بشكواه فأنصفه[٤٧].

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة، حيث كان أبوسفيان قد تنادى بالمسلمين المختبئين فوق الصخرة فى غزوة أحد قائلا: يوما بيوم بدر، وإن بدراً موعدنا العام المقبل، وقد حان موعد اللقاء المضروب، بمرور عام كامل على وقعة أحد.

ويحكى لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزله، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبى بن سلول.. فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان[٤٨]، لكن أبا سفيان لم يأت لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مستعدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مسلحين بالعتاد وبالتجارة، متجهزين لكلا الأمرين، ولما كانت بدر سوقا للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمرى إلى النبى، وكان قد كتب عهد موادعة مع النبى عندما غزاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة ودان، ليسأل النبى - صلى الله عليه وسلم -:

يامحمد؛ أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟

---

(٤٦) نفسه: ص ٥٧٧.

(٤٧) نفسه: ص ٥٧٨.

(٤٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٨.

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر فى حمى بنى ضمرة، لا يريدون عليه حربا، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجارى، لكن ليجيبه النبى بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

لكن ليجيبه الرجل من فوره:

لا والله يامحمد، مالنا بذلك من حاجة!![49].

ويخبرنا الواقدى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج إلى بدر الآخرة فى ألف وخمسمائة من الجند المسلحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم وهى ثمانية أيام، والسوق قائمة، والمسلمون يتاجرون وهم يحملون السلاح، فكان لا ينازعهم فى السوق منازع، فربحوا عن الدرهم درهمين[50] ليعقب الوحى الكريم على الحدث بقوله:

﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (١٧٤/آل عمران).

وهكذا أسفر أمر بدر الآخرة عن إعلان لجميع العربان بجبن أهل الله المكيين عن الخروج لملاقاة جند الله اليثربيين، جبنت قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعراب، وزيادة فى تمريغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية ـ يرددها العربان ـ لأبى سفيان، تعيره هو وقريش وتقول:

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد	لميعاده صدقا وما كان وافيا
فاقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	عمرا أبا جهل تركناه ثاويا

أما حسان بن ثابت الذى يجبن عند الحرب، ويرسل لسانه سليطا عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة ... فإنك من غر الرجال الصعالك[51]

وهو الأمر الذى آذى قريشا، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبى سفيان لائما يقول: «قد والله

---

(٤٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٩.

(٥٠) نفسه: ص ٩١، انظر أيضاً الحلبى: السيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٠.

(٥١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٤٩.

نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف»[٥٢].

هذا ما كان عليه حال قريش، أما حال يثرب فلم يكن مرضيا لأهلها، فالحملات تفشل، والعربان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تعلن دوما عن حجم القوة الإسلامية، وهنا يحكى لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبى أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيفزع قيصر الروم فزعا شديداً، وكان الخبر هاما، فليس هناك رسالة للعربان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته.

وإعمالا للخبر، «ندب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس، فخرجوا فى ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بنى عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بساحتهم، فلم يجد فيها أحداً، فأقام فيها أياما، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد بن مسلمة رجلا منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: هربوا أمس»[٥٣].

هكذا وصلت أخبار الجيش المحمدى، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث فى باطن الجزيرة، لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم، وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبى بعد عودته إلى يثرب، فهى أن «أرسل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب»[٥٤].

وفى طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبى أن يمر بمضارب فزارة وهو فى استعداده العسكرى هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزارى سيد فزارة، سوى موادعة سيد يثرب، وكانت موادعة عيينة مكسبا لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتى من المحاربين عند الحاجة، ومن هنا منحه النبى عهداً يرعى بموجبه سوائمه فى تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجدبت أراضى عيينة، ومر المسلمون بسلام عائدين إلى المدينة[٥٥]. ولم تمض أسابيع حتى كان عيينه يعدو على سوائم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقتل رعاته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

هذا بينما كانت قريش فى أمر آخر، تحسب حساباتها، وتراجع أمر تجارتها، وما شاع بين العربان عن جبنها.

---

(٥٢) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٥٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٣، انظر أيضاً البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

(٥٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(٥٥) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٤، انظر أيضاً الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.

غـــزوة الخـــندق

«كـــان مـحـمـد يعدنـــا أن نـــأكل كنـــوز كســـرى وقيصـــر، وأحـدنا اليـوم لايأمـن على نفســه أن يذهـب إلى الغائـط».

[معتب بن قشير الأنصارى]

خطوات سريعة، تلك التى اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجل تطهير المدينة وخلاصها للمسلمين، تم بها تصفية كثير من المعارضين من المنافقين والمشركين واليهود، وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعاقل - فيما ذهبنا إليه من اجتهاد افتراضى - لكن النبى كان يعلم يقينا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخى، وسلسلة من النبوات قفت بعضها بعضا، يعنى وجود منكر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفى عقر دار دولته الصغيرة، ومن ثم كانت تلك الخطوات المتسارعة لتطهير يثرب، بطرد بنى النضير، وسيدهم حيى بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذى ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليدرك ثأره من محمد.

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبى، قد أرهقت قريشا وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التى ألقت نتائجها موادعات وتحالفات للقبائل الضاربة على الطريق

التجارى، مع محمد ورجاله، مما قطع إيلافهم مع قريش، ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقاة محمد على ماء بدر فى بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشى، كان صاحب الموعد التهديدى فى أحد، ومن ثم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة فى يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا أسفرت دية بنى عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضا أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها المتحمسين فى الدين، المعظمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمداً قد خرق تلك التحريمات بمجازاته عليه الحرب، ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشاوس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وتروا فى زعامتهم المغدورة، ولم ينس الغطفانيون من بنى فزارة، مقتلة عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التى مزقها زيد بن حارثة فى غزوة مفاجئة أخذتهم على غرة. لكن غطفان لم تكن ذات مصلحة مباشرة مادية فى تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك، فقد تعاقدوا مع الطماع الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزارى على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خيبر لمدة عام كامل، فوافق من فوره[٥٦].

وتحرك الجيش العظيم، الذى يربو على عشرة آلاف من المقاتلين الأشداء، بين فيافى الحجاز ميمما شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش، لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية، وهو الأمر الذى بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرار من المحاربين.. ووقع فى أيدى المسلمين!!

ويوجز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب فى قوله:

> كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس.. كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من النضير ونفر من بنى وائل، هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ

---

(٥٦) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج ١، ص ٣٤٣.

صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى فزارة، والحارث بن عوف.. فى بنى مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع(٥٧).

ويستكمل الطبرى:

فلما سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضرب الخندق حول المدينة.. وكان الذى أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالخندق سلمان الفارسى، وقال: يارسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا(٥٨).

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلا، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسى واستحسنه، ووجد فيه خلاصا مفاجئا، وفكرة لماعة لإيقاف الهدير الآتى؛ ومن ثم كانت مكافأة صاحب الفكرة المنفذة فى قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -: «سلمان منا آل البيت»، حيث جاء الخندق ليكون إنقاذا حقيقيا لموقف ميئوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبى بن سلول، التى كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله، ومن ثم كان الخندق إنقاذاً للموقف على عدة مستويات:

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تنهى دولة الرسول فى يثرب وتسقطها، اعتمادا على حشده لقوى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث فى البرد القارس، وهو ما كان كفيلا بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المتحالفين، وبذلك أفقد الخندق المهاجمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددى.

ثانيا: كان الخندق تأمينا عسكريا لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان

---

(٥٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٥٨) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

لمن هم فى داخل يثرب، لديهم الغذاء والميرة، بينما يترك المهاجمين فى العراء مع ما جمعوا من ميرة - مهما كان حجمها - فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثا : أن الخندق قدم حلا مثاليا لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبدالهادى عبدالرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذى جعل من لم يسلموا بعد، والمنافقين فى محنة كبرى، ففى العراء يمكن للمنافقين ألا يحاربوا، بل أن يجدوا فرصة وغرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل، أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعنى أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقى، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعنى أيضا أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغبا أم غير راغب فى جيش الدفاع عن بلده، وسواء، كان مسلما أم لا. لقد حول الخندق أمر المدينة إلى وطن، وأجج الشعور الوطنى، فلكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يدافع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزوا لوطن ودفاعا وطنيا، ومن ثم سيحارب الرجال والبيوت وسيحارب الشجر والحجر، وستحارب النساء بل وربما الأطفال، سيحارب المشرك والمنافق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحول المدينة جميعا إلى رجل واحد، وحول معادلة الثلاثة آلاف جندى إزاء العشرة آلاف إلى معادلة أخرى، إلى شعب يدافع عن وطنه ضد غزاة، شعب تكتل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائمها، إزاء جيش وإن كان عظيما فهو يفترش العراء، بعيداً عن دياره، يأكل ميرته لتنقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضا بتضارب المصالح بينهم، إنه الأمر الذى لا محالة يستدعى الآن وبقوة نصيحة عبد الله بن أبى بن سلول وهو يقول للنبى فى أحد:

> يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا(٥٩).

وهكذا؛ ما إن بلغ سيد المدينة - صلى الله عليه وسلم - أمر مسير يهود بين العرب لتحزيبهم حتى ضرب الخندق الفارسى، لأول مرة فى جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبى، الرسول،

---

(٥٩) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٩.

القائد، فى مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجاً بين رجاله، يحمل أتربة الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفا بكتف ويداً بيد.

ولم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبى، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأتربة، وهو ما قررته كتبنا الإخبارية وهى تمر على الخبر سريعة دون توقف، فى برقية موجزة مقتضبة تقول: «واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة، ومساحى وكرازين ومكاتل»(٦٠).

ونستمع هنيهة للصحابى البراء وهو يروى نتفا من أيام حفر الخندق فيقول:

> لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عنى التراب جلد بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:
>
> اللهم لولا أنت ما اهتدينا
> ولا تصدقنا، ولا صلينا
> فأنزلن سكينة علينا
> وثبت الأقدام إن لاقينا
> إن الألى قد بغوا علينا
> وإن أرادوا فتنة أبينا
>
> ثم يمد صوته بآخرها .. أبينا، أبينا»(٦١).

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

> ولما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومة، بين الجرف وذى غابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذى نقمى إلى جانب أحد، وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم .. حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا:

---

(٦٠) الحلبى: سيرة .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٣٢.
(٦١) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٨.

والله؛ إن هذه لمكيدة

ما كانت لتكيدها العرب[٦٢].

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكرى جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع فى أيديها، ومن ثم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستفز فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلا فيما كتب:

باسمك اللهم؛

فإنى أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة بقوله - صلى الله عليه وسلم -:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتانى كتابك، وقديما غرك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا؟

فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أُذكِّرك ذلك ياسفيه بنى غالب[٦٣].

معجزات الخندق:

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هى أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التى تمكنت

(٦٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، ٢٦٣.

(٦٣) الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٥٧.

يثرب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مقاتل يحاصرون مدينتهم، وليس هناك خبر عن إمداد سماوي، ولم يأت جبريل وجنده، ومن ثم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عبر ووعود، وهي التفاصيل التي يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجي والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التي تقول:

حُدثت عن سلمان الفارسي: أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ صخرة، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان عليَّ، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قلت:

بأبي أنت وأمي يارسول الله، ما هذا الذي رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟

قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله قد فتح عليَّ بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب وأما الثالثة، فإن الله فتح عليَّ بها المشرق(٦٤).

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعي تماما، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدي فتقدح شرراً، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة، في وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم في أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذي تكتل فيه العرب كتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأنة النفوس الجازعة. فالدلالة فيه أن كل ذلك الذي يحدث زوبعة طارئة منتهية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعاً ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعا، ولكن ذلك الحديث الذي قصد منه النبي بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقفته مع ذلك البرق اللامع روايات تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير، وتتحول آمال النبوة المقبلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشرر ليصبح ضوءاً مبهراً معلنا وجود قدرات كبرى إلى جوار النبي ورجاله، حيث يروي النسائي ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

---

(٦٤) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٢.

فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسى قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم، فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم، فندر الثلث الباقى، وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يارسول الله رأيتك حين ضربت، لا تضرب ضربة إلا معها برقة، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأيت ذلك ياسلمان؟ قال: أى والذى بعثك بالحق، قال: فإنى حين ضربت الضربة الأولى، رفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا بذلك.

قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا.

ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعينى، ثم قال رسول الله: دعوا الحبشة ماوادعوكم، واتركوا الترك ماتركوكم(٦٥).

ولا ينتهى حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث ـ التى رآها سلمان، لأنه كان بجوار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى استدعت دهشة النبى وهو يسأل سلمان: أو قد رأيت ذلك ياسلمان؟ ـ تتحول إلى برق إعجازى أسطورى يسجل آية عظمى، فيدونها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبى الجسدية الهائلة التى صدعت الصخرة فيقول:

فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة فكبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكبر المسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الأولى، وأخبرنى جبرائيل أن

---

(٦٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٣.

أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء. وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها(٦٦).

أما البيهقى، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة، وجامع تلك الدلائل التى رآها جميعاً إعجازية، فقد وجد فى قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليكرر، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها (أى لابتى يثرب)، حتى لكأن مصباحا في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكبيرة فتح، فكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكبيرة فتح وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الثالثة فكسرها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكبر المسلمون.

فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى القوم فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا، قد رأيناك تضرب، فخرج البرق كالموج، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئا غير ذلك، فقال: صدقتم، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية، فبرق الذى رأيتم، أضاء لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا.

---

(٦٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

ويعقب البيهقى تعقيباً واضح المدلول بقوله: إن الرسول أراد بذلك أن «يبلغهم النصر»(٦٧).

وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخباراً عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

> وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة فى تصديق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، فكان مما بلغنى، أن جابر بن عبد الله كان يحدث: أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذى بعثه بالحق نبيا، لانهالت حتى عادت كالكثيب(٦٨).

وإذا كانت خاتمة حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البيهقى: فأبشروا، مع الإلحاق التوضيحى: «يبلغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويصبح ذلك النصر سهلا وبسيطا هين الشأن إذا قورن بما بيتته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا، فإن هناك من الصحابة من كان له رأى آخر، إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفزع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخراً يقول برواية ابن الأثير:

> ألا تعجبون؟!
>
> يعدكم الباطل!!
>
> ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟!(٦٩).

أو برواية ابن هشام:

> كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟!(٧٠).

---

(٦٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤١٩.

(٦٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٦٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٩.

(٧٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

ولهذا السبب، ولتلك القولة التى كانت تعبر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العربى التى لا تعرف التزويق، وباندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير فى طائفة المنافقين، لكن ليلاحظ ابن هشام أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقا، لأنه كان من مقاتلى النصر البدرى الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وأصبحوا جميعا من أهل الجنة، وفى ذلك يقول: «وأخبرنى من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر»[71]، ورغم ذلك، فقد جاء الوحى يرد على ابن قشير قائلا: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ (١٢/ الأحزاب).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالاتنا حديث الأحاجى ليستمرئوا الاستمرار فيه، فيروى ابن إسحاق:

> وحدثنى سعيد بن ميناء أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتنى أم عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما.
>
> قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يابنية؛ ما هذا معك؟ قالت: قلت: يارسول الله هذا تمر بعثتنى أمى به إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة، يتغذيانه، فأمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[72].

ومع الجوع إبان العمل الدءوب الذى يسابق الزمن قبل وصول قريش، تتتالى أحاديث الطعام المبارك، فى معجزات تتتالى شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن ميناء عن جابر بن عبد الله قال:

> عملنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الخندق، فكانت عندى

---

(٧١) الموضع نفسه.

(٧٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٠.

شويهة غير جد سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أمسينا وأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يارسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده.

فلما أن قلت ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت جابر بن عبد الله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبارك وسمى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها[٧٣].

وذات الرواية تروى عن جابر أيضا، لتفسر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفى ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم، فتقول:

وجئت امرأتى فقالت: بك وبك.. فأخرجت لنا عجينا فبسق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبسق وبارك، ثم قال: ادع خبازة فلتخبز معك، واقدحى من برمتك، ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا كما هو[٧٤].

ورغم كل الأحاجى وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحا، كما جاء فى رواية ابن كثير التى شرحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مباركات، حتى *ظن المؤمنون كل ظن*، وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل فى ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيظى الذى جاء للنبى يتحدث نيابة عن قومه: يارسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، بينما طائفة أخرى تهبط المعنويات وتثبط الهمم وتقول للناس: ياأهل يثرب لا مقام لكم هنا فارجعوا، بينما يسترسل الوحى معقبا على تلك المواقف المتخاذلة ليقول:

---

(٧٣) الموضع نفسه.

(٧٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٠.

﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾ (١٣/ الأحزاب)

وهو ما يؤكده تقرير الطبرى عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول»[٧٥].

قريظة تنقض العهد:

وحفر أكبر خندق عرفته الجزيرة، ويمتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع محاولات يائسة لعبوره من قبل المهاجمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع، مما أدخل الطمأنينة بعض الشيء فى النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبق غير الانتظار لنفاد ميرة المهاجمين، ومجالدة كل من يحاول اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق، وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير، فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحى والمكاتل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة، وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوطا، فقد أحاط الخندق بالمدينة تماما، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، وكان بذاته مانعا طبيعيا قويا، يكفيه بعض الرماة ليصبح حصنا منيعا لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوى المتين على حافة المدينة وبمواجهة الأحزاب، يطل عليهم مباشرة، وهنا كانت نقطة الضعف التى كان يدركها جميع الأطراف: المسلمون، وقريظة، والأحزاب، فكان يكفى أن تفتح أبواب حصن قريظة، ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهى الأمر فوراً، وقد وعى المهاجمون ذلك وقرروا اللعب عليه، فتحرك محزب الأحزاب (حيى بن أخطب) زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالبا لقاء زعيم قريظة (كعب بن أسد). وتدون هنا أقلام كتاب السير والأخبار قصة ما حدث فى ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخرج عدو الله حيى بن أخطب حتى أتى كعب ابن أسد القرظى، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيى بن أخطب، أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه ورد عليه فى الحوار التالى، كما أوردته كتبنا الإخبارية:

---

(٧٥) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦٦.

حيى: ياكعب افتح لى.

كعب: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشئوم، إنى عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا.

حيى: ويحك، افتح لى أكلمك.

كعب: ما أنا بفاعل.

حيى: والله إن أغلقت دونى إلا جشيشتك أن آكل معك منها.

وهنا، وحيى يستفز كعب، يعيره بمسبة كبرى فى العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل وإغلاق الباب دون جائع، يفتح له كعب باب الحصن ليغلق خلفه سريعا، ويستمر الحوار:

حيى: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

كعب: جئتنى والله بذل الدهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شىء. ويحك، دعنى ومحمداً وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

وتستمر كتبنا الإخبارية فى الرواية لتقول: «فلم يزل حيى بكعب، يفتله فى الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ»(٧٦).

وهكذا تقرر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتى كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو تفكير قريظة، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام، تم فيها علاج الموقف المتأزم من جانب النبى، قبل أن تسقط قريظة فعلا فى خيانة واضحة.

وبلغ النبى بما له من عيون بما يحدث فى حصون بنى قريظة، وبلغ الأمر كذلك المسلمين المجهدين المكدودين الفزعين، وأخذ بهم الخوف والرعب، فطلب النبى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لهم: انطلقوا

---

(٧٦) نفسه: ص ٥٧١. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١، انظر أيضاً ابن الأثير.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٠.

حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله فى التداعى «فإن كان حقا، فالحنوا لى لحنا أعرفه، ولا تفتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس»(٧٧).

ووصل الوفد حصن قريظة «ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه، فقالوا: أكلت بإير أبيك»(٧٨).

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدى، كان رده تحديا بجارح الألفاظ وقبيح الشتائم، وهو يصوره ابن هشام بقوله: «إن رجال وفد النبى خرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ، وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلموا عليه وقالوا: عضل والقارة (الرجيع)، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه».

وفهم النبى اللحن والرمز الهامس، وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شىء إطلاقا يستدعى كل ذلك الفزع، وأن كل شىء على ما يرام، وهو ما تمثل فى صيحته التهليلية «الله أكبر، أبشروا يامعشر المسلمين»(٧٩).

وتأزمت الأزمة فعلا، وكان لابد من تحرك سريع وحاسم، قبل أن تقدم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبنى جلدتها نضير وقينقاع، حيث تفيد مصادر أخرى أنهم اشترطوا على السعدين لمواصلة الالتزام بالصحيفة، والاستمرار فى المدد، إعادة بنى النضير للمدينة(٨٠). ومن ثم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبر، لتصل إلى نتيجة مفادها: أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هى حصن قريظة، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هى غطفان الفزارية، أتباع الأحمق المطاع الطماع عيينة بن حصن، فهم ليسوا أبداً أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية فى القضاء على محمد، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة، والحصول على المغانم، وهو ما يمكن علاجه بالمغريات المالية.

---

(٧٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦١.

(٧٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ٢٦١.

(٨٠) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج ٢، ص ١٥٠٠.

وعند هذه اللحظة من التفكير المتأنى أرسل النبى سراً إلى قائدى غطفان: عيينة بن حصن والحارث بن عوف، يفاوضهما على الانسحاب من الأحزاب مقابل ثلث ثمار المدينة، وجرت المساومات السرية أخذاً ورداً، اشترط معها عيينة النهم نصف تلك الثمار، لكن ليشترط عليه النبى فى مقابل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة(٨١).

وقام النبى يخبر السعدين بما اتفق عليه مع غطفان، فيحتج السعدان ويقولان: «إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف»، ليرد النبى على سعد بن معاذ «فأنت وذاك»، فيتناول ابن معاذ الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهد اتفاقى ويقول: «ليجهدوا علينا»(٨٢)، بينما يأتى من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعى ليرى النبى ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب، فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم -:

خذل عنا إن استطعت، **فإن الحرب خدعة**(٨٣).

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ فى التنفيذ، ويدرك أن الأمر الآن أمر عسكرية وخدع، فالعبرة بالنهايات والخواتيم، وليست العبرة بقواعد قد تؤدى إلى دمار، وعليه يروى ابن هشام كيف تمت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود، فيقول:

> ثم إن نعيم بن مسعود.. بن غطفان، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:.. إن قومى لم يعلموا بإسلامى(٨٤)، فمرنى بما شئت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخذل عنا إن استطعت فالحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة،.. فقال: يابنى قريظة.. إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وأن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا

---

(٨١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٢، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

(٨٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص ٢٦٥.

(٨٤) لم ير كتّاب السير فى فعل نعيم بن مسعود إلا إسلاماً، دون أن يقفوا مع اتفاق غطفان مع النبى.

مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم، ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

وخرج حتى أتى قريشا، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش.. إنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عنى، فقالوا: نفعل، قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً.

وأخذت الريبة برؤوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمر توتراً قدوم تلك الليالى الشاتية القارسة على رجالهم فى العراء، مع النفاد المتزايد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام:

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس.. أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة.. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كى نناجز محمداً.. فأرسلوا إليهم: إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا.. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا لبنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بيننا وبين الرجل فى بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم..

وخذل الله بينهم..

وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.. ثم قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.. أخلفتنا قريظة.. ولقينا من شدة الريح ما ترون.. فارتحلوا فإنى مرتحل.. فانشمروا راجعين إلى بلادهم(٨٥).

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دبرت، ومن دبرها، للإيقاع بين الأحزاب وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق: «وخذل الله بينهم». وحتى يتضح ذلك التدخل الإلهى، الذى يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، فى أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد القول عند ابن قتيبة:

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة رسول الله، عن عكرمة قال: لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال: انطلقى نمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل، فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا(٨٦).

وهو الأمر الذى جاء تأكيده وحيا يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ (٩/ الأحزاب).

وهى الجنود الملائكية التى لم تحارب أبداً فى الخندق، وهو ما جاء مشروحا عن مجاهد: «وجنود لم تروها يعنى الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ»(٨٧) وهو ما يعنى أن الملائكة كانت وراء تلك الريح الصرصر العاتية، وأنها أخذت تعبث بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم وتطفىء نارهم.

وهكذا يعود ابن هشام من قوله: «وخذل الله بينهم» إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من

---

(٨٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٨٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ٢، ج ١، ص ٢١١.

(٨٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٤٨.

أساليب الخداع الإنسانى، فيتابع القول: «وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم»، مصوراً فعل الطبيعة قاصراً فقط على الأحزاب، لكن بعد سنوات من الخندق، نجد الصحابى أبا حذيفة يحكى لجلسائه مشاهده القتالية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول له جلساؤه: والله لو كنا شهدنا ذلك، لكنا فعلنا وفعلنا، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام، بعيدا عن واقع الفعل، ليحكى لهم عن تلك الليالى الشاتية قوله:

> لا تمنوا ذلك؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذراريناً، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هى بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك(٨٨) .

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المرتحلة من الأحزاب وغبارها يسطع فى الأفق تشيعها كلمات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم»، ثم يعقب راوى السير بقوله: «فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة.. رواه البخارى»(٨٩) . وقولة الرسول هنا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتى المهدد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذى تمثل فى تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضا كبيرة لكن بعكس ما توقع الأحزاب وما كانوا يرجونه، فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، ونفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالى رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعوراً وطنيا جارفا زاد من تلاحم المهاجرين والأنصار، حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانشمار الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهى تحرير يثرب تماما من العنصر اليهودى، بغزوة قريظة، التى قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أى حلفاء، مما اضطرهم فى النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

---

(٨٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٦ .
(٨٩) نفسه: ص ١١٧ .

مذبحة قريظة:

عن عائشة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال: وضعنا أسلحتنا، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بنى قريظة، ثم قال البخارى.. عن أنس بن مالك قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غنم، موكب جبريل حين سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة(٩٠).

أو برواية الطبرى:

> فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ماوضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة، وأنا عامد إلى بنى قريظة، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مناديا فأذن فى الناس:
>
> من كان سامعا ومطيعا، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة(٩١).

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمراً إلهيا، حمله جبريل إلى الرسول الأمين، يقدم البيهقى الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك الأمر السماوى، فى قوله:

> وخرج النبى فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مر بكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبى على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أرسل إلى بنى قريظة ليزلزلهم ويقذف فى قلوبهم الرعب.

هذا؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -(٩٢).

وطاعة لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بنى قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهدأ بعد

---

(٩٠) نفسه: ص ١١٩.

(٩١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨١.

(٩٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩.

غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة. واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقتربا من الحصون، وبينما يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه، كان يهود قريظة يرهفون الأسماع وهم يرجفون لندائه - صلى الله عليه وسلم - :

يا إخوة القردة والخنازير:

لكن ليرد المرتعدون:

يا أبا القاسم ماكنت فحاشاً!!(٩٣).

ليعود النبى يناديهم:

يا إخوان القردة:

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولا!!(٩٤).

وأمام ما تراه قريظة، أخذت تصرخ طالبة من محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرسل إليهم من حلفائهم أبا لبابة بن عبد المنذر الأوسى، وسمح الرسول لأبى لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم، وننصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

ولم نجد قولا لأبى لبابة، بل إشارة وحركة ذات معنى، فيورد ابن كثير رده على التساؤل:

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمرّه عليه، يريهم أنه إنما يريد بهم الذبح(٩٥).

وهو ذات ما يرويه الطبرى فى قوله:

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس -

---

(٩٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٠.
(٩٤) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٢.
(٩٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢١.

نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم، فلما رأوه

قام إليه الرجال

وجهش إليه النساء

والصبيان يبكون فى وجهه

فرقّ لهم

وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم

ثم أشاره بيده إلى حلقه

: إنه الذبح[٩٦].

وندخل مع الطبرى إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور فى الداخل، فى تلك الهنيهات البارقة الراجفة من الزمن، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول:

وقد كان حيى بن أخطب النضرى، قد دخل على بنى قريظة فى حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم:

يامعشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه.. قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً.. قال: فهلمّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد.. ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا؟! .. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازما!![٩٧].

---

(٩٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٤.

(٩٧) نفسه: ص ٥٨٣.

وينتهي المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة، أنها لن تقاتل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعا، وبالفعل ينزلون في طابور طويل يكتف فرداً فرداً بالحبال التي تصلهم ببعضهم، لينتظروا مصيرهم، آملين في موقف الأوس أحلافهم لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التي خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم في وهمهم هذا، نسمع الطبري يقول:

> ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دار امرأة من بني النجار (أي من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى سوق المدينة.. فخندق بها خنادق[٩٨].

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس، حيث تواثبت الأوس حول النبي تذكره بأن قريظة مواليها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من الخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج في المواقف السابقة، وهنا يجيبهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله: «ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد ابن معاذ»[٩٩].

في ذلك الوقت كان سعد يعاني من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجي والمعجزات التي ينسبونها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن سعداً لقي نهايته الفاجعة خلال أيام، حيث قام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحسم له جرحه بنفسه كيا بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف، فعاد النبي إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى، أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لا يمكن علاجه كقطع الأكحل.

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبي وجاء به في مشهد يرويه الطبري بقوله:

> فلما انتهى سعد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قوموا إلى سيدكم.. فانزلوه، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أحكم فيهم، قال: فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء..

---

(٩٨) نفسه: ص ٥٨٨.

(٩٩) نفسه: ص ٥٨٦.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسعد:

حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(١٠٠).

وهنا يكشف لنا الطبرى سر الخنادق التى أمر النبى بخندقتها، بينما كان القرظيون يكتفون بالجبال، حيث يقول: إن النبى قد «بعث إليهم، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج إليه إرسالا، وفيهم عدو الله حيى بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المكثر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة»(١٠١).

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالى:

أُتى بعدو الله حيى بن أخطب.. مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

أما والله مالمت نفسى فى عداوتك أبداً.

ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه(١٠٢).

ويشرح لنا رجالاتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيصور لنا الواقدى أحد المشاهد بقوله:

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر لنا يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل على والزبير يضربان أعناقهم بين يديه(١٠٣).

ويحدد لنا البيهقى مكان المقتلة بدقة فيقول:

قتلوا عند دار أبى جهل التى بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطاً، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق(١٠٤).

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة فى الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب

---

(١٠٠) نفسه: ص ٥٨٧، ٥٨٨.

(١٠١) نفسه: ص ٥٨٨.

(١٠٢) نفسه: ص ٥٨٩.

(١٠٣) نفسه: ص ٥٩٣.

(١٠٤) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠.

كانوا يحملون لقريظة العداوة، ولما كان الخزرج أخوال النبى، فقد حبس الأسرى القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مصوراً لنا مشهداً أوسع للمذبحة:

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، ويسرهم ذلك، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الخزرج، ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذى بين الأوس وقريظة، ولم يكن بقى من بنى قريظة إلا اثنا عشر رجلا، فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلا من بنى قريظة، وقال: ليضرب فلان، وليذفف فلان(١٠٥).

أما شأن سعد بن معاذ فنعرف من خبره أن أكحله الذى حسمه له النبى - صلى الله عليه وسلم - قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذى هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقى:

إن جبريل أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى جوف الليل، معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يامحمد؛

من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجر ثوبه، مبادراً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قبض.

ومن ثم وقف النبى يشير إلى سعد وهو يعلن:

إن هذا الذى تحرك له العرش..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك(١٠٦).

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة فى تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله:

ولما حمل سعد علي نعشه، وجدوا له خفة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إن له حملة غيركم(١٠٧).

وفى مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروى الترمذى والنسائى حكاية البغلة والجبة التى أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبى هدية، فى القول: إنها

---

(١٠٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ١٤٧.

(١٠٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩، ٢٨.

(١٠٧) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٠٤.

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها - صلى الله عليه وسلم - فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

أتعجبون منها؟!

لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن مما ترون(١٠٨).

ثم نعلم من مأثورنا علما جديداً بشأن تلك المذبحة، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، بل نالت أيضا من الصبية، حيث يقول الطبرى مدعما من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم(١٠٩).

وهو أيضا ما يأتينا تأكيده فى حكاية ابن إسحاق عن صبى نجا من المذبحة هو عطية القرظى، حيث يقول:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر بكل من أنبت منهم.. عن عطية القرظى قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاما، فوجدونى لم أنبت، فخلوا سبيلى، رواه أهل السنن الأربعة.. وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ(١١٠).

وعن كثير بن السائب أن بنى قريظة عرضوا على النبى - صلى الله عليه وسلم - فمن كان محتلما أو نبتت عانته قتل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك(١١١).

وكاد ينجو من المقتلة رجل واحد من أشراف قريظة، لولا رغبته هو فى الموت ذبحا، هو أبو عبد الرحمن الزبير بن باطا القرظى، وكان يوم وقعة بعاث قد من على ثابت بن قيس وخلى سبيله، فلما أصبح ثابت مسلما، رأى أن يرد الدين إلى أبى عبد الرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبى ويطلب حياة أبى عبد الرحمن، فمنحه إياها، وذهب ثابت يبشر أبا عبدالرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالى:

(١٠٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٣١.

(١٠٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩١.

(١١٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٧.

(١١١) البلاذرى: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٣.

أبو عبد الرحمن: أى ثابت، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد؟

ثـابـت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب؟

ثـابـت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فماذا فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال ابن سموأل؟

ثـابـت : قتل.

أبو عبد الرحمن: فما فعل المجلسان - يعنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟

ثـابـت : ذهبوا، قتلوا.

أبو عبد الرحمن: فإنى أسألك بيدى عندك ياثابت، ألا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح، حتى ألقى الأحبة.

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه فى طابور المذبحة ليأخذ دوره، فضربت عنقه(١١٢).

وبعد الانتهاء من شأن المذبحة، أتى دور الغنائم والسبايا، فأما الغنائم فيحصيها لنا ابن سعد فى قائمة طويلة كالتالى:

ألف وخمسمائة سيف

ثلاثمائة درع

ألفا رمح

ألف وخمسمائة ترس وجحفة

جمال ونواضح كثيرة(١١٣).

---

(١١٢) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨٩، ٥٩٠.

(١١٣) ابن سعد: الطبقات، مج ١، ج ٢، انظر أيضاً: الواقدى: كتاب المغازى، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، للدن، ١٩٦٦، ج ٢، ص ٥١٠.

وهى القائمة التى تشى بمدى العدة والعتاد التى كانت فى حوزة قريظة، وهو أيضا ما يفصح عن رغبة قريظة فى النأى عن الحرب طمعا فى مصير نضير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم.

وجاء دور السبايا ليقول ابن سعد:

> واصطفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ريحانة بنت عمرو لنفسه، وأمر بالغنائم فجمعت، فأخرج الخمس من المتاع والسبى، وأمر بالباقى فبيع فى من يزيد، وقسمه بين المسلمين(١١٤).

أما ريحانة بنت عمرو، التى اختارها النبى، فقد قال بشأنها ابن كثير:

> عرض عليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق، ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفى عنها عليه الصلاة والسلام(١١٥).

ويؤكد الطبرى موقف ريحانة فى قولها لسيدها الجديد:

> تتركنى فى ملكك، فهو أخف علىّ وعليك، فتركها، وكانت حين سباها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية(١١٦).

وفاضت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيما، وتم شراء خيل وسلاح إضافى بثمنهم، لتتضخم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آت.

وهكذا جاءت دية بنى عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض، فطردت نضير من يثرب، لكن ليحزب زعماؤها الأحزاب فى غزوة الخندق التى انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة، لينتهى الأمر بالقضاء على بنى قريظة، وتطهير المدينة تطهيراً كاملا، وسيطرة النبى سيطرة تامة على يثرب، مع نمو هائل فى ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية، وهو الأمر الذى دفع المنافقين لحسم مواقفهم، حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التطاول على القوة الإسلامية المتعاظمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد

---

(١١٤) الموضع نفسه عند ابن سعد.

(١١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٨.

(١١٦) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٩٢.

المدينة وهى النتائج التى أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تبلغ العريان وتذكرهم بقولها:

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم[١١٧] وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شىء قديراً﴾ (٢٥/٢٦/٢٧/ الأحزاب).

---

(١١٧) الصياصى: نوع من الحصون.

البـاب الثانى

الاعتراف بقيام الدولـــة

إخضاع القبائل

«يارسول الله؛ لاتحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً!!»

[زيد بن رفاعة الجذامى]

بالطبع لم تنفذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزق السعدان الصحيفة التى كان من المزمع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزارى، للتخذيل بين الأحزاب، لذلك ما أن انصرفت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التى دبرها الغطفانى الداهية نعيم بن مسعود، حتى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان، ليغيروا على لقاح النبى بالغابة، لكن بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلول يرتقيها موجها وجهه شطر يثرب منذراً صائحا: واصباحاه، عدة مرات، ثم يهرع نازلا يمنع القوم بنباله ويروى لنا ابن كثير بطولة ذلك المسلم الفرد فى صورة رائعة وهو يقول:

> فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمى رمى.. وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع، فترامت الخيول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما اجتمعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر عليهم سعيد ابن زيد وقال: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك بالناس.. وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. واستنقذ بعض اللقاح، وسار الرسول حتى نزل

بالجبل من ذى قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوما وليلة، وقال سلمة ابن الأكوع يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. إنهم الآن ليغبقون فى غطفان.. ثم رجع قافلا إلى المدينة.. (ويقول ابن الأكوع) ثم رجعنا، وردفنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ناقته حتى قدمنا المدينة[1].

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبى ثمانية رجال من عرينة، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبى سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادى لا يطيقون المدن والزروع، فأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذى يرعى بذى الحدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدوا على لقاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتلوا واحداً من عبيد النبى[2]، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهرى، ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبى وبحق الدولة، وهو الجزاء الذى جاءنا ذكره فى البيهقى وهو يروى:

> فلم ترتفع الشمس، حتى أُتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم فى الحرة ليستسقون فلا يسقون، حتى ماتوا[3].

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم[4].

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تكثف مرة أخرى من سراياها المسلحة التأديبية المنذرة، لتؤوب القبائل إلى سابق انكماشها، فكانت سرية عبد الله بن أنيس الجهنى، التى سرت إلى خيبر لتنتقم من مشاركة سادتها فى تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها: أسير بن رزام، جزاء وفاقا لما قدمت يداه[5]. لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدى مغيراً على قومه بنى أسد فى الغمر، ويبدو أن الأسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبى عليهم، فهربوا مع نعمهم وشياههم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغا، لكنه لم

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥١ : ١٥٣، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٥٨:٦١.

(٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٧.

(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٧.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٩.

(٥) نفسه: ص ١٤٦.

يشأ أن يرجع فارغا، فهجم على بنى عمومة لهم ليستاق منهم مائتى بعير يعود بها مغنما إلى يثرب(٦).

وإذا كانت حكمة الأُسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بنى ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما أن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذى القصة باتجاه الربذة فى عشرة من المسلمين، حتى نذر به الثعالب بدهائهم، وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلاً، ولم ينج سوى مسلم واحد خرج سليما، ليحمل محمد بن مسلمة جريحا ويعود به إلى المدينة.

وفوراً يرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية أبى عبيدة بن الجراح للضرب على يد بنى ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مقاتلا يهبطون على ذى القصة متسللين متخفين ليفاجئوا الثعالب فى عماية الصبح، ولكن مرة أخرى ينذر به الثعالبة ـ متأخرين بعض الشيء ـ فيهربوا إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سبلها، ولا يتمكن المسلمون منهم فيكتفوا بحيازة أنعامهم التى تركوها، وينحدروا بها عوداً إلى المدينة.

ووسط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتزويج السماء لزينب من النبى، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسى، فى عدد من السرايا المتوالية، أو ليرسله النبى فى عدد من السرايا المتتابعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بنى حارثة من قبائل سليم ليصيب منهم سوائمهم، ثم يردفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام، بها فضة عظيمة، فيستولى على ما فيها، ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، فيغنم منهم أنعاما جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادى القرى، بأمر من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتقاما من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على صديق النبى دحية الكلبى، الذى كان يتمثل به جبريل الملاك، فيسلبوه منحة قيصر له، وينزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قوما كثيرين، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده، ويأخذ نعمهم وماشيتهم ونساءهم، وما يربو على خمسة آلاف شاة، وألف بعير، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان، ولا يصاب البطل المسلم المتميز زيد فى كل تلك السرايا إصابة واحدة.

لكن بين جذام والنبى كان كتاب موادعة سابق، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعة إلى النبى، فى نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو ـ ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ابن سعد وهو يحكى:

---

(٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦١.

(٧) نفسه: ص ٦١، ٦٢.

فدفع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابه الذى كان كتب له ولقومه، وقال:

يارسول الله؛ لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما.

فقال الرسول:

وكيف أصنع بالقتلى؟

قال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يارسول الله من كان حيا، ومن قتل فهو تحت قدمى هاتين.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: صدق أبو يزيد[٨].

وما أن يرحل الجذاميون، بما كان لهم عند النبى، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة إلى وادى القرى[٩]. لتعطى تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومى والمشرق الكسروى، ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات، بإغارة عبدالرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله على قبائل كلب فى دومة الجندل بالشمال، وهناك يعلن زعيمهم الأصبغ اتباعه للدولة وللدين ويشهر إسلامه، ويزوج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى المدينة[١٠]. ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لازالت بحاجة إلى تأكيد، فتخرج إليها سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر فى فدك، ليغير عليهم على غرة، فيهزمهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفى شاة وخمسمائة بعير يعود بها، أما كلب التى كانت فى الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم ما تأكد لها من عهود مع دولة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١١].

وهكذا أبلغت السرايا وبلّغت رسائلها إلى الشمال الرومى، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم نصف العالم آنذاك: قيصر الروم.

---

(٨) نفسه.

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) نفسه: ص ٦٤، ٦٥.

(١١) نفسه: ص ٦٥.

غـــزوة المصطلق

«ســــمن كلبـــــك يأكـــــلك!!»

[عبدالله بن أُبى بن سلول]

يا منصور: أمت، أمت،

صيحة الفزع المرعبة التى دوت على ماء (المريسيع) فجأة ودون سوابق أو ممهدات، بمضارب (بنى المصطلق)، ليهبط عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - برجاله فى جمادى الآخرة من عام ستة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم ونعمهم، تجمع بيد السيد المنتصر[١٢].

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة فى النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقى، (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها[١٣]، فتقع فى سهم جندى مسلم اعتيادى هو قيس بن الشماس، ومن ثم تحكى لنا جويرية وهى ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يلائم مكانتها:

رأيت قبل قدوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بثلاث ليال، كأن القمر

(١٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، مج ٤، ص ٦٠٨.
(١٣) نفسه: ص ١٩.

يسير من يثرب، حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما سبينا، رجوت الرؤيا[14].

ولتحقيق الرؤيا، ساومت آسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويطلقها حرة، بموجب مكاتبة على العتق بذلك، وهى تعلم يقينا أنها أسيرة لا تملك مالا تشترى به نفسها، ولا تعلم حتى إن هى اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلا وأسراً، ومن ثم قررت أن تختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبى لتطلب منه إعانتها فى مكاتبتها!!

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:

فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها وعرفت أنه - صلى الله عليه وسلم - سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها -؟ فهو ما توضحه فى قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحة

لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه

ويشرح لنا السهيلى شارح السيرة المعنى قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح..

والملحة هى البياض..

وملاحة: فى العينين

وقال الأصمعى:..

الملاحة فى الفم..

وقول عائشة.. من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه - صلى الله عليه وسلم -

ونتابع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - لتقول:

يا رسول الله:

أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار

---

(١٤) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٥٠.

سيد قومه

وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك

فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس

فكاتبته على نفسى

فجئت أستعينك فى كتابتى

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاحة، ويملأ عينيه منها، ليعقب السهيلى على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، حتى عرف من حسنها ما عرف، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، ما ملأ عينه منها، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء، ويجوز أن يكون نظر إليها، لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التى قالت له: إنى وهبت نفسى لك.. وقد ثبت عنه عليه السلام. الرخصة فى النظر إلى المرأة، عند إرادة نكاحها».

وكان ما توقعته جويرية الحسناء، التى تعرف قدر حسنها، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبى بعد تأمله الطويل:

فهل لك فى خير من ذلك؟

قالت: وما هو يارسول الله؟

قال: أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يارسول الله قد فعلت.

وهنا تعقب السيدةعائشة ـ رضى الله عنها ـ: «وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها»[١٥].

ويقول ابن سيد الناس: «وكان الإبل ألفى بعير، والشاة خمسة آلاف شاه، وكان السبى مائتى بيت»[١٦].

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يحل على أهلها بركة وسلاما، لتزف إلى سيد الخلق فى

(١٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، انظر معه شرح السهيلى، مج ٤، ص ٨، ٩، ١٨، ١٩.

(١٦) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٤.

زيجة جديدة، عكر صفو العرس حدث جديد أحدثه عبد الله بن أبى بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعتهم كتب الأخبار بالمنافقين، وهو ما يأتينا خبره فى عدد من الروايات، أولها ما رواه بن هشام فى قوله: إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء المريسيع «وردت واردة الناس، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجهاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجهاه، وسنان ابن وبر الجهنى حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجهاه: يامعشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبى بن سلول، وعنده رهط من قومه، فقال:

أو قد فعلوها؟

قد نافرونا وكاثرونا

والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُول:

سمن كلبك يأكلك

أما والله لئن رجعنا المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم»[١٧].

ويسمع الصبى (زيد بن أرقم) ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبى يهمس له بما قال ابن سلول، ويسمع الأنصار همس الصبى، فينبرون دفاعا عن رجلهم المقدم: «يارسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ماقال الرجل، حدبا على ابن سلول ودفعا عنه»[١٨].

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذاً فيقول للنبى وهو يرعد: مر عباد بن بشر فليقتله»، لينافس عمر ولد عبد الله بن سلول الذى يحمل اسم أبيه (عبد الله)، فيهرع إلى مجلس النبى يقول: «إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا، فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه»[١٩].

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله:

---

(١٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧.

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) نفسه: ص ٨.

فكيف ياعمر إذا تحدث الناس:
أن محمداً يقتل أصحابه؟
ويلتفت إلى (عبد الله بن سلول) الابن ويقول له بكل حب أبوى ورحمة نبوية:
لا
بل نترفق به
ونحسن صحبته ما بقى معنا[٢٠].

وهى الحكمة والرحمة البليغة، التى كانت رداً غير منتظر، وضع ابن سلول فى موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفزع والرعب شعور المهانة والتدني والخجل، وهى المشاعر التى دفعته يسعى للنبى - صلى الله عليه وسلم - ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلم به.

وكى تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أى طارىء جانبى قد يحدث بين انصارى ومهاجر هنا أو هناك، وما قد يجره أى حدث جانبى من تفكك فى الجبهة الإسلامية، أمر النبى القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل الفورى على عجل ودون إبطاء، فى ساعة هجير شديدة القيظ، ويحكى ابن إسحاق:

فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه تحية النبوة وسلم عليه، وقال يانبى الله، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ .. يارسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

ثم مشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسا من الأرض، فوقعوا نياما.

ويعقب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله ابن سلول»[٢١].

---

(٢٠) الموضع نفسه.
(٢١) نفسه: ص ٨٠٧.

أمـا إجابة الرسول الحكيمـة لعبـد الله بن سلول الابن، ولعمـر بن الخطاب، فسرعـان مـا آتت ثمارها، فيما يخبرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قـومـه هم الذين يعـاتبـونه ويعنفـونه، فـقـال رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ لعمـر، حين بلغـه ذلك من شأنهم: كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»[٢٢].

ولم يكن حـدث ابن سلول المعكر الوحـيـد لصـفـو العرس الجـديد، فـالصـبى زيد بن أرقم الذى مدحه النبى وكرمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «هذا الذى أوفى الله بأذنه»، وجد له دوراً، فعاد يهمس للنبى أنه «سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: لئن كان هذا صادقا، لنحن شر من الحمير» فيرد عليه الصبى: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار»[٢٣].

ويتعالى التشكيك فى نبوة النبى من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقى:

> وفقدت راحلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان فى رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضلت، فقال المنافق: ألا يخبره الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، نافقت[٢٤].

أمـا أشـد المنكرات من أحـداث مـعكرة، صـاحـبت غـزوة المصطلق، وعكرت عـرس النبى بجـويرية، ما جـاء بحديث الإفك عن أم المؤمنين الغيور وهى تصـحب زوجهـا فى زفة عـرسـه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل فى القصة المعروفة التى أتى بها عصبـة من الأفاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخلها بالوحى الصادق، الذى برأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

---

(٢٢) نفسه: ص٧.

(٢٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص٥٧.

(٢٤) نفسه: ص٥٩.

غزوة الحديبية

«أما الرحمن فلا أدرى والله ماهو؟!»

[سهيل بن عمرو]

بمجيء شهر ذى القعدة، بداية موسم الحج الجاهلى، وفجأة، ودون أى علامات أو مقدمات منذرة، يتم التحول دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر، يوم قام النبى من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه، أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين، وهو ما يعقب عليه السهيلى فى شروحه «كان النبى قد رأى ذلك فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى»(٢٥).

ومن ثم، نادى المنادى بين مسلمى يثرب، وبين عربان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب الذين حالفوها سياسيا بإسلام من البعض وبعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق:

«واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه.. فأبطأ عليه كثير من الأعراب ويتابع ابن سعد يقول: «واستنفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه إلى العمرة، فتهيأوا وأسرعوا، ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء.. ثم دعا بالبدن التى ساق فجللت ثم أشعرها فى الشق الأيمن وقلدها، وأشعر

(٢٥) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨.

أصحابه أيضا.. وهى سبعون بدنة.. وأحرم ولبى.. وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة»[٢٦].

ولاشك؛ أنه مثلما كان للنبى عيونه داخل مكة، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيونا لها بيثرب، تلك العيون التى - لابد - قد أخذتها الدهشة، وهى ترى النبى يفعل فعل قريش، فيدعو إلى عمرة، ويمارس ذات شعائر قريش، فيسوق أمامه البدن (البعير المساقة هديا للذبح)، بعد أن جللها وقلّدها، بل ويسير أمام رجاله يلبى فيلبون، معلنا أنه قد جاء ساعيا معتمراً لا يريد حربا[٢٧]. فى الوقت الذى كانت تأتيه عيونه الخزاعية بخبر يقول: «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعهم، وهم قاتلوك أو مقاتلوك»[٢٨].

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة، التى أرادها النبى رسالة مبلغة إلى قريش، لتعلم أنه جاء محترما مشاعرها وشعائرها وطقوسها، وهى الطقوس المرتبطة جميعا بتجارتها ومكاسبها، وما فى تلك الرسالة من طمأنة ضمنية وإبراق فصيح بالتحولات الآتية، فإن مكة لم تر فى ذلك العدد الهائل من المقاتلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة، سوى محاولة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة، محتمية بحرمة الأشهر الحرم، لتعمل سيوفها فى بطن مكة من الداخل بغتة، وهو الدرس الذى لم تنسه قريش منذ سرية عبدالله بن جحش التى انتهكت الأشهر الحرم، وحللها الكلم القرآنى وصادق عليها، لذلك ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة، حتى أخذت مكة تهيىء رجالها على الطريق، لتقف فى وجه الغزو الآتى. وبلغ النبى أن على الطريق قد وقف بنو لؤى بجموعهم وخيلهم، فتوجه إلى رجاله قائلا:

> أشيروا علىّ، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم، فنصيبهم فإن قعدوا قعدوا موتورين محرومين، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟[٢٩].

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بنى لؤى الخالية من الرجال، ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقا قطعها الله، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعترضتهم قريش قاتلوها، ورداً على استشارة النبى رجاله جاءه جواب أبى بكر الصديق الحكيم «.. من حال بيننا وبين البيت قاتلناه»[٣٠].

---

(٢٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦. انظر أيضاً ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٦٩.

(٢٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٦.

(٢٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢٩) نفسه: ص ١٠٠.

(٣٠) الموضع نفسه.

وإعمالا للمشورة، يخبرنا ابن سعد بما تلى ذلك من أحداث؛ فيقول:

> سار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دنا من الحديبية، وهى طرف الحرم، على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنية، تهبطه على غائط القوم، فبركت، فقال المسلمون: حلّ، حلّ، يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتى برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل فى فحواها معانى لذوى العقول، فى قول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

> **إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل، أما والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فقامت، فولى راجعا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية(٣١).**

وبينما القوم ينيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبى خبراً آخر عند عسفان، يقول للنبى:

> يارسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:
>
> ياويح قريش
>
> لقد أكلتهم الحرب
>
> ماذا لو خلوا بينى وبين سائر العرب؟
>
> فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا،
>
> وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين،
>
> وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؟!!(٣٢).

وتحاشيا للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبى بين رجاله: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟»، فيقوم له دليل يسلك معه النبى وجيشه طريقا وعراً بين الشعاب، حتى يهبط الوادى، وتعلم قريش بمكانه، فترسل له حليفا له من خزاعة، هو بديل بن

---

(٣١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢ ج ١، ص ٦٦.

(٣٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥.

ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبى برسالة أخرى تؤكد أنه جاء معظما لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم، ويذهب بديل بالرد النبوى ليقول «يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً معظماً لهذا البيت»، لكن قريشا التى تعلم هوى خزاعة مع النبى تتهم بديل وتخونه، ذلك الهوى الذى كان يعلمه كتاب السير والأخبار، وهو ما أفصح عنه ابن كثير فى قوله:

> وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة[٣٣].

ولتجب على بديل بردها:

> وإن كان جاء لايريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث العرب بذلك عنا[٣٤].

وتتذاكر قريش ما حدث لقريظة، ذلك الحدث الذى أذهل العرب جميعا وقريشاً بخاصة، فأى قتال كان فى الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعا، وإبادة قوم بكاملهم، وما صحب الحدث من إنذارات تمثلت فى الآى الكريم ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾، ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضا منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبى الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهى تتصور دخوله عليها، ومصير كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر، فقامت تدفع برسلها إليه رسولا فى عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤى الذين يحملون للنبى كراهية، فلما رآه النبى مقبلا، قال «هذا رجل غادر»، ثم قال له ماسبق وقال لبديل ليحمله إلى مكة»[٣٥].

ثم يردفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدروشوا فى حب البيت حتى قدسوا أمره جميعا، وصاروا يمثلون أشد الاتجاهات تعظيما لحرمة البيت وشعائره، فلما رآه النبى قادما عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون»، ويشرح ابن سيد الناس معقبا شارحا «يتألهون: يعظمون أمر الإله، قال الخشنى: التأله التعبد، ورأيت عن ابن الكلبى فى نسب الحليس ابن ريان: أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن المغفل»[٣٦]، ومن هنا كان التصرف الذى يمكن أن يقنع الحليس، فقال النبى بسرعة: «ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه»، أى ارسلوا النوق المشعرة المجللة المهداة للذبح ليراها، وهنا يقول ابن هشام:

---

(٣٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.
(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.
(٣٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٨.
(٣٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦٢.

فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظاما لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابى لا علم لك(٣٧).

وترسل قريش رسولا آخر إلى مجلس النبى، من سادة ثقيف، هو (عروة بن مسعود الثقفى)، الذى وصل إلى مجلس النبى وجلس قبالته مباشرة، ليفصح عن رعب قريش وذكرى قريظة فى قوله:

يامحمد

أرأيت إن استأصلت قومك،

فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟

يا محمد

جمعت أوشاب الناس (الأوباش)، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟

لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!!

لكن ليرد عليه أبو بكر على الفور:

أمْصُصْ بظر اللات

أنحن ننكشف عنه؟

فيلتفت عروة ليسأل النبى: من هذا يامحمد؟

ولما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبى بكر، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر كان ملبسا بالحديد، خوذة ودروع، ويجيبه النبى: «هذا ابن أبى قحافة»، فيرد عليه عروة معرضا عن إهانته «والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بهذا، ولكن هذه بها».

ويستمر عروة يحدث النبى، ويتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلما حدثه، «والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول: أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك، ما أغلظك».

ويبتسم رسول الله، لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مدرع بالحديد، ذلك الحديد الذى كان

---

(٣٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦.

كافيا لإقناع عروة أن الأمر ليس أمر عمرة أبداً، ويتساءل عروة: من هذا يامحمد؟ فيجيبه: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك، ثم فر إلى النبى مسلما، ودفع عنه عمه عروة ديتهم جميعا، وهنا يقول عروة للمغيرة: «أى غدر؟ وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟».

ويتطلع عروة حوله، فيرى بين إبل الهدى جملا مهدى لأبى جهل، وهو ما جاء فى قول ابن عباس «أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهدى عام الحديبية فى هداياه جملا لأبى جهل، فى رأسه برة من فضة».

ويقلب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجبا، فالرسول لا يبصق بصاقا إلا ابتدره أصحابه، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، ولا يحدون النظر إليه تعظيما وإجلالا، فينهض الرجل مشدوها مبهوتا، ويعود إلى قريش يقول:

يامعشر قريش؛
إنى قد جئت كسرى فى ملكه
وقيصر فى ملكه
والنجاشى فى ملكه
وإنى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه
مثل محمد فى أصحابه[٣٨].

وهنا يخطر للنبى خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلا عزيزا على ملأ مكة وأشرافهم من الأمويين، هو (عثمان بن عفان) الأموى، فيرسله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم، ويتأخر عثمان فى العودة، لأمر كان مقدوراً فى باطن الزمان، حيث تسرى شائعة لا نعلم من أطلقها؟ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش، ومن ثم توجب الانتقام، فيدعو النبى المسلمين فجأة ودون مقدمات واضحة، إلى بيعته، تسليما له فى أى قرار يتخذه دون مناقشة، فكانت بيعة الرضوان على أى أمر يراه النبى حتى لو كان الموت، ومن هنا كانت تلك البيعة تسليما لما هو فى باطن الساعات الآتية، آت. وكوفىء جميع من أعطى التسليم فى قول النبى لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها»[٣٩].

(٣٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٢. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٦: ٢٩، انظر أيضاً شرح السهيلى فى الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥.

(٣٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٣.

وبانتهاء البيعة، يظهر عثمان ابن عفان سليما معافى ليس فيه شيء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تزحزح محمداً ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصة بعدما بلغتها الرسالة: «والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»، وهى ما تعنى رغبة فى الصلح.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المفاوضات المحنك إلى النبى، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطا تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبى فور أن رأى سهيل يهل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهل الله لكم أمركم»(٤٠).

ويجلس سهيل مع النبى، ويعرض عليه عروض مكة، وهى الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجارى، ويوافق النبى.

وأن من أحب أن يحالف قريشا من العرب حالفها، ومن أحب محالفة محمد حالفه، ويوافق النبى.

وترتفع المطالب المكية تدريجيا للاختبار وجس النبض ليقول سهيل:

ومن أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليهم، ويوافق النبى.

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه إليه، ويوافق النبى.

ويستمر سهيل: ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا فى العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادى، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مغادراً، ويوافق النبى.

ويقول ابن كثير: إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبى أمامه كادوا يهلكون غما وغيظا ونكداً، ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمى، فعندما بدأ النبى يملى عليا بن أبى طالب الكتاب قائلا: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» رد سهيل على الفور:

أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو؟!

اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب.

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يصرون على «بسم الله الرحمن الرحيم» لكن النبى يقول لعلى: «اكتب باسمك اللهم؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، لكن ليعترض سهيل: بالقول:

---

(٤٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥.

لو كنا نعلم أنك رسول الله
ما قاتلناك . لكن اكتب اسمك
واسم أبيك .

فيأمر النبى عليا أن يمحو «رسول الله» ، فيرفض على رفضا قاطعا قائلا : «والله لا أمحاك أبداً» فيمسك النبى الصحيفة ـ فيما روى البخارى ـ ويمحو «رسول الله» ، ويكتب بخط يده «محمد بن عبد الله»[٤١] .

وبينما المسلمون فى غم وشدة وكرب ، يأتى ما يزيد الهم هماً والكرب كروبا ، فيفاجئهم أبو جندل ابن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف فى قيوده ليصل فى تلك اللحظة الحرجة إلى النبى جالساً مع أبيه يكتتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : «وهذا يامحمد أول من أقاضيك عليه أن ترده ، فيرد النبى : «إنا لم نقض الكتاب بعد» ، لكن ليرد سهيل بعنف ، مقسما إن لم يفعل : «والله لا نصالحك على شىء أبدا» ، فيقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إذن فأجره لى» ، فيقول أبوه «ما أنا بمجيره لك» ، فيعود النبى للقول راجيا : «بلى ، فافعل» ، لكن ليرد سهيل «ما أنا بفاعل» .

ويروى لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى :

فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد ، وقد انفلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرجوا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رأوا من الصلح ، والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله فى نفسه ، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون ، فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال : يامحمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتزه بتلبيبه ويجره ، يرده إلى قريش ؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا ، إنا

---

(٤١) ابن سيد الناس : عيون .. سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم، فوثب عمر بن الخطاب يمشي مع أبي جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه(٤٢).

وقد لقي عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقا شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبي يقول:

ألم تعدنا أن نأتي البيت ونطوف به؟

قال: نعم.

وبين الإجابة، وبين واقع ما يحدث، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبي بكر يقول في حوار متوتر:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

أبو بكر: بلى.

عمر: أولسنا بالمسلمين؟

أبو بكر: بلى.

عمر: أوليسوا بالمشركين؟

أبو بكر: بلى.

عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

أبو بكر: ياعمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله.

عمر: وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!!

ويشرح السهيلي معقبا على قولة عمر، التي لم تحوله إلى منافق كما هي العادة مع المعترضين والشكاكين:

وفي هذا أن المؤمن قد يشك، ثم يحدد النظر في دلائل الحق، فيذهب

---

(٤٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧، انظر أيضاً البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٥، ١٠٦، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٠، ٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦.

شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: هو شئ لا يسلم منه أحد[43].

وأمام شك رجل فى وزن عمر، وهو من هو، وهو وزير الرسول، وهو الذى عز به الإسلام، جاء الوحى ليقطع الشك باليقين الصادق مؤكداً:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ (٢٧/ الفتح).

و ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ (١/ الفتح).

ومع تأكيد الوحى أن الرؤيا قد صدقت، وأن كتاب الصلح كان فتحا مبينا، كان يفترض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لهم رأى آخر، «فقال رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت، وصد هدينا، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح»[44]. ومن ثم يثنى ابن هشام موضحا ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يارسول الله أنك تدخل مكة آمنا؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامى هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لى جبريل عليه السلام»[45].

ونعود إلى المسلمين وهم فى كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية فى اتفاق هدنة ومصالحة، لنرى النبى بعد توقيعات الشهود يقوم ينادى رجاله لاستكمال شعائر العمرة التى لم تتم، قائلا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، ليقول لنا ابن الأثير أن الناس جميعا قد تعصبوا على رسول الله، فى قوله «فما قام أحد، حتى قال ذلك مراراً، فلم يقم أحد منهم، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يانبى الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما»[46].

ويقول ابن هشام: إن النبى «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق.. فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون.. عن ابن عباس قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: يرحم الله

---

(٤٣) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٧، ٣٨، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٠.

(٤٤) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٦١.

(٤٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢.

(٤٦) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.

المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: والمقصرين، فقالوا: يارسول الله فلم ظاهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لم يشكوا»[47].

أما الرجل الآخر الذى جاء النبى مسلما فرده إعمالا لبنود الهدنة، فهو أبو بصير بن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فكتب فيه للنبى الأزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا بالكتاب رجلا من بنى عامر ومعه مولى له، يطلبون رد أبى بصير، فرده معهما، لكن ما أن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامرى وقتله، وعاد للنبى يقول: «يارسول الله وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه، أو يعبث بى». وغادر أبو بصير مجلس النبى ميمما خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبى بقوله يردد:

ويل أمة محش حرب

لو كان معه رجال؟!

وبلغت كلمات النبى المستضعفين بمكة، «لو كان معه رجال» فخرج إليه نحو سبعين رجلاً من المستضعفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها، حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبى تسأله فيها بصلة الرحم أن يأوى أبا بصير ورجاله فى يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة[48].

ولم يكن ذلك أول كسر لبنود صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضى المكره، وكان بتحريض من النبى، لكن حدثت كسور أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت عقبة إلى النبى، وخرج وراءها أخواها عمارة والوليد ليردها عليهم النبى بعهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبى - عليه الصلاة والسلام - «فلم يفعل، أبى الله ذلك»[49]. فالله هو الذى أبى وليس النبى، بدليل الوحى القائل: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ (١٠/ الممتحنة).

ورغم تأكيد النبى، والله، أن ما حدث كان أعظم الفتح، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض، ومن جانبهم رأى كتاب السير والأخبار أن يضيفوا للأمر بعض المبهرات من أحاجيهم المعتادة، فيروى البيهقى عن البراء:

---

(٤٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩.

(٤٨) نفسه: ص ٣١.

(٤٩) نفسه: ص ٣٢.

كنا مع النبى أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركها غير بعيد، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

ومعجزة مائية أخرى، يرويها لنا الصحابى جابر فى حوار له مع شعبة إذ يقول:

أتى رسول الله بماء فى تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة(٥٠).

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش فى قول الصحابة للنبى: «يارسول الله، لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق، أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جمام، قال: لا، ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم، فبسطوا أنطاعا ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم، فدعا عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة، فأكلوا حتى تضلعوا شبعا، ثم لقلفوا فضول ما فضل من أزوادهم فى جربهم.. عن عبد الله قال.. كنا نأكل مع النبى ونحن نسمع تسبيح الطعام»(٥١).

نتائج الحديبية:

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية: «فما فتح فى الإسلام قبله فتح أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم، فدخل الإسلام فى تينك السنتين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر»(٥٢). ويقصد ابن الأثير بالسنتين، السنتين اللتين مرتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذى سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحى الواضح: أو فتح هو؟ حتى اضطرسيد الخلق إلى القسم بالله للناس أنه فتح قائلا: «أى والذى نفسى بيده إنه لفتح»(٥٣). فكيف يمكن رؤية ما حدث فى الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتوح.

إن قليلاً من التمعن فى خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم

---

(٥٠) أخرجه البخارى فى ٦٤ كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.
(٥١) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٥، ١٢٠، ١٢٩.
(٥٢) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٥.
(٥٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١ ص ٧٦.

بالفعل، وعمل دبلوماسي من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسة، يستحق أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصداقية الرسول الكريم وبلاغة الوحْى الصادق، هو فتح الفتوح.

* لو عدنا قليلا إلى الوراء نطالع تطور الأحداث بعد غزوة الخندق سنلحظ دون جهد يذكر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذى قامت به فى الخندق، قد تحولت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذى لم يهدأ لليهود بين قبيلتى أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بميرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فدك وما وراءها.

وكان وصول المعلومات إلى النبى عن خيبر أولا بأول قد كونت لديه فكرة واضحة عن تنامى قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى وأصبحت مركز قوة جديد، أزاح قريش إلى موقع خلفى، وكان معنى أن تترك خيبر تتنامى دون تدخل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعنى أن المدينة سوف تصبح بين طرفى معادلة شديدة الخطورة، فخيبر فى الشمال مع أحلافها، وقريش فى الجنوب، وأى تحالف ثنائى بين خيبر وقريش كما حدث فى الخندق كان كفيلا بتهديد حقيقى لدولة يثرب.

ومن ثم كانت عمرة الحديبية التى وعى مؤرخونا أهدافها فأسموها غزوة الحديبية، حيث كان النبى قد توجه نحوها بعسكره مسلحين مدرعين ملبسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعى حمّله إلى قريش رسالة واضحة تقول:

إننا لم نجيء لقتال أحد
ولكننا جئنا معتمرين
وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم
فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس
وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا
وإلا فقد حموا
وإن هم أبوا
فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره(٥٤).

---

(٥٤) الدياربكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت، ج ٢، ص ١٨.

وهكذا أعلن النبى لقريش أنه يعلم بحالتها المنهكة والمترددية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاها هدنة محددة المدة، وكى يدفعهم لقبول الهدنة، أرفق بخيار الهدنة خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يعلن لأصحابه أبدا الرغبة فى الهدنة بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم فى أكمل استعداد للانقضاض، ولم يظهر لهم إطلاقا ماقر فى ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدنة.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذى ظهر فى إرسالها السفراء واحداً إثر آخر، أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدنة كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط تتمثل فى أنه سمح بتسرب الأخبار لقريش عن مسيرة إليها، بقصد أن يعلموا بتحركه، ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموى تحديداً برسالته إلى أهل مكة، ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التى تقف أمام عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذى فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجيعة مما يحدث.

* لأول مرة يعترف الملأ المكى سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المقدمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون فى عهد مكتوب وكتاب موثق بشهادات الشهود، بدولة يثرب، وبسيدها، اعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد، بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ما يعنى تخلى قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل فى عقد محمد، واكتفائها بتحصين نفسها ضد مؤثراته، وهو الأمر الذى سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب فى حلف يثرب بأعداد لم تشهدها الدولة من قبل، أليس ذلك إذن فتح الفتوح؟!

* ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبى مع رجاله أن يزوروا مكة أياماً ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة، حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب، مما يتيح لهم المقارنة والفهم.

* كما أدت الحديبية إلى تفكك المجتمع المكى وانهيار مقاومته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار قريش السيادى، ومن ثم دخل رجالهم المقدمون فى دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

* كان اليهود يشكلون فى بداية الأمر مطمحاً لدعوة الإسلامية، للانضواء تحت لوائها واتباع صاحبها، لكن بمضى الوقت تكشف لليهود وللنبى - صلى الله عليه وسلم - اختلاف توجهاتهم بل

وتضاربها، وكان استمرار وجود اليهود فى يثرب على يهوديتهم يشكل شرخاً عميقاً فى بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة موحدة، وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوى الذى يأتى منه الكلم القرآنى، وكان مفترضاً أن يكونوا مصدقين لما آتى محمد من آى الكتاب القرآنى، لكنهم إطلاقاً لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العربان فى مدى صدق علاقة الآى القرآنى بالسماء، لكن وجودهم فى يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبى الدينية حمل للعربان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المنكر السماوى القائم فى الواقع العربى للوحى القرآنى، وهو ما أدى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعد ما كانوا عنده أفضل العالمين. وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الوراء، فحلت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبى إلى تمجيد المعبد الذى قدسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهى العودة التى صحبت باحترام ذلك البناء المكى المتواضع هندسياً ومعمارياً، وإلقائه فى رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم فإسماعيل، وهو التحول الذى لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نتيجة الخندق يتخلص من آخر يهودى بيثرب، ليتحول تماماً مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيهل بالمناسك الأولى التى هى مناسكهم وأعرافهم التى تواضعوا عليها، ثم لا شك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المقدم، وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يواريه ثرى بدر: «أطيعونى وخلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن للذى سمعت منه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».

* والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و٦٢٩م، وجلى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمى والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبى - صلى الله عليه وسلم - يفتح لها الأبواب ويعد لها المواقع فى منظومة دولته سياسياً ودينياً واقتصادياً ومجتمعياً.

* وكان اعتراف النبى لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكى الحرام، وبالعمرة، وبالنسق الدينى الجاهلى المتعلق بالكعبة، بلاغاً واضح المعانى والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة، ومن ثم تصرف النبى فى الحديبية بحنكة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسى، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة، بينما كان عروة بن مسعود يعود يعلن لقريش قبيلة النبى

أن ولدهم قد أصبح ملكاً لا تدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكاً مثله قط، وهى مجموعة المتوافقات التى أدت خلال الهدنة، بل خلال أشهر قليلة، إلى اندفاع العربان وجند قريش إلى سيد الدولة اليثربية، يعلنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندى الحاذق الذى سيصبح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذى لا يشق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرتاريا العربية.

* وتأسيساً على ما أدت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتماً رسمياً، ليصدق به على رسائله الرسمية للعالم، التى بدأت تفد على الملوك والقياصرة ممهورة بخاتمه، يدعوهم فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعوث الأولى من العرب إلى الدنيا تعلن النجاشى والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

* أما النتيجة الأهم إطلاقاً وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهى أن النبى قد تمكن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أى تحرك معاد تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجه النبى إلى مركز القوة الصاعد، إلى خيبر.



«الله أكبر
خربت خيبر
إنا إذا نزلنا بساحة قوم
فساء صباح المنذرين»

[النبى - صلى الله عليه وسلم -]

﴿وأثابهم فتحاً قريباً... وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ (الفتح ١٨ ، ٢١) .

وهذا وعد آخر بفتح قريب، تليه فتوح أخرى مقبلة لم يتمكن المسلمون منها، لكن الله يمهدها لهم، فيحيط بها ويجهزها للفتح، حيث يبدو أن الأتباع لم يعجبهم ما حدث بالحديبية، ولم يدركوا مرامى العهد البعيدة، وأفصح بعضهم عن أن النبى لم يحقق لهم فى الحديبية ما وعدهم به سلفاً، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحاً عظيماً، فإن رؤاهم قصرت عن تتبع البصيرة النبوية وهى تعمل فى الآتى، ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعد جديد، يعوض المسلمين عن فتح مكة ويثيبهم بدلاً عنها بفتح آخر قريب، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها، ومن ثم عقب الحكم على الآيات بقوله:

أخبرنى عبد الرحمن بن أبى ليلى فى قوله: وأثابهم فتحاً قريباً، قال: خيبر، وأخرى لم تقدروا عليها أحاط الله بها، قال: فارس والروم[٥٥].

وعقب موسى بن عقبة بقوله: «لما رجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهى التى وعده الله إياها». أما مروان والمسور فقد قالا: «انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة»[٥٦] وهو الأمر الذى يفصح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يعوضهم بغنائم فورية، عوضاً عن أملهم الطموح فى ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقى وهو ينقل عن الرواة القول:

انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر،

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها

فعجل لكم،

هذه خيبر[٥٧].

وفى الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بثقلها، تلك القبيلة الفزارية التى يقودها الطماع الأحمق المطاع، الذى خذل فى اتفاقه السرى بالخندق، وتم التخذيل بين الأحزاب دون أن يجنى لطمعه مغنماً، وعاد صفر اليدين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقع القائد صائباً، فقد جهزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتظاهر خيبراً ضد الجيش الإسلامى، وهنا، وما أن تحرك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مؤخرة جندهم ضجيجاً خلفهم، فى بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعاً إلى ديارهم، خوفاً على أموالهم ونسائهم وذراريهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تحيطنا علماً شافياً وواضحاً بحقيقة ما حدث فى ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها[٥٨].

---

(٥٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٣.

(٥٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٣.

(٥٧) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٥٨) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٦، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى، ج ٤، ص ٤٠.

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لزمت ديارها بعد خطة مقدرة ومحكمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليثربى فى تقدمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلاً ويكمن نهاراً، يستخفى حتى يبغت خيبر فجأة فى حصونها وصياصيها. ويصل جند الله سارين دون صوت عند سدول الليل، يحيطون بالحصون دون أن يصدروا صوتاً أو يشعلوا ناراً، حتى تبدأ خيوط الفجر تضئ المزارع حول الحصون، ويخرج مزارعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفئوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المتحركة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مزارعو خيبر الدوائر المحكمة تحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفزع صارخين نحو حصونهم:

محمد؛ والخميس معه.

ليجاوب صراخهم الفازع هتاف النبى فى رجاله معلناً بدء الهجوم

الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين(٥٩).

كانت خيبر أرض زرع وسط بدو جياع، خبرت غدر العربان وإغاراتهم المتكررة وقت نضوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد ينهبون عرق الشهور والتعب والجهد، وهو ما دعا الخيابرة إلى إقامة عدد من الحصون القوية والصياصى، لصد تلك الغزوات البربرية، لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامى المنظم، أثبتت أنهم ليست مانعتهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصناً حصناً، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابى محمود بن مسلمة، عندما ألقت عليه امرأة خيبرية رحاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق، ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذى يليه، حتى يتحصنوا جميعاً فى الحصون الخمسة الباقية: الأخبية والوطيح والسلالم والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابرة أنهم باتوا فى أمان، فيرفضون النداء المردد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يوماً من الحصار، انتهى بعدها النبى إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة فى بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لدك الحصون، ذلك السلاح الذى كان قاصراً على

---

(٥٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢١٧، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٠، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المتحصنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكاً، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما أن يشاهد المتحصنون شكل العمل وطبيعته، ويدركون أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب، حتى يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبى الحقيق، حاملاً للنبى صلحاً على شروط صلح النضير: أن يغادروا بلادهم، ويتركوا للنبى أموالهم وحصونهم وأرضهم، لا يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس، فقط نظير أن يحقن النبى - صلى اللهعليه وسلم - دماءهم، ووافق النبى، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدى وهو يروى:

> فنزل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله - صلى اللهعليه وسلم - وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ما كان على ظهر الإنسان، يعنى لباسهم[٦٠].

ثم يردف:

> فنزلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بنى النضير المتقدم ذكرها، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة[٦١].

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبى - صلى اللهعليه وسلم - إلى الشروط شرطاً آخر، حول الأموال حين قال:

> وبرئت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئاً.
>
> فصالحوه على ذلك[٦٢].

أو ما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، فى سؤال النبى - صلى اللهعليه وسلم - للزعيم الخيبرى المرعوب كنانة بن أبى الحقيق، وأخيه الربيع:

> أين آنيتكما التى كنتما تعيرانها أهل مكة؟

ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول متلعثماً: «هربنا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شيء»، فيرد النبى - صلى اللهعليه وسلم -:

---

(٦٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٦١) نفسه: ص ٢٠٤.

(٦٢) الموضع نفسه.

إنكما إن كنتما تكتماني شيئاً فاطلعت عليه، استحللت دماءكما وذراريكما.

فقالا: نعم[٦٣].

وهنا نعلم أنه كان شركاً وقع فيه الزعيمان، حيث نعلم أن النبي كان يعلم سلفاً بأمر كنز عظيم، بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد: إن الله قد دل رسوله على ذلك الكنز[٦٤]، بينما يوضح لنا ابن هشام في سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، في قوله:

أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل من يهود فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

إني قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهو ما دفع النبي للشرط السابق ذكره، والذي أورده ابن هشام في قوله:

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنانة:

أرأيت إن وجدناه عندك؛ أأقتلك؟

قال: نعم[٦٥].

وهنا نتابع من ابن سعد، الذي لم يعلم بأمر ذلك اليهودي الذي باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبي بأمر الكنز خبراً إلهياً، فنجده يقول في روايته متابعاً:

فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك، فانظر نخلة مرفوعة، فأتني بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال[٦٦].

والآن وقد كُشف خداع الرجلين، وجيء بكنزهم للنبي، توجه النبي إلى كنانة مرة أخرى يسأله ما بقي من كنزه، فأنكره،

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:

---

(٦٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١.
(٦٤) نفسه: ص ٧٧.
(٦٥) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.
(٦٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨١

عذبه حتى تستأصل ما عنده.

فكان الزبير يقدح بزند في صدره، حتى أشرف على نفسه.

ثم دفعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة(٦٧).

وانطلق السيف الإسلامي يعمل في المستسلمين، ليقتل منهم في قول ابن سعد «ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسميناهم لشرفهم»(٦٨).

وكان تبرير تلك المقتلة واضحاً لكل ذي عينين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه في قوله:

قلت: ولهذا، لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذي كان فيه أموال جزيلة،

تبين أنه لا عهد لهم!!

فقتل أبي الحقيق، وطائفة من أهله، بسبب:

نقض العهود والمواثيق!!

.. فقتل رسول الله ابني أبي الحقيق

وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب

وسبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءهم وذراريهم وأموالهم

بالنكث الذي نكثوه

وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا:

يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل(٦٩).

---

(٦٧) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٦٨) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٧٧.

(٦٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠٠.

وهكذا، وبعد المقتلة التى نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر، رأى من بقى منهم أن يقترحوا على النبى أمراً آخر، هو أن يظلوا فى أرضهم يزرعونها ويفلحونها ويستخرجون خيراتها، بدلاً من مغادرتهم وخراب الأرض وبوارها من بعدهم، على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دينية، لكن مع تبعية خراجية، يعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم، مع شرط تنبيهى من النبى، يقول لهم مردفاً:

على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم(٧٠).

وبانتهاء المعركة، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال، فأما الأموال التى أوجف عليها المسلمون بالخيل والركاب، فقد قسمت بينهم، أما التى استسلمت وعقدت الاتفاق، فعائدها كان خاصاً لرسول الله، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله.

ويؤكد لنا رواة السير والأخبار جميعاً، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ، ففشت السبايا الخيبريات فى المسلمين، إلى الحد الذى دفع النبى لوقف اغتصاب النساء الحبالى، يناشد رجاله بندائه الراقى الرحيم:

لا يحل لامرئ أن يسقى ماءه زرع غيره(٧١).

وكان النبى قد قتل كنانة بن أبى الحقيق، زوج صفية بنت حيى بن أخطب سيد النضير، وكان قد سبق وقتل أباها حيى فى مذبحة قريظة، لذلك، وحتى لا ينصرف ذهن كائد للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتى هنا واضحة لا تحمل فى خبرها لبساً، فتعلمنا أن النبى لم يعلم بجمال صفية بنت حيى زوجة كنانة، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جميعاً حول رواية أنس بن مالك الذى قال:

قدمنا خيبر، فلما فتح ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحصن،
ذُكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب
وقد قتل زوجها
وكانت عروساً
فاصطفاها لنفسه(٧٢).

---

(٧٠) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٧٦.
(٧١) نفسه: ص ١٧٣، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤١.
(٧٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧..

وقد قدرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين، - صلى الله عليه وسلم - ، رغم أنها بنت عدو الله حيى بن أخطب، الذى حزب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبى الحقيق، الذى نقض العهود والمواثيق، بعد اتفاقه السلمى مع النبى، وهو ما يشرحه أنس فى قوله:

جُمع السبى

فجاء دحية الكلبى فقال: يا رسول الله اعطنى جارية من السبى،

قال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حيى،

فجاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال:

يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك!!

قال: ادعوا بها، فلما نظر إليها - صلى الله عليه وسلم -

قال: خذ جارية من السبى غيرها[٧٣].

وفى رواية أخرى أن دحية الكلبى صديق النبى، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت فى قوله: «وقعت صفية فى سهم دحية، وكانت جارية جميلة، فاشتراها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبعة رؤوس، ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها»[٧٤].

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ فى سد الصهباء فى الطريق إلى يثرب، وضربت للنبى وصفية قبة، ظل فيها النبى معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبنى بها..

وكانت التى جمّلتها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك[٧٥].

ويروى البيهقى:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائماً قريباً من قبته.

---

(٧٣) نفسه: ص ١٩٨.

(٧٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٤.

(٧٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٢، ٢١٣.

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مفصحاً عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،

وذكرت أنك قتلت أباها وأخاها وزوجها

وعامة عشيرتها،

فخفت لعمر الله أن تغتالك[٧٦].

وهو الأمر الذى يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبى فى قولها: «كان رسول الله من أبغض الناس إلىّ، قتل زوجى وأبى، فمازال يعتذر إلىّ ويقول: إن أباك ألّب علىّ العرب.. حتى ذهب ما بنفسى»[٧٧].

أحداث فى خيبر:

وفى خيبر أحداث حدثت، تفصح عن كثير مما فى النفوس من مكامن، وتكشف عما فى العقول من مفاهيم، فهذه صفية تصفو للنبى ويزول ما بنفسها من بغض له، لتخبره وهو يبنى بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها فى قص البيهقى علينا:

> أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى بصفية.. ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعين صفية خضرة، فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسى فى حجر بن أبى الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع فى حجرى، فأخبرته بذلك، فلطمنى وقال:
>
> تمنين ملك يثرب؟!
>
> أو
>
> تمنين هذا الملك الذى بالمدينة؟!
>
> فأعجب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ برؤياها[٧٨].

---

(٧٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

(٧٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٠١.

(٧٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٠، ٢٣٢.

وهو الرد الذى يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبى كملك على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آت، فى صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية:

ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً؟![79]

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يوصف رؤيا صفية فى قوله: «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة رضى الله عنها وأرضاها»[80].

ومفهوم كنانة بن أبي الحقيق، ومفهوم صفية بنت حيى عن النبوة بحسبانها ملكاً، هو الفهم الطبيعي الناشىء عن تأسيس دولة للعرب فى يثرب، وهى رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن تعاشر النبى وتعرف معنى النبوة الحقة، فهى لا تعلم حسب مأثورها الدينى سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش، وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحدا قبائل البدو فى دولة تأسيسية فى فلسطين، وفى ضوء هذا الفهم يلتقى تجريد الكتائب والجيوش مع أساليب ملوك التوراة، وهو الأمر الذى ترك فى نفسها فى مبدأ الأمر بغضاً شديداً لذلك الملك الذى حلمت به، وزادها بغضاً ما رأته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروى ابن هشام مشهداً لاشك كان ذا أثر عميق فى نفس صفية، حيث يقول نقلاً عن ابن إسحاق:

> ولما افتتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القموص، حصن بنى الحقيق، أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفية بنت حيى بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال، وهو الذى جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية، صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: أغربوا عنى هذه الشيطانة.
>
> وأمر بصفية فحيزت خلفه،
>
> وأبقى عليها رداءه.
>
> فعرف المسلمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟[81]

---

(٧٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

(٨٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٧.

(٨١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٣.

وهكذا كـان الرسول ينبـه هذا وينهى ذاك، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبو هنا وتطفو هناك، مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذى لم يكتف بقتل كنانة زوج صفية ثأراً بأخيه محمود الذى ألقيت عليه الرحى، حيث يقول الواقدى: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز علىّ يا محمد، فقال محمد: ذق الموت ذق، كما ذاقه أخى محمود»، وظل الرجل على حاله يعانى لولا أن مر عليه الإمام على ففصل رأسه عن جسده رحمة به[٨٢].

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا فى أمر صفية، هل ظلت محظية ضمن جوارى الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد بنى بها ولم تكمل عدتها، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوجها، وهو ما جاء فى الشاهد: «قال حماد، قال عبد العزيز لثابت، ياأبا محمد، أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ قال أصدقها نفسها، فحرك ثابت رأسه كأنه صدقه»[٨٣] بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقاً، وأن هذا الصداق كان عتقها.

ولا يمضى من الزمن هنيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلل، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم، وهو ما جاء فى رواية تقول:

> دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صفية، ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بنى سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً وانتهش منه»[٨٤].

ويلوك النبى نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه «ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان»، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبى بآثار السم القاتل تسرى فى بدنه، فيحتجم يومئذ، وقد حجمه مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة، وبقى رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى، فتوفى رسول الله شهيداً، قال ابن هشام: الأبهر هو العرق المعلق بالقلب.. فكان المسلمون يرون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات شهيداً، مع ما أكرمه به الله من النبوة»[٨٥].

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتأريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من

---

(٨٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٦.
(٨٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٥.
(٨٤) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ٢١١.
(٨٥) الموضع نفسه.

قريبة يهودية لها هي زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبي لم اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قالت: «قتلت أبي وعمي وزوجي وأخي.. قال القاضي عياض: واختلفت الآثار والعلماء، هل قتلها النبي - صلى الله عليه وسلم - أم لا؟»(٨٦).

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوز منهجهم الإعجازي، في إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجاً لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر في رواية ابن كثير حيث يقول:

> فتراموا.. حتى أصاب نبلهم بنان النبي - صلى الله عليه وسلم -، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض، وأخذهم المسلمون أخذاً باليد(٨٧).

من غير أن يدرك ذلك الراوية أن هذا الحل العملي، كان بديلاً مناسباً عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان في سويعات أن يرمي النبي تلك الحصى على كل حصن لينتهي الأمر بكل بساطة، ويؤمن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يذكرنا بحصى بدر الإعجازية.

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبرز وسطها رواية هي بحق من اللطائف، لتعبر عن الجزاء الفوري للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره متعدداً في كتب الأخبار عن الراعي الأسود الذي أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقتل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذي أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لم أعرضت عنه؟ قال: **إن معه الآن زوجتيه من الحور العين**»(٨٨).

وبينما الجيش في الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغتة على وادي القرى، وفي أربعة أيام أنهى الأمر وقسم غنائم وادي القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادي على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويعطون نصف منتوجها ليثرب، وبلغ ذلك يهود تيماء وفدك، وبينما يعرج عليهم أتوه هم بالطاعة، يصالحونه على ذات الشروط دون حروب(٨٩).

---

(٨٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٨٧) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ٢٠٠.

(٨٨) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦.

(٨٩) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ٢١٩، انظر أيضاً البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٨٦، ١٨٨.

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمالى، الضارية على مواطن الخصب، لتنجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتؤوب لسلطان الدولة العربية معلنة الخضوع طوعاً، ليبرز هيكل الدولة واضحاً فى قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوى الابتدائى، الذى كان سائداً حتى غزوة خيبر.

ثم يأتينا خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المنتصر قافلاً نحو يثرب، نسمعه من الواقدى عن أم عمارة عندما قالت:

> سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجرف وهو يقول: لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء، قالت: فذهب رجل من الحى فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضن بزوجته أن يفارقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها فعصى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأى ما يكره[٩٠].

ويتأكد ذات المعنى فى رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

> لما نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعرس، أمر مناديه فنادى: لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلا[٩١].

ويبدو أن الأمر كان متكرراً مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

> حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله، إلا نصب له يوم القيامة فقيل له: هذا خلفك فى أهلك، فخذ من حسناته[٩٢].

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيباً فى الناس يقول مهدداً متوعداً بالنكير:

> ألا كلما نفرنا غازين فى سبيل الله، خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس يمنح أحدهم الكثبة؟
>
> أما والله إن يمكننى الله من أحدهم، لأنكلنه عنه[٩٣].

---

(٩٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢١٩.

(٩١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، مج ١، ج ١، ص ٢١٨.

(٩٢) أبو داود: السنن، ج ٢، ص ٨٠٧.

(٩٣) صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٣١٩.

كانت تلك الأحداث تجرى بين خيبر ويثرب، بينما مكة تحاول أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمى قادماً من عند النبى، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالاً له عندهم، ويحكى الحجاج قائلاً:

ولم يكونوا قد علموا بإسلامى، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز، قلت.. هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمدا أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينونى على جمع مالى بمكة، وعلى غرمائى، فإنى أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك.

فقاموا فجمعوا لى مالى كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبى وعينه على قريش بالخبر الذى أتى به الحجاج بن علاط، فيهرول إلى الحجاج فزعاً، لكن ليهمس له الحجاج سراً:

احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإنى والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم، يعنى صفية بنت حيى، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

وفى هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمراً، وأنه قد بات فى إمكانه أن يعلن اتباعه له جهراً، حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حلة، وتخلق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والله الذى حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه[٩٤].

وقد وضع هذا الإعلان القاسى قريشاً ورجالها العقلاء فى موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذى هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولدهم وفخرهم بانتصاراته، لكن

---

(٩٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٦، ٤٧.

المؤكد أن نصر خيبر قد قوبل بحماسة قومية انتشرت فى الفيافى مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المؤسسى لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثل فى قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجى وفر لها الأسس الزراعية المستقرة فى خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبى من مزينة وجهينة وبكر عندما دعاهم إلى الحديبية[٩٥]، فقد أخذوا درساً من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التى وزعت فقط على من حضر الحديبية[٩٦].

(٩٥) الواقدى: المغازى، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمى، بيروت، د. ت، ج ٢، ص ٦٢٠.
(٩٦) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩. ص ٤٢.

الباب الثالث

فـــتح الفتـــوح

الإسلام وقاء

«الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم،
حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة»

[خالد بن أُسيد]

وهكذا أمنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكرى لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغانم، كان يتطلب دوماً إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند، ومن ثم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بنى فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذرارى والنساء، وينفل أبو بكر فتاة غاية فى الجمال للصحابى سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكى سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، فى قوله:

> إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو فى آثارهم، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيته على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلنى أبو بكر بنتها.
>
> فما كشفت لها ثوباً حتى قدمنا المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوباً فلقينى

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السوق، فقال لى: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركنى حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت يارسول الله والله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوباً، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركنى، حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك، قلت: يا رسول الله ما كشفت لها ثوباً وهى لك يا رسول الله.

ويشى إصرار الرواية على أن سلمة لم يكشف لها ثوباً، أنها ستنتهى إلى رسول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهل مكة وفى أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتلك المرأة»[1]. وفى هذه الإضافة خلل واضح، حيث لم يكن فى ذلك الوقت تحديداً أى أسارى من المسلمين فى مكة، كما كان العقد قد وقع بالحديبية فى هدنة مدتها من السنوات عشر.

وبعد سرية أبى بكر إلى فزارة خرج عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فهرب الناس وعاد عمر ورجاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بنى مرة فى فدك، ونزل بلادهم واستاق نعمهم لكن لتكر عليه قبائلها ويقتلون جميع أفرادها، ويهرب بشير بن سعيد إلى بيت يهودى يخفيه ويأويه ليعود بعد أيام إلى يثرب مستخفياً، فيعود النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليرسل عليهم غالب بن عبد الله الكلبى وأسامة بن زيد فى سرية تالية، وهناك يدركون فرداس بن نهيك، فيشهر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن أسامة ورفاقه لا يمهلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه.

ويحكى أسامة يقول:

فلما قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل.. فكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت يومئذ[2].

وهنا نجد عودة إلى البدء، أيام كانت الدعوة طازجة فى مكة، تحمل للناس بشرى وسلاماً،

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢١.
(٢) الموضع نفسه.

حيث يعود هنا الأمر يبرز بين العريان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيعلن الأعرابى شهادته بوحدانية الإله ليأمن على حياته وماله، ليصبح ذلك الإعلان فى زمن الهدنة إعلاناً صريحاً من سيد الدولة اليثربية، أنه يكفى للعريان الشهادة للإله بالوحدانية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله، ليصبح للشاهد الجوار والأمان، وتصبح شهادته توقيعاً معلناً على ميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطناً يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يصبح هو فرداً فى جنودها، وهى السياسة التى ستؤتى ثمارها خلال أشهر قليلة، أدت إليها مجموعة غزوات وسرايا جعلت للأمن سوراً بابه الإيمان، حيث يجتمع للنبى خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف محارب.

ولم يلحظ الأتباع فى مبدأ الأمر تلك العودة، لإيقاف الأطماع فى الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضر بالدولة بعد الاعتراف بها رسمياً ضرراً جسيماً، فتأتى سرية أبى حدرد لتؤكد عزم النبى على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها، تلك الشهادة التى تعنى توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهى السرية التى حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

> بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أضم فى نفر من المسلمين منهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، ومعه متيع له ووطب، فسلمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم ابن جثامة فقتله لشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحيا يقرع القاتل، ويؤكد خلل رواية أبى حدرد، حيث توضح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شىء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد منّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليتابع أبو حدرد قائلاً:

> فنزل فينا القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ (٩٤ - النساء)[٣].

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالى سريعاً يهرع، وآن أوان مغادرة أهل

(٣) نفسه: ص ٢٢٤.

مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفى بعقدها، لتثبت لكل العرب، أنها لازالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب، لكنها هذه المرة تحديداً كانت تعلم يقيناً أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هى تعلم أن جميع العربان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجارى، إنما كانت تنازلاً واضحاً ونقصاً فى السيادة لسيادة أخرى منافسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد، فلم يكن المعتمرون أفراداً فرادى، إنما جيش كبير هو فى النهاية ذلك الجيش المعادى الذى بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهر نحو السيادة الدينية، حيث يخبرنا ابن سعد أن عدد المعتمرين قد وصل إلى الألفين عدداً[٤]، وكل تلك المعانى تفصح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقى فى مكة فضولاً وتطلعاً ورصداً، وأن من بقى منهم فى مكة:

صفوا عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال:

رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة[٥].

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العربان، أمر النبى رجاله قائلاً:

اكشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف

وهو ما عقب عليه البيهقى موضحاً الداعى له:

ليُرى المشركين قوتهم وجلدهم..

فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت[٦].

وتصعق قريش مأخوذة، عندما ترى النبى، ذلك الذى حاصرها اقتصادياً وقتل أفلاذ كبدها، وفكك عرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويهل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة، وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم، فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها، وهو ما جاء واضحاً فى رواية ابن هشام وهو يروى لنا المشهد النبوى داخل مكة بقوله:

---

(٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧؛

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

ثم استلم الركن؟!

وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه؟!

.. واستلم الركن اليمانى؟!.

ومشى حتى يستلم الركن الأسود؟!

ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف

ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول:

كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحي من قريش.. حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها(٧).

ومن ثم لزم النبى شعائر قومه، لكنه توجها بالإعلان الجديد، واحتواها وتضمنها فى الأداء العلنى لدولته النبوية ممثلاً فى الأذان الإسلامى:

ولما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نسكه فى القضاء، وداخل البيت لم يزل فيه، حتى أذن بلال الظهر من فوق الكعبة.

لم تسجل صحيفة الحديبية فى بنودها ذلك، لكن بلالاً صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبى العلنى، ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها: أن محمداً رسول الله. لكن ليعقب من بين الواقفين بعيداً عكرمة بن أبى الحكم:

لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول.

ليثنى خالد بن أسيد:

الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة(٨).

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يدخل السرور إلى قلب ابن أخيه نكاية فى الملأ الأموى، فيزوجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، لينكحها وهو محرم، وهو ما تأكد فى قول ابن عباس «إن

---

(٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٩.

(٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٣٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث وهو فى سفره ذلك وهو حرام، وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب .. تزوجها وهو محرم»[٩].

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذى دخل مكة يحجل أمام رسول الله متوشحاً سيفه يطوحه يميناً ويساراً، يسب قريشاً، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مهدداً بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبى، وهو يرتجز قائلاً:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

أنا الشهيد أنه رسوله

قد أنزل الرحمن فى تنزيله

فى صحف تتلى: رسوله

فاليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقتله

ويذهل الخليل عن خليله[١٠]

فيأمره النبى زيادة فى النكاية، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله

نصر عبده

وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده[١١]

وهو ما عقب عليه البيهقى: «وكان يكابدهم بكل ما استطاع»[١٢]

وبانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش، ليقولوا للنبى:

---

(٩) الموضع نفسه.
(١٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.
(١١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٨٧.
(١٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٥.

إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا

فيرد النبى بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟

فيجيبونه الإجابة المعبرة عن مكنونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا[١٣].

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين معبراً عن إمكان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة، فيقول:

يا عاضا ببظر أمه

أأرضك وأرض أمك هى دونه[١٤]؟

لكن ليتدخل سيد الخلق المطهر، ويسكت سعداً، ويفى بالعهود والمواثيق، مكتفياً بذلك الإعلان العملى السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتمار المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويصيب أنعامهم وسبياً منهم، لكن هذا الجمع الهوازنى كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدم وفدهم على النبى يعلن إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبى كل أملاكهم وسباياهم، فى بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم محدد المعانى.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتغير على قضاعة بذات أطلاح، المستندة على أسنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاعة الشامية ما كانت ترى فيهم سوى كرة عربية مثل كرات عهدتها على حدود الإمبراطورية، بل وتعمل سيوفها فى أفراد السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يعلن الرسول أنه قد آن الأوان لمهاجمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التى لم يقدروا عليها وأحاط بها الله.

---

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٠.

(١٤) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٧٧.

وعلى رأس السرية يوفد النبى زيداً بن حارثة فى ثلاثة آلاف مقاتل، وكان النبى يعلم جيداً ماذا يواجهون، ويعلم سلفاً النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتى، ولعلمه - صلى الله عليه وسلم - بما هو مقدم عليه قال فى رجاله: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليرتضى المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم[١٥].

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبى دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته، فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والموالية لها، وهو الهول الذى يصوره أبو هريرة قائلاً:

شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به[١٦].

وكان طبيعياً أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيراً من مقاتلى المسلمين المقدمين، حتى تناول خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقى من الجيش الذى عاد ممزقاً إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه فى وجوههم يقولون:

يا فرار، فررتم فى سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفرار،

لكنهم الكرار إن شاء الله.

إعلاناً عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرات آتية وكرات، وأن الوعد النبوى قائم كعلم يرفرف لا يتراجع، يردد فى مسمع العربان: «والذى نفس محمد بيده، لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذى ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء، بعد أن رآهم النبى فى رحلة سماوية فى رؤياه، حيث اطلع عليهم فى فردوس الرحمن «فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

---

(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤١.

(١٦) الموضع نفسه.

هذا جعفر بن أبى طالب

وزيد بن حارثة

وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفوا شرفاً آخر، فإذا بنفر ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هـذا: إبراهـيم

وموسى

وعيسى

عليهم السلام، وهم ينتظرونك»[١٧].

وإعمالاً للوعد لا ينتظر النبى طويلاً، فقط يغير فى التكتيك، فيرسل على العريان المتحالفين مع الروم من بلى وقضاعة سرية يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيمده النبى بأبى بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأن الأوان بعد فيعودون دون أية مغانم أو فتوح[١٨].

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تعتبر غزوة مؤتة هزيمة فى نظر عرب الجزيرة، ولا عدّها النبى كذلك، ولا حتى قريش، لأن مجرد خروج العرب لمجابهة الروم، كان أمراً بعيداً حتى عن الأحلام، لقد كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم فى معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، كان بلا شك انتصاراً وحده وبحد ذاته.

---

(١٧) نفسه: ص ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠.

(١٨) نفسه: ص ٢٧٢.

مكة: فتح الفتوح

«والله يا أبا الفضل:

لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً»

[أبو سفيان]

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقرى زمناً إلى ما قبل الدعوة، لتطلعنا على السر وراء نقض معاهدة الحديبية قبل موعدها بزمن طويل، فتحكى لنا عن مخاصمة ثأرية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر، كان سببها أن رجلاً من بكر خرج تاجراً، فلما توسط ديار خزاعة، عدوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارته، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بثأرها برجل من خزاعة. فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليطيح بالرؤوس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلى، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب[19]، وهنا تأتى الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول فى عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول فى عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة فى حلف محمد، وهو الأمر الذى لم يكن جديداً ولا خافياً، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها، ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعاً، بعدما أقصاهم قصى الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها

(١٩) ابكار السقاف: نحو آفاق.. سبق ذكره، ج ٢، ص ١٥٥٥.

لهم، ومن ثم كان منطقياً تماماً، أن تدخل بكر فى حلف قريش.

وإبان هدنة الحديبية، ولم يمض على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مقاتلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الديل أحد بطونها فرصة من خزاعة، لتثأر لرجلها الديلى، فيطارد بعض رجالهم خزاعياً عليل القلب مفئوداً اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يدعى تميم، ولما ركض الرجلان أمام مطارديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميم قائلاً: «.. يا تميم انج بنفسك، فأنا والله لميت، قتلونى، أو تركونى، لقد أنبت فؤادى»، وينطلق تميم، ويموت منبه، وتضيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يفصح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول: إن الأمر قد هاج بين القبيلتين، وأن بعضاً من قريش أمدّوا بكراً بالسلاح، وربما قاتلوا معهم متخفين[٢٠].

هذا بينما هناك رواية أخرى تؤكد أن من أشعل أوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيون، وذلك فيما رواه البلاذرى فى قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عهده وعقده، رجلاً من كنانة وكانوا فى عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فوثب عليه وشجه، فاقتتلت خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بنى كنانة وخرج وجوههم يقاتلون متنكرين»[٢١].

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعى المفئود، فإن الموقف قد تصاعد بموته، فخرجت خزاعة فى أربعين راكباً وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعى، ليقدموا على النبى فى يثرب، وهو جالس فى مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعراً تحريضياً طالباً نصرة النبى فى قصيدة طويلة جاء فى بعضها:

يارب إنى ناشد محمداً	حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والداً	ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتداً	وادع عباد الله يأتوا مددا

وينصت سيد الخلق للرجل حتى ينتهى من قصيده الشاكية المستنصرة، ليقف النبى وسط الناس، ويجيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نُصرت يا عمرو بن سالم[٢٢].

---

(٢٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٤، ٨٥.

(٢١) البلاذرى: أنساب الأشراف.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢٢) نفسه: ص ٨٦.

ثم يلتفت إلى الناس، معلناً نصر بنى كعب من خزاعة قائلاً:

لا نُصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى

ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويشير إليها مردداً:

إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب

ويروى لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهى تتسارع فى قوله:

> وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى من حوله من العرب، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف.. ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم فليصم[٢٣].

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما يجرى، فتأخذها الرعدة، وترسل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان صخر بن حرب إلى زعيم يثرب، لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشاً لا دخل لها بثأر كنانة، وأن قريشاً على عهدها باقية، وبنود صحيفة الحديبية مستمسكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى ركبهم عائداً من المدينة، وينكرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث بهائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى يثرب، فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خطاه مسرعاً، مقرراً أنه سيمد العهد ويوطد العقد بين محمد وقريش.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التى تزوجها النبى بعد عودتها من مهاجرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبى فتطويه عنه فيقول: يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيبغت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبى، ويجلس أمامه، ويكلمه، ويكلمه، ويشرح، ويفصل فى بنود العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدها، ويظل الرجل يتكلم والنبى صامت لا يرد عليه بشيء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذى يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مخيف ومريب، فيقوم زعيم قريش يجرجر كرامته إلى بيت أبى بكر ينتظره ثم يكلمه، ليتوسط لدى

---

(٢٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٧.

النبى، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل، فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وانفعال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به..»، ولا يدرى الرجل أين يذهب، فيتذكر علياً، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبى يدب بين يديها، ليقول لعلى:

يا على، إنك أمسّ القوم رحماً، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لى عند رسول الله. فيقول له على: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مشيراً إلى طفلها يائساً:

يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهداً كبيراً لتكتشف أن الرجل يهذى فترد عليه:

والله ما بلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله.

ويسقط فى يد الرجل بعد أن سقط إعياء ليتوجه بالكلام قانطاً إلى على قائلاً: «يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى»، ولا يجد على ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً»، ثم يذكره بمكانته قائلاً: «إنك سيد بنى كنانة، قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك»، ويسأله أبو سفيان: «أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟»، فيرد على: «لا والله ما أظنه، لكنى لا أجد لك غير ذلك»، وينهض أبو سفيان يلملم كرامة كنانة المبعثرة ليدخل المسجد ويقف وسط الناس ينادى والعيون تتشظى لهباً حوله: «أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس»، وحتى لا يسمع مايكره يخرج مسرعاً إلى بعيره ميمماً شطر مكة»[٢٤].

وما أن يغادر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً ربه والناس تسمع:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها.

ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مقاتل ينزل بهم مر الظهران، «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يدرون ما هو فاعل»، هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة متجهاً للمدينة، ليفاجأ بغتة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيردد قائلاً:

---

(٢٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٦، ٨٧.

واصباح قريش

والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة

قبل أن يستأمنوه

إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويحكى أنه أخذ بغلة النبى البيضاء، وخرج يجوس بها ليلاً حول الجيش قرب مكة، عساه يجد لمكة مخرجاً، فيسمع اثنين يتحاوران، يعرف فى صوتيهما أبا سفيان وبديل بن ورقاء، إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب، فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا ينادى العباس أبا سفيان، ويلتقى العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليسرع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الناس، واصباح قريش والله» فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فداك أبى وأمى»، فيقول له العباس: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله حى فأستأمنه لك».

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبى ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى لأضرب عنقه» لكن يقتحم العباس الخيمة مسرعاً قائلاً: «يا رسول الله إنى قد أجرته»، وهنا يقول النبى: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به»[٢٥].

وهكذا ينزل أبو سفيان فى ضيافة العباس، ضيافة هى إلى الأسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفاً منتظمة، فيذعر الرجل ويظنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أأمروا فى شىء؟» فيرد العباس «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة».

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مقاتل خلف الزعيم، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يتلو فينصتون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول:

ما رأيت كاليوم طاعة

قوم جمعهم من ههنا وههنا

---

(٢٥) نفسه: ج ٤، ص ٨٧ : ٩٠.

ولا فارس الأكارم

ولا الروم ذات القرون

بأطوع منهم له[٢٦].

لم يدرك الرجل حتى الآن وهو فى فهمه القبلى يرفل متخلفاً، أن هناك أمراً أعظم من القبيلة، قد جمع الناس من ههنا وههنا، وتوجه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبى فيفجأه بالسؤال:

ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

يقيناً يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقيناً، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم، فالله لا إله سواه، لكن هناك الأرباب الأدنى درجة من الإله، تلك التى تشفع للناس عند الله، ومن ثم كانت إجابة أبى سفيان:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك،

والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره

لقد أغنى عنى شيئاً بعد.

وهنا ينتقل النبى إلى الشق الثانى من السؤال، وهو الشق الذى لا شك سيشق على أبى سفيان، فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربى فى التعبير عن الدواخل ليرد قائلاً:

بأبى أنت وأمى

ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك

أما هذه

والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيرت، حتى أساليب التعامل العربية، لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثوى الأخير، فيسرع العباس ينبه الرجل بقوله:

---

(٢٦) نفسه: ج ٤، ص ٩٩.

ويحك

أسلم واشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله

قبل أن تضرب عنقك

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويسلم الرجل[٢٧]، ثم يقول متلعثماً محاولاً إظهار تمسكه بدينه بهيبته:

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة، فيرد عليه بصوت عال ساخراً ضاحكاً ليسمعه:

نخـرا عليـها

فيقول أبو سفيان: «ويحك ياعمر إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم»[٢٨].

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

كان الأمر إذن مقضياً، وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها، حتى أن العباس رأى أن يجعل زعيم قريش شيئاً بعدما لم يبق له شيء.

ويرى النبي أنه لا بأس من شيء لأبي سفيان فيقول: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ومن ثم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هي أوامر بحظر تجول عند دخول الجيش الإسلامي مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبي لعمه العباس: ياعباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها»، ويأمر النبي استعراض القوة، وبينما العباس مع أبي سفيان عند مضيق الوادي، يروي لنا:

مرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول: مالي وسليم، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفدت القبائل..

---

(٢٧) الموضع نفسه.

(٢٨) الموضع نفسه.

ومر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء، لكثرة الحديد وظهوره فيها.. منها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المهاجرين والأنصار.

قال:

ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة

والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن،

قلت: النجاء إلى قومك[٢٩].

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يقسم النبي جيشه أربعة ألوية كبرى ليدخل مكة، ونقرأ الخبر عند أبي هريرة وهو يحكي:

فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر وأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتيبته، وقد وبشت قريش أوباشها.. فنظر فرآني، فقال: يا أبا هريرة، فقلت لبيك يا رسول الله، قال: اهتف بالأنصار ولا يأتيني إلا أنصاري، فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيديه، إحداهما فوق الأخرى: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا، فقال أبو هريرة: فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان:

أُبيحت خضراء قريش

ولا قريش بعد اليوم[٣٠].

ويهرع أبو سفيان بالفزع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم

---

(٢٩) نفسه: ص ٩٠.

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٥.

فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الجميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فقد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[٣١].

وبدأ حظر التجول فى أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراده النبى أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديداً أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيى الإسلام ورجاله، ليستبيح بهم مكة حيث ثروات الملأ التى تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد الحسان اللائى يرفلن فى النعيم. ومن ثم تصور سعد بن عبادة أن ما صنعه الرسول من استعراض للقوة والعنف أمام أبى سفيان، أمر نهايته استباحة مكة فخرج يحمل راية القيادة أمام الجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثربى إزاء مكة، هاتفاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبى، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعراً يفصح عن المشاعر قائلاً:

يا نبى الهدى إليك لجا	حى قريش ولات حين حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القـ	ـوم ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعداً يريد قاصمة الظـ	ـهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغـ	ـيظ رمانا بالنسر والعواء
فلئن اقتحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء يا أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش	بقعة فى أكف الإماء[٣٢]

وهنا ينادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سعداً ليأخذ منه الراية، ويعطيها لأكثر المهاجرين رأفة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلى بن أبى طالب، وخلف على دخل الجيش فى رسالة مطمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون، لتتجرأ النساء فقط يكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويقفن فى دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق

---

(٣١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.
(٣٢) نفسه: ص ١٠١.

الخمر يضربن بها وجوه خيل الفتح فى دعوة واضحة تعلن الاستسلام للفاتحين، ويلخص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمى فى قوله:

> قام نساء مشركات فى وجوههن، يلطمن وجوه الخيل بالخمر، وقد نشرن شعورهن، فرآهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى جنبه أبو بكر، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان[٣٣]؟

لينطلق حسان مستجيباً يصف المشهد شعراً يقول:

تظل جيادنا متمطرات	يلطمهن بالخمر النساء
فإن تعرضوا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وقال الله لقد سيرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى	مغلغلة قد برح بها الخفاء
بأن سيوفنا قد تركتك عبداً	وعبد الدار سادتها الإماء[٣٤]

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المرحبات، واللهم إلا مجنبة خالد بن الوليد، الذى لقيه بعض المتحمسين من شباب قريش فى جمع عند الخندمة فقتل منهم ثمانية عشر وفر البقية، وعلم النبى فقال: ألم أنه عن القتال؟ فأجابه مجيب. خالد قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير، ومن المسلمين لم يقتل غير رجلين خطأ لسريانهما فى أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهرى، وخالد الأشقر الخزاعى[٣٥].

ودلف النبى إلى البيت، وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة، ذلك المفتاح التاريخى الذى انتقل عبر القرون من أياد إلى أيادى فوق دماء كثيرة، لينتهى إلى سليل البيت الهاشمى، ويمسك النبى بالمفتاح رمز السيادة جميعاً، ويفتح باب الكعبة ليصلى بداخلها ركعتين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذاً بعضادتيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلاً:

> لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

---

(٣٣) ابن الأثير: الكامل .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٤٧.
(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٠٧.
(٣٥) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج ٢، ج ٢، ص ٩٨.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...﴾ (وقرأ الآية كلها).

يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد:

خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.

رد ما كان جوابه إلا:

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويدعو النبى عثمان بن طلحة، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بنى طلحة تالدة دة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم»، بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد يضاً ضعيفاً فى بداية دعوته بمكة، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملأ القرشى من دة ليطالع ما بداخلها، فمنعه عثمان بن طلحة ورده رداً غليظاً، ونال منه، ولا شك يتذكر الآن يستلم المفتاح من محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد أن أصبح سيد السادة، ما سبق وقاله له مد يومذاك: «يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى يوماً، أضعه حيث شئت»، ولا شك أيضاً لم يزل ذاكراً بقية الحوار عندما أجابه: «لقد هلكت قريش يومئذ وذلت» فرد عليه النبى: «بل رت وعزت يومئذ»[٣٦]. وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق.

ثم ينادى النبى عمه العباس بن عبد المطلب ليقيمه كما كان على منصب السقاية قائلاً: طيتكم ما ترزأكم ولا ترزؤنها»، ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعى ويأمره بتجديد أنصاب عبة، ثم يأمر بلال بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر، ليرفع شعار دولة الإسلام مؤذناً به، ـا يردد النبى: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، وكانت بنت أبى الحكم تردد آخر وهى تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسنؤديها، ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل حبة»[٣٧].

) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣١.

) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٩٩، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١٤.

وبعدها خرج النبى إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب فى يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك، ورأى فى سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزيّداً ورواية ضعيفة(٣٨).

وبعدها يدخل النبى إلى قبة بنوها له، وهناك يصدر أوامره بقتل نفر سماهم بالاسم، حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، منهم جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء النبى، فقتلت واحدة واستؤمن للأخرى من النبى فعفا عنها، وسارة وهى جارية كانت تؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استؤمن لها بدورها، والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها، وعبد الله بن خطل الذى أسلم فأرسله النبى يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركاً، وقد قتله سعيد بن حريث، ومقيس بن صبابة الذى ذهب إلى يثرب مسلماً، ثم قتل أنصارياً ثأراً لأخيه ثم عاد إلى قريش مشركاً، وقد قتله نميلة بن عبد الله، وعكرمة بن أبى جهل، وقد جاءت به امرأته للنبى فاستأمنته له(٣٩).

كذلك صدر الأمر النبوى بقتل الشاعر عبد الله بن الزبعرى السهمى؛ لأنه كان ممن يهجو النبى بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومى زوج أم هانىء بنت أبى طالب إلى نجران، وهناك أقام هبيرة مشركاً حتى مات، وعاد ابن الزبعرى إلى النبى معتذراً متحبباً بقصائد المديح، فعفا عنه، كما صدر الأمر بقتل وحشى الحبشى لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبى فى أحد، لكنه جاء للنبى معتذراً مسلماً فقبل منه، كذلك قبل النبى اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان(٤٠).

وممن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبى سرح، لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحى للنبى، ثم ارتد إلى مكة مشركاً، وقد جاء به عثمان إلى النبى يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير راوياً: «فلما جاء ليستأمن له صمت عنه الرسول طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا ـ حين رآنى قد صمت ـ فيقتله؟! فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبى لا يقتل بالإشارة»(٤١).

---

(٣٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٠.

(٣٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩٢، ٩٣، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف، ج ٤، ص ١٠٤.

(٤٠) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٤١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٩٦.

يقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحداً من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبى سرح
عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصارى حاضراً، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبى
سارى: «هلا وفيت بنذرك؟ فقال: يا رسول الله وضعت يدى على قائم السيف أنتظر منك أن
ع لى فأقتله، فقال النبى: ليس لنبى أن يومئ»[٤٢].

وسط زخم الأحداث، وبين الحشد المتجمع حول قبة النبى- صلى الله عليه وسلم- جاء أبو
شقيقته، التى كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة
ى خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبى، وأمسك أبو
يد شقيقته ينادى جند الله: «أنشدكم الله والإسلام طوق أختى، فلم يجبه أحد، فقال لأخته: أى
، احتسبى طوقك، إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل»[٤٣].

تنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلاً منها بثأر قديم، وهنا يغضب سيد الخلق
، ينادى فى الناس:

يا أيها الناس:

إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد يكون بعدى، ولم تحلل لى إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، لقد كثر القتل[٤٤].

هكذا، وقفت الأنصار دهشة، كما وقفت قريش أيضاً مأخوذة، فالنبى يكف أيدى الأنصار عن
ويكف أيدى الناس عن بعضهم البعض، ويعلن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويطلق أهل
ون شروط، ويمارس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر
د وتقديسه، لتتساءل الأنصار متوجسة بالهواجس عما سيئول إليه الأمر، وهل من الممكن
بعد أن تحرك رحمة لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله-

---

ن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٢.
ن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٩١.
نسه: ص ٩٤، ٩٥.

صلى الله عليه وسلم - : «معاذ الله، إنى عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: «والله ما قلنا الذى قلنا، إلا للضن بالله ورسوله»(٤٥).

وبعدها يصعد النبى إلى الصفا، لتقف مكة فى طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليلقى كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومبايعة الرسول عليهم سيد أو رسولاً، بينما يجلس عمر ابن الخطاب أسفل مجلسه «يأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله»(٤٦).

---

(٤٥) نفسه: ص ٩٥، انظر أيضاً ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

«اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»

[النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ]

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب
وسيطة جميعاً، تلك التى كانت قائمة فى فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء لمن هم فى الأرض
ن عباده، وسقط عمود أساسى من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة وبالتجارة، حيث كانت
ك الأرباب أرباباً للقبائل الضاربة فى بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذباً لأتباعها
حو المركز التجارى المكى، لمزيد من الرواج التجارى، وإثباتاً لسيادة الإله المكى الأعلى
سماوى على بقية الأرباب، بما يحمل ضمنياً التسييد القرشى على بقية القبائل. ومن ثم سقطت
وساطات ودمرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذى جاء تدميراً للرموز القبلية المتعددة وصهر
ك القبائل جميعاً فى منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من
حد إلا بإذنه، وقد أذن بذلك لصفيه النبى القرشى كشفيع أوحد، لتنتقل حالة التشتت القبلى
ساعى نحو التوحيد بتماثيل متجاورة فى الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات فى
خص سيد أوحد من قريش هو النبى عليه الصلاة والسلام، لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم،
ينوب عنها جميعاً سيد الخلق سيداً للعرب وشفيعاً أوحد للإله الأوحد فى الدولة المتوحدة الموحدة.

وإعمالاً لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة فى محيط الجزيرة،

وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها فى ناحية نخلة، ذلك الصنم الذى اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر، ليفكك بذلك هذا التحالف القبلى السابق بين تلك القبائل ويصهرها فى منظومة الدولة.

وتروى لنا كتبنا الإخبارية أن خالداً انتهى إلى العزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مقدسة، ورجع إلى النبى، لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تحاول التأكيد على ما كان وراء العزى من قوة غيبية، لكنها قوة ضعيفة مخيفة شيطانية، فتسوق رواية تحكى أنه بعد عودة خالد إلى النبى سأله النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما رأيت؟ فيرد أنه لم ير شيئاً، فيأمره النبى بالعودة مرة أخرى إلى العزى، ولا نتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهى تؤكد أن النبى كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فيعلوها خالد بالسيف وهو ينادى: ياعزى كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك، ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فينكشف له ما فى البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبى، ليعقب الرسول قائلاً: تلك العزى ولا تعبد أبداً(٤٧).

ويعود النبى فيرسل خالداً فى سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ الإسلام وقاء وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيعلن النبى تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله، لكسره تلك القاعدة الأساس فى بناء الدولة، حيث خرج خالد برجاله المقاتلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعاً فى المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بنى جذيمة، وإعمالاً لمبدأ الإسلام وقاء يؤكد ابن كثير المعنى ذلك فى قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة.. **بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً**، ومعه قبائل من العرب»(٤٨).

ويروى الطبرى أن بنى جذيمة ما أن رأوا خالداً حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح

فإن الناس قد أسلموا(٤٩).

وهو النداء الذى يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعى الشعور بالأمان ووضع السلاح، ويعلمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفاً قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح فى الحوار الذى ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟ قالوا:

---

(٤٧) نفسه: ص ٣١٤، ٣١٥.

(٤٨) نفسه: ص ٣١١.

(٤٩) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ن قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها، قال: فما بال السلاح
؟ قالوا: بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا
، فوضعوه، فقال لهم: استأسروا، فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى
ه»[٥٠].

لفر هنا إشارة لا تفوت قارئ مدقق، حيث تجمع كتب الأخبار أن بنى جذيمة عندما رأوا
ن الوليد، صرخ أحدهم واسمه (جحدم) صرخة الفزع ينادى قومه محذراً الاستجابة لخالد:

يا بنى جذيمة إنه خالد

والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار

وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق

والله لا أضع سلاحى أبداً.

خذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن
فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم»[٥١].

، يبدو أن (جحدم) هذا كان ذا وعى نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينس أبداً ذلك الأمر
عاه للفزع عندما رأى خالداً، ويبدو أنه الأمر الذى لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج
ـذيمة، ذلك الأمر الذى يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض
قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

ـان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن
، بن زهرة، وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجاراً إلى اليمن..
لوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر- كان قد هلك باليمن- إلى ورثته، فادعاه
ـهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا
ـقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عوف، والفاكه
يرة، فهمت قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا،
ا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال،
ـريش ذلك ووضعوا الحرب»[٥٢].

سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٣٩.

كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١١.

هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١١١.

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأراً عند بنى جذيمة، بعمه الفاكه بن المغيرة، ولم يثق الرجل فى أن الإسلام قد غير شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه موقنين من السلامة فى النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العربان وطلقاء قريش فقد نفذوا الأمر على الفور، واستحر القتل بليغاً فى الأسرى.

وفى مقتلة مسلمى جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب رائعة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى إذ يقول: «وأدركنا الظعن - النساء - فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وضيء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم فى خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بى الظعن فى أسفل الوادى ثم تقتلونى، قلنا: نفعل، فعارضنا الظعن فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمى حبيش على فقد العيش، فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، قال: سلام عليك دهراً وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثاً وتراً، فقال:

إن يقتلونى ياحبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
فأنت التى أخليت لحمى من دمى ... وعظمى، وأسبلت الدموع على نحرى

فقالت له:

ونحن بكينا من فراقك مرة ... وأخرى، وواسيناك فى العسر واليسر
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى ... جميل العفاف والمودة فى ستر

ليجيبها الحبيب المفارق:

فلا ذنب لى قد قلت نحن جيرة ... أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق

... فقدموه فضربوا عنقه[٥٣].

فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه»[٥٤].

---

(٥٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٨.

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بنى جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم، لحق بهم عشقاً وهياماً فى بنتهم حبيش، ومن ثم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير أن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «إنى لست منهم، إنى عشقت امرأة فلحقتها، فدعونى أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: اسلمى حبيش قبل نفاد العيش.. فقالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبروه بالخبر، فقال: **أما كان فيكم رجل رحيم؟**»[٥٥].

وكان أول المحتجين على فعل خالد بمسلمى جذيمة ذلك الصحابى الجليل عبدالرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذى عدت عليه جذيمة فى الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالداً يقول له غاضباً: «لقد عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام»، فأراد خالد أن يشرك الصحابى الأول فى الجريمة الشنيعة، ويلبسه جميلاً غير جميل بقوله له: «إنما ثأرت لأبيك»، لكن ليرد عليه عبد الرحمن بن عوف مكذباً محتجاً فاضحاً:

كذبت

فلقد قتلت قاتل أبى

لكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة[٥٦].

وأخذ المسلمون يتلاومون فى أمر قتلى مسلمى جذيمة المستسلمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغاً، فانتفض رافعاً يديه حتى رأى الناس ما تحت إبطيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغى أن يكون وقاء لأهله، مردداً من المرات ثلاثاً صارخات:

اللهم إنى أبرأ إليك

مما صنع خالد بن الوليد[٥٧].

ثم أردف هتافه الملتاع الغاضب الحزين بديات القتلى يرسلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى

---

(٥٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٤.

(٥٦) نفسه: ص ٣١٢.

(٥٧) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٦٧.

ترى العرب ذلك واضحاً، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول: إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمى جذيمة، وأنه «قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيتهم، وقتل أكثر الأسرى أيضاً، فمع هذا لم يعزله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل استمر به أميراً.. لهذا لم يعزله أبو بكر فى خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن فى سيفه رهقاً، فقال له الصّديق: لا أغمد سيفاً سلّه الله على المشركين»(٥٨).

---

(٥٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص٣١٣.

غــزوة هــوازن

«يغفـر اللـه لرسـول اللـه، يعطـى قريشـاً ويتركنـا، وسـيوفنا تقطـر مـن دمائهـم»

[الأنصـــار]

لم تدرك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التى لاتقل عنها شأناً، أن الأمر يسير إلى نتائجه التاريخية، ولا أدركت كلتاهما أن وحدة العرب فى جزيرتهم قد انعقدت فى صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تدرك القبيلتان أن غزوات الجاهلية فى سبيلها إلى زوال، حيث يحكى لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن فى وادى أوطاس بجبال حنين، فيقول: «وكانت فى شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك ابن عوف النصرى، من بنى نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة، وقالوا: لامانع له من غزونا، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف»(٥٩)، أما الطبرى فيعلمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظناً منهم أنه يريدهم هم(٦٠)، وقد ذهب البلاذرى مذهب ابن الأثير فى قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس

(٥٩) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦١.
(٦٠) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٠.

قد تجمعوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقالوا: قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا والرأى أن نغزوه»[٦١].

وعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرعب الذى أخذ هوازن، ودفعها دفعاً لتخرج فى حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائى من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم، حتى يجد كل رجل منهم فى نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعاً للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالباً بذلك روحاً فدائية ونصراً لا يشك فيه.

وخرج النبى برجاله من مكة غازياً لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموى تحديداً طمأنة واضحة، تبليغاً بمكانتهم ودورهم فى الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، وكان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة[٦٢]، منبهاً بذلك إلى دور الجيل القرشي المقبل. ومطمئناً لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادى والتجارى، بل والدينى الذى أفرزه ظرفها التاريخى، وهو ماتؤكده رواية ابن الأثير حيث يقول: إن عتاب الأموى قد حج بالناس هذا العام، «وحج الناس تلك السنة على ماكانت العرب تحج»[٦٣].

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين فى اثنى عشر ألف مقاتل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد إنضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبى وهو على رأس ركبه العظيم، تهتز تحته أرض البوادى تسمع العربان:

لن نُغلب اليوم من قلة!![٦٤].

وكانت كلمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معبرة تماماً عن واقع موضوعى واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تقاس عداً على جند الله الذين يمثلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة فى تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المقاتل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبى فى رجاله هاتفاً:

من قتل قتيلاً فله سلبه[٦٥].

---

(٦١) البلاذرى: أنساب الأشراف.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٤.
(٦٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣١٣.
(٦٣) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٢.
(٦٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.
(٦٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

وجاءه رجل من عيونه المتقدمين يحمل أخبار العدو يقول: «يارسول الله، إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشائهم قد اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال:

تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله[٦٦].

لكن على طريق هوازن، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حداثة عهد بالإسلام من العربان والطلقاء، حيث يمرون بشجرة مقدسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط، وعندما يرونها يقولون للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية فى الجاهلية، ومن ثم لم يدرك هؤلاء مغزى التوحيد القومى والتوحيد الألوهى الذى لايقبل شراكة، وهم من لاشك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ (١٤/ الحجرات)، لذلك كان رد رسول الله عليهم المستنكر: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة، لتركبن سنن من كان قبلكم»[٦٧].

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصر إن حدث غير تاريخ الجزيرة والعالم، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة، وعلم الأسباب ودرس الخطط، ليفعل ماسبق وفعله المسلمون أعوانها، فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع متميزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتى تنحدر إلى قعر فسيح يسمى أوطاس، ووزع رجاله فى مواقع مختارة بعناية، وهيأهم مابين رام وفارس وراجل ودارع، ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم وبعيرهم وشياههم وأموالهم، وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل ومافيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرها، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسما يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابى جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

فلما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه، قد تهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا

---

(٦٦) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٦٧) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ١٨ باب لتركبن سنن الحديث ٢١٨٠.

الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لايلوى أحد على أحد[68].

الآن ينهزم جيش دولة النبى وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام فى جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات، وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذى انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التى تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار، تفر الكثرة أمام القلة، ويتبعثر الاثنى عشر ألف مقاتل منهزمين يحاولون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تئز ورماح تطارد، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولا حتى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالا عنيفا، ليقف مكانه ثابتا، فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مبتغاها أو لا حياة، ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فراراً من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعا عن جنة الشهداء ونار الكافرين، سوى رابطة الدم وحدها، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بنى عبد المطلب وأبى طالب، ثمانية فقط من الاثنى عشر ألفاً وقفوا ترسا واحداً فى حلقة حول ابن أخيهم، بينما النبى يهتف فى رجاله المؤمنين[69]:

أين أيها الناس؟!

هلموا إلىّ

أنا رسول الله

أنا رسول الله

أنا محمد بن عبد الله

ويعقب ابن كثير على النداء النبوى:

ولاشىء!!

وركبت الإبل بعضها بعضا.

أو

وانكفأ الناس منهزمين

لايقبل أحد على أحد[70].

---

(68) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج 2، ص 262، 263.

(69) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج 4، ص 141.

(70) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ص 325، 326.

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهاربين وسنابك خيولهم، يلمح أحد الفارين عمر بن الخطاب فيسأله: ماشأن الناس؟ ليجيبه عمر معبراً عن مدى اللوعة واليأس: أمر الله!![71]

وانتحى أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكاناً آمناً يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفزعين، ليفصح لسانه عن مكنون صدره، فيهتف معبراً عن فرحه العظيم:

لاتنتهي هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذى خرج من مكة مع النبى وهو على شركه، وكان يظن أن ماحققه محمد إنما بفضل السحر، فقد علا صوته وهو يعلن سعادته جهيرة بما يرى ويصرخ:

ألا بطُل السحر اليوم!!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، معبراً عن قبليته العميقة وعصبيته المتجذرة لأهله، يقول: «اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يربنى رجل من قريش، أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن»[72].

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة»[73]، فيمر عليهم رجل من قريش ينادى صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لايجتبرونها أبداً»، ليرد صفوان مكرراً معبراً عن أسفه مما يسمع من بنى قريش: «تبشرنى بظهور الأعراب؟ فوالله لرب من قريش أحب إلى من رب من الأعراب»، وهى ذات المشاعر العشائرية التى عبر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «والله ما أخرجنى إسلام ولامعرفة به، ولكنى أبيت أن تظهر هوازن على قريش»[74].

أما النبى الذى وقف يشاهد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء

لاتعبد فى الأرض بعد اليوم[75].

---

(71) نفسه: ص ٣٢٩.
(72) نفسه: ص ٣٢٥.
(73) نفسه: ص ٣٢٨.
(74) نفسه: ص ٣٢٩، ٣٣١.
(75) نفسه: ص ٣٢٦.

وكان لابد من عمل سريع، وتصرف حاسم، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن، يرفع الراية ويمسك برمح طويل لايحمله إلا رجل شديد المراس، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف، وهنا يرفع النبى إصبعه مشيراً إلى حامل الراية، ويتبع على بن أبى طالب الإشارة ليهوى بسيفه على عقب الفرس، فيسقط فيقتله فتسقط الراية، وترتبك هوازن.

ثم يجول المصطفى بعينيه يبحث بين الهاربين عن خئولته من أهل الدم والحرب والحلقة اليثارية، ثم يهتف بعمه العباس فجأة، بينما هو واقف يمسك بزمام بغلة الرسول دلدل.

ياعباس؛

نادِ: يامعشر الأنصار

يا أصحاب الشجرة

كان النداء نداء رحم وخئولة، وتذكيراً بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة، وتنبيها إلى عقد العربى وجواره المعقود بين الأنصار والنبى فى العقبة، واستشرافا لشهامة النجدة والمروءة، واستنفاراً للنخوة العربية، ويستمر العباس ينادى والنبى يلقنه:

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية

الله، الله

الكرة على نبيكم

يا أنصار الله

يا أنصار رسول الله

يابنى الخزرج

يا أصحاب سورة البقرة

يا أصحاب السمرة(٧٦)

نداء لمس الحواشى وهز ما بين الجوانح ولجّت به الخئولة فى تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها،

---

(٧٦) نفسه: ص٣٢٨، ٣٢٩.

فقالوا:

يالبيــكاه

يالبيــكاه(٧٧)

ويمضى العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبى بعهد وعقد عربى، ليصف لنا المشهد الثانى للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهداً على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

> فيذهب الرجل منهم يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بعيره، فيخلى سبيله فى الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ماكانت: يا للأنصار ثم جعلت أخيراً ياللخزرج(٧٨).

وصمد المسلمون، وبدأ الفارون فى العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامى يشتد مرة أخرى ليعمل عمله فى هوازن وثقيف لينتحى النبى يمينا وحوله آل بيته الهاشمى، ويقول من معتلاه: الآن حمى الوطيس.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة فى تعقيبه على دورة الدائرة على هوازن فى وادى أوطاس، وقوله: الآن حمى الوطيس، والوطيس فى شرح السهيلى هى نقرة فى حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم، ويعقب بأنها من الكلم التى لم يسبق النبى إليها أحد(٧٩).

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن يقتل من قدر عليه، فحنق المسلمون عليهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فنهى عن قتل الذرية»(٨٠) وماهى إلا سويعات حتى جمع المسلمون من الأسرى مايربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قتلوا(٨١)، ووقف المسلمون يحصون غنائمهم التى وصلت أربعة وعشرين ألف بعير،

---

(٧٧) نفسه: ص ٣٢٩.

(٧٨) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٧٤.

(٧٩) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ص ١٣٨.

(٨٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.

(٨١) الطبرى: تاريخ.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٨٢.

وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة[٨٢]، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتم حبسها فى الجعرانة حتى ينظر فى أمر توزيعها على أفراد الجيش المنتصر.

هذا بينما كانت أم سليم تعبر عن مشاعر السخط على الخونة فى الجيش والطلقاء من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المبشرة لمن ستكون الكرة، فتقول للنبى: «يارسول الله اقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»[٨٣]. وفاضت مشاعر حسان بن ثابت الأنصارى ضد الطلقاء، فقال فى كلدة بن الحنبل الذى كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

رأيت سواداً من بعيد فراعنى ... أبو حنبل ينزو على أم حنبل

كأن الذى ينزو به فوق بطنها ... ذراع قلوص من نتاج ابن عزهل[٨٤]

---

(٨٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(٨٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٦.

(٨٤) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٢٤.

حصار الطائف

«والله لنحن أذلّ من العبيد»

[عيينة بن حصن]

الطائف، مدينة الثقفيين الكبرى التى بلغت شوطا عظيما فى التمدين، كانت المدينة التى لاتقل شأنا عن مكة، ونافست يثرب طويلا على صدارة الموقع الثانى بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول، مستمدة ذلك من قوة أدت إليها عوامل عدة، فهى من أعدل مناطق الجزيرة مناخا وأكثرها خصوبة وزرعا، إضافة إلى موقعها الذى يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء، وهو الأمر الذى جعلها فى حسابات الرسول- صلى الله عليه وسلم- عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تحقق مشروعه العظيم، تقع فى الموقع الأول فزارها داعيا لكنهم ردوه رداً سفيها، فيمم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال فى يثرب، بعد أن فقد الأمل فى فهم سراة ثقيف وأشرافها لأبعاد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المقاتلين، يجب أن نوقن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التى كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعها فى المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجارى لرحلة الشتاء، وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفيين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها

الخصبة، وهو مانجده واضحا عند ابن حبيب[٨٥].

وطبيعى أن تحاول ثقيف الاستقلال الاقتصادى، وهو ما أدى إلى تنافس جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل التجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزاً للتجارة والتجار، ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقين فيما يعرف بحرب الفجار، وغنى عن الذكر أنها سميت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتى أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة القرشية[٨٦].

ويبدو أن قريشا قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثل فى استيلاء الفرس على اليمن، وهو ما أدى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفا قبليا لها ليهاجم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويغلق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلى، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بنى عوف مقابل بنى مالك، بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادى داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها مايريدون من أموال، لينتهى القريشيون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحولوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزى، وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصريف منتجاتهم الزراعية فى مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يقتسمان النفوذ تقريبا عند ظهور الإسلام، حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامى، وتركت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومصاهرات ومشاركة فى رؤوس الأموال.

وعندما نتذكر أن ثقيف هى التى كانت دليل جيش أبرهة الحبشى نحو مكة عام الفيل[٨٧]، يمكن أن نفهم فوراً موقف ثقيف المتصلب عندما ذهبها محمد داعيا، ثم موقفها المتصلب من النبى ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام سادتها للنبى، حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع

(٨٥) ابن حبيب: المنمق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط ١، الهند، ١٩٦٤، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٦) نفسه: ص ٢٠٩.

(٨٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ص ٢، ١٩٥٥، ج ١، ص ٤٧.

التام لسيادة قريش إن غزاها النبى، ومن ثم قامت تحالف هوازن لتكوين جبهة تحاول إنقاذ مصالحها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين، بينما كان النبى على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعياً، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبى، ومن ثم لم يغنم جنده شيئا يعوضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئا على الإطلاق[٨٨]، ومن ثم كان توجيه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتين كانتا قد تهيأتا بدورهما للمعركة الانتحارية[٨٩].

وبالهزيمة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصونهم القوية وميرتهم وزادهم الكثير[٩٠]، وهنا أمر النبى بالمسير فورا إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفلت فى النعيم، ولا تقل ثرواتها عن ثروات المكيين، واقتنى سادتها الثمين من مقتنيات الذهب والفضة، وحلوا نساءهم بالجوهر على أنواعه، فقد انسلت خولة بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبى وهم يوجهون نحو الطائف تقول له:

> يارسول الله، أعطنى إن فتح الله عليك الطائف، حلى بادية بنت غيلان، أو حلى الفارعة بنت عقيل[٩١].

هذا بينما كان المخنث (هيت) مولى فاختة بنت عمرو خالة النبى، يقول لعبد الله بن أمية:

> إن فتح الله عليكم الطائف، فسل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان، فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، وإن مشت ارتجت، وإن قعدت تبنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، بين رجليها كالقعب المكفأ[٩٢].

وكان (هيت) يدخل على نساء النبى ويذهب إلى بيوته، والرسول لايظن أن له شيئاً مما للرجال، وأنه لايفطن إلى شىء من أمر النساء مما يفطن إليه الرجال، ولايرى أن له فى ذلك إربا، فلما سمعه يقول ماقال لعبد الله بن أمية قال: «لأرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع، ثم قال

(٨٨) الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٦٤.
(٨٩) اليعقوبى: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٥٣.
(٩٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ٢٦٦.
(٩١) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.
(٩٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦٨.

لنسائه: لايدخلن عليكن، فحجب عن بيت الرسول»[٩٣] لكنه فى رواية السهيلى قال لهيت: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ثم قال: لايدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعا، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس»[٩٤].

وصيغة الجمع فى قول رسول الله: «لايدخلن هؤلاء عليكن»، تشير إلى آخرين مخنثين عاشوا فى مدينة الرسول مثلما كان حال (هيت) وهو مايفيدنا به السهيلى فى شرحه لأمر مخنثى المدينة حيث يقول: إن المخنثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماء تليق بهم، فهم (هيت) و (هرم) و(ماتع) و (أنّه)، ووصفهم بقوله: «كان تأنيثهم لينافى القول وخضابا فى الأيدى والأرجل كخضاب النساء، ولعبا كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفى مراسيل أبى داود أن عمرو رضى الله عنه رأى لاعبا يلعب بالكرج، فقال: لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - لنفيته من المدينة»[٩٥].

وبالوصول إلى الطائف أمر النبى بقصر مالك بن عوف المتطرف فأحرق[٩٦]، ويقول البيهقى أنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يوما، فكان أول من رمى بالمنجنيق والدبابات والصنبور فى الإسلام، لكن ثقيف المستميتة تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبى بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنويا[٩٧]، فنادوه من على الأسوار «لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أولكم»[٩٨]، فرد عليهم بنداء آخر يسمع عبيدهم أن من خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هربا بعضهم على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابى الجليل أبو بكرة[٩٩].

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذى لم يعد مطاعا (عيينة بن حصن) زعيم غطفان الفزارية إلى النبى، والمفترض أنه قد أصبح مسلما، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف فى حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

بأبى أنتم، تمسكوا بمكانكم، والله لنحن أذل من العبيد، وأقسم بالله لئن

---

(٩٣) نفسه: ص ٢٦١.

(٩٤) السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٣.

(٩٥) نفسه: ص ١٦٤.

(٩٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٥٧.

(٩٧) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٩٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٩٩) نفسه: ص ٣٤٧.

حدث به حدث لتملكن العرب عزة ومنعة، فتمسكوا بحصونكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع الشجر(١٠٠).

وطال الحصار، وعلم النبى أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيفا تمتنع فى حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدؤلى، فقال له: يارسول الله ثعلب فى جحر، أن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك»(١٠١)، فاستدعى النبى أبا بكر وقال له: «يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديك، فهراق مافيها، فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ماتريد، فقال رسول الله: وأنا أرى ذلك»(١٠٢). ومن ثم أذن فى الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفانى عيينة بن حصن الفزارى نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفوره معبراً عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كراما، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله ياعيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جئت تنصره؟ فقال: والله إنى ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها»(١٠٣).

أما ابن كثير فقد التمس تفسيراً تبريريا لرفع الحصار عن الطائف وذلك فى قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

> قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ، لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبى طالب، فردوا عليه قوله، وكذبوه، فرجع مهموماً، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فناداه ملك الجبال، فقال: يامحمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لايشرك به شيئا، فناسب قول: بل أستأنى بهم، ألا يفتح حصنهم لئلا

---

(١٠٠) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٦٣.

(١٠١) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٦٧.

(١٠٢) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٠.

(١٠٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٥٠.

يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام المقبل[١٠٤].

وعاد النبى برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبى هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاعة، وأن اسمها الشيماء، فيسألها عن مؤيدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها، فيتعرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - على العلامة، فيبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ويخيرها بين البقاء عنده محببة مكرمة، أو أن يعيدها إلى قومها ممتعة، فتقول له: «بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.. فأسلمت، فأعطاها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أعبد وجارية، ونعما وشاء، وسماها حذافة، وقال: الشيماء لقب»[١٠٥].

وتعلم هوازن بعودة النبى، وتدرك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل فتختار له تسعة ممن بقى من أشرافهم، ليعلنوا أمامه إسلام هوازن ويبايعوه على السمع والطاعة، ثم يفاتحوه فى مصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازى الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وكان رحيما جواداً كريما، فقال سأطلب لكم ذلك»، أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال: إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عيينة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمى ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعا فى نهاية الأمر[١٠٦]، وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مؤمنة مسلمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخسرت أموالها وشرف بعض نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد - صلى الله عليه وسلم - ماكان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة فى صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورؤوس وأشراف كبار، كان أحدهم لايقبل برأس يعلو رأسه، فدخلوا على مضض مرغمين، يتحينون فرص النكوص، وعبروا فى أكثر من موقف عن مكنون صدورهم، أما الأخطر فهو ما يمكن أن يسببوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذى يمكن استنتاجه

---

(١٠٤) نفسه: ص ٣٥١.

(١٠٥) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٥٢.

(١٠٦) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٢، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٢.

ببعض الظن، فمن المحتمل أن يكون ماحدث فى المشهد الأول لوقعة حنين ترتيبا مقصوداً من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كفزارة وسليم وتميم، فيهرب فرسانهم أمام هوازن، لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذى يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع، وهو أمر محتمل تماما إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامى وعدد أفراد هوازن المقاتلين، وهو مايزداد تأكيداً إذا تذكرنا أن الكرة عادت على هوازن فقط بمئة أنصارى من بين الاثنى عشر ألفاء أخوال الرسول وناصروه فى كل موقع بخئولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار فى الوقعة لكانت النتائج مختلفة تماما، ولربما تغير وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفاذ يستدعى حلا سريعا لرتق تلك الثغرات فى الولاء للدولة، فقام يوزع الأعطيات الهائلة من مغانم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرؤوس والهامات الصلبة الثرية أصلا، ليفتح عيونهم على ماينتظرهم وإشعارهم أن الإسلام لاينتقص منهم ومن مكانتهم، بل يزيدهم ثراء على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعيه، إزاء الطموحات المتوثبة فى الوعد النبوى بكنوز كسرى وقيصر. فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشى وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلما أعطى أباه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما، كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مثلها فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرافهم وأثرياؤهم، لكل منهم مائة من الإبل، وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطا شديداً وقام يعبر عن واقع مايحدث من سيادة وتسييد بقوله:

فأصبح نهبى ونهب العبـ	ـيد بين عيينة والأقرع
وما كنت دون امرىء منهما	ومن تضع اليوم لايرفع

فقال النبى: اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فظلوا يعطونه حتى رضى، ثم وزع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى فى السيادة درجة(١٠٧) كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع.

ولاشك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبى فى غزواته وطلوعها على العرب فى سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أومن بين أحلافهم، ثم لاشك يتذكرون يوم أحد،

---

(١٠٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٥٥.

عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرون، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف ضن النبى بطلحة عندما كان يهرب إلى معتلى الصخرة، ويقول: ألا أحد لهؤلاء، فيكر أنصارى عليهم يمنعهم عن النبى فيموت شهيداً، ثم يصعد النبى ومعه طلحة، فيقول النبى: ألا أحد لهؤلاء، فيقول طلحة: أنا لهم يارسول الله، فيقول كما أنت ياطلحة، فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيداً.

لاشك أيضا يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاهم النبى مهيضا لاجئا مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولاشك أيضا أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولاهم عندما عطفوا عطفتهم على هوازن، مابقى من الأمر شىء وهنا تعلو الأصوات، ويكثر اللغط، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل مواطن وكل شدة ثم آثر قوما علينا وقسم فيهم قسما لم يقسمه لنا، ومانراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيعطيه، وأما من لا يقاتله فلا يعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يكثرون فى الكلام، حتى قيل للرسول مالايصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروى: «كنت عند النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله أعرابى فقال: ألا تنجزلى ما وعدتنى؟ فقال له: أبشر، فقال الأعرابى:

لقد أكثرت علىَّ من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له:

يامحمد اعدل.

ليرد النبى: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيجاوبه ذو الخويصرة من بنى تميم غاضبا:

لقد رأيت يامحمد ماصنعت.

فيسأله: وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربى:

لم أرك عدلت.

فهم به عمر يقول: يارسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ لكن ليرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «دعه، إن له أصحابا».

بينما كان آخر يردد بين القوم:

إن هذه القسمة ماعدل فيها

وما أريد بها وجه الله.

فيذهب رجل بالكلام إلى النبى، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة، ليهتف بالناس: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟[١٠٨].

وينتحى الأنصار جانبا وهم يرون أوباش القبائل يحيطون بالنبى فى جمهرة عظيمة، تطالبه بوقف الأعطيات، يقولون له: يارسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، والنبى يتراجع بين الأصوات الغاضبة، حتى يلجئوه إلى شجرة يعلق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم: أيها الناس ردوا على ردائى، أيها الناس والله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم[١٠٩]. ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ماتبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعون من الشياه[١١٠]. هذا بينما وقف حسان بن ثابت أمام الأنصار ينشد عتبه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا برقة مشاعر الخئولة:

زادت هموم فماء العين منحدر ... سحا إذا حفلته عبرة درر
وات الرسول فقل ياخير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ماعدد البشر
علام تدعى سليم وهى نازحة ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا
سماهم الله أنصاراً بنصرهم ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وماخاموا وماضجروا
والناس ألب علينا منك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر
فما ونينا وما خمنا وما خبروا ... منا عثاراً وكل الناس قد عثروا[١١١]

(١٠٨) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٧٣، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، انظر أيضاً الواقدى: المغازى.. سبق ذكره، ج ٣، ص ٩٤٨.

(١٠٩) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٤٥٩.

(١١٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١١٠.

(١١١) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢.

وهنا ينادى المنادى بالأنصار وحدهم ليجتمعوا فى قبة رسول الله - صلىٰ الله عليه وسلم - ليقف فيهم خطيبا يقول:

يامعشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم؟ وجدة وجدتموها على أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، وطريداً فأويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم؟

ألا ترضون يامعشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولوسلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظا[(١١٢)].

ثم يختتم الوحى أحداث حنين بقوله الصادق:

﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ (٢٥ :٢٧ التوبة).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عبّر لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - عن واقع الحال عندما قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحى «إذ أعجبتكم كثرتكم»، وهو الإعجاب الذى ماكان ممكنا أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد

(١١٢) نفسه: ص١٥٧.

عدوهم، وهو ما يجافى تمام المجافاة روايات جاءت بكتبنا الإخبارية تؤكد أن عدد مقاتلى هوازن بلغ عشرين ألف مقاتل، وهو الأمر الذى يتناقض تناقضا صارخا مع عودة الكرة عليهم بمئة مقاتل أنصارى، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين، ويبدو لنا أن قصة العشرين ألف هوازنى كانت لونا من المبالغة، لجأت إليه كتبنا الإخبارية فى محاولة لتبرير الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدها فى الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل ولاننسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذى ضم معظم محاربى القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ - رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن - سوى اثنى عشر ألف مقاتل. وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياسا على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفين، فإن عدد الرجال المقاتلين لايمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأى حال من الأحوال.

ولم يكن ثمة حديث عن تدخل الملأ السماوى إزاء تلك الكثرة المزعومة فى جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أخوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى القتال حتى حققوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملأ السماوى وروايات المعجزات الملغزة.

ومع ماجاءت به الآيات الكريمة ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح فى الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملأ الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

> أن مالك بن عوف النصرى بعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ماشأنكم؟ قالوا رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى[١١٣].

ثم نموذج آخر مُجهَّل المصدر بدوره، لا نعرف أصحابه فى رواية تقول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبى والطالبى:

> عمن شهد حنيناً كافراً قال: لما التقينا نحن ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدى رسول الله -

---

(١١٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٢٢.

صلى الله عليه وسلم ـ، حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام[١١٤].

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتى الحديث منسوباً إلى شيبة بن عثمان العبدرى، الذى خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله فى زحمة القتال، فيقول ابن كثير راوياً على لسان شيبة:

لما رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين قد عُرى، ذكرت أبى وعمى وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأرى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف، إذ رفع شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق، فخفت أن يمحشنى[١١٥].

هذا بينما يروى البلاذرى الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول:

وكان شيبة بن عثمان العبدرى شديداً على المسلمين، وكان ممن أومن فسار إلى هوازن طمعاً فى أن يصيب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال: فدنوت منه، فإذا أهله محيطون به، ورآنى فقال: يا شيب إلىّ، فدنوت منه فمسح على صدرى ودعا لى فأذهب الله كل غل فيه، وملأه إيماناً وصار أحب الناس إلىّ[١١٦].

أما ذلك الراوى الذى كان طوال الوقت مغرماً بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروى لنا على لسان جبير بن مطعم قوله:

إنا لمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذا نظرت مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة[١١٧].

أما السهيلى فيشرح لنا اختيار النمل تحديداً لتتلبسه الملائكة فيقول:

ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث، إشعاراً بكثرة عددها، إذ النمل لا يستطاع عددها، مع أن النملة يضرب بها المثل فى القوة، فيقال: أقوى من

(١١٤) نفسه: ص ٣٣١.

(١١٥) الموضع نفسه.

(١١٦) البلاذرى: أنساب.. سبق ذكره، ج ١، ص ٣٦٦.

(١١٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٢.

نملة، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك: قوتك قوة نملة، فأنكر عليه، فقال: ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة(١١٨).

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة، وأن سيماءهم يوم حنين كانت عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم(١١٩)؟!

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى فى رواية يوردها ابن كثير تقول:

فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: الآن حمى الوطيس، ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد.. ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست الحديد، فهزمهم الله عز وجل، ثم أقبل على المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال: ارجعوا، شاهت الوجوه، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى فى عينيه(١٢٠).

وبين حديث المعجزات يأتى حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبى نسائها، وفيهن أخوات النبى وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروى أبو سعيد الخدرى قوله:

أصبنا نساء من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فنزلت الآية هذه: والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم، فاستحللنا بها فروجهن.. وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذا الحديث فى سبايا أوطاس(١٢١).

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حروراً، ثم أعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنسائها، ليروى البيهقى واقعة طريفة تحكى:

---

(١١٨) السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٢.
(١١٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ٢، ج ١، ص ١٠٩.
(١٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٠، ٣٣١.
(١٢١) نفسه: ص ٣٣٨.

إن عثمان كان قد أصاب جاريته، فخطبت إلى ابن عم لها كان زوجها، وكان ساقطاً لا خير فيه، فلما ردت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة فى زمان عمر أو عثمان، فلقيها عثمان، فأعطاها شيئاً بما كان أصاب منها، فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك منى؟ قالت: نعم، زوجى وابن عمى(١٢٢).

حكاية تحاول تبخيس شأن رجال هوازن، الذين كانوا أزواجاً لنساء أتاهن المسلمون فى غزوة حنين، ونكحوهن بقوانين السبى العربية التليدة.

---

(١٢٢) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٩٨.

الباب الرابع

قيــام دولــة العــرب الموحــدة



«إنما محمد أُذُن
من حدثه شيئاً صدقه»

[نبتل بن الحارث]

الآن وقد تم إخضاع خيبر تماماً لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلاً، فسلبت أموالها، ونكحت نساؤها، وأسلمت جميعاً راغمة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب فى جحر، وبعدما خرج عليها سيدها مالك بعد ما تألفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولى على قوافلها، وبعدما تضخم حجم الجيش الإسلامى وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعاً، عادت كنوز قيصر تنادى العرب. ففى صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن منادى النبى فى الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكى راوى السيرة ابن هشام فيقول:

> ثم أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.. وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون

المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم[1].

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المتحالفة وإدخالها جميعاً فى حلف الدولة، وما أدى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المعارضة التى أطلق عليها اصطلاح (النفاق)، بعدما تقلمت أظافرهم تماماً، تعود الأخبار تخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبى إلى غزو الروم، فقام المنافقون يثبطون همم الناس، ويجتمعون فى بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا فى الحر».

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكاً فى الحق وإرجافاً برسول الله - صلى الله عليه وسلم -»، ولكن لأن الظروف قد تغيرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتطاول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سراً لبحث شئونهم، فكان أن أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه، فحرق عليهم البيت وهم فيه[2]، ثم جاء الوحى يقول: ﴿وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾ (٨١-٨٢/ التوبة)، أما النبى فقد كان يحدث أصحابه بينما البيت يحرق على المجتمعين فيه: «فى أصحابى اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»[3].

وأحياناً ما كان المسلمون يأتون النبى يستأذنونه فى عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخل الله بنفسه ولم يقبل عذرهم بل وجه لهم اتهامات مباشرة بالكذب، ثم نصح رسوله بألا يعذرهم ولا يقبلهم فى جيشه حتى لا يؤثروا فى جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم

(١) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٣.

(٢) نفسه: ص ١٧٤.

(٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦١.

لكاذبون. عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون. ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾ (٤٢ : ٤٧/ التوبة).

وهكذا، وبينما ينفق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين ميرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذى تبرع بألف دينار[٤] كان هناك آخرون يشكون فى جدوى تلك الغزوة، ويشكون فى نصر العرب على جيوش قيصر، فشكوا فى الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف، فيما بلغنى منهم: عبد الله بن أبى ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً فى قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان فى جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم[٥].

أما الوحى فقد استمر شارحاً لموقف هؤلاء فاضحاً لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نقمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتى أعطاها النبى للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

﴿ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ (٥٨/التوبة).

وقد وضح موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تشير إلى جبنهم عن ملاقاة الروم بنى الأصفر وتخوفهم ذلك، عندما رأوا النبى يقود جنده ميمماً شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ وا لله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»، فلما علموا أن قالتهم قد بلغت النبى هرع وديعة بن ثابت بهم يمسك بناقة الرسول يعتذر قائلاً: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله: ﴿ولئن

---

(٤) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٤.

(٥) نفسه: ص ١٨٩، ١٩٠.

سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾[٦]. وهو الأمر الذى يشير إلى تضاؤل شأن المعارضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين فى ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتحاصر تبوك، فيخرج يوحنا بن رؤبة المنوب على أيله من القيصر ليصالح الرسول على دفع الجزية، ويتبعه أهل جرباء وأذرح، ويكتب لهم النبى كتاباً بذلك، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندى فصالحه بدوره على الجزية، واكتفى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه فى حمص[٧].

ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جدداً، حيث يروى ابن إسحق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش فى الحجر، فدعا النبى ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماء، وهنا يقول محمود بن لبيد:

> لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك؛ هل بعد هذا شىء؟ قال: سحابة مارة[٨].

لكن ليجد المنافقون فى عودة النبى دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالاً للخوض، وهنا يعلمنا البيهقى السبب وراء خروج النبى إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم؟ وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك فى قوله: «ما روى فى سبب خروج النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه.. أن اليهود أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبى، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً [إلى قوله:] تحويلا﴾ (٧٦ - ٧٧/الإسراء)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث»[٩].

---

(٦) نفسه: ص ١٧٨.

(٧) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٨) نفسه: ص ١٧٦.

(٩) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٤٥.

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار ومادار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مسماة، ويعددها ابن هشام فيقول إنها كانت كالتالي: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمي ومسجد بآلاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق ـ شق تارا ـ ومسجد بثنية حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذى الحيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادى ـ اليوم وادى القرى ـ ومسجد بالرقعة من الشقة ـ شقة بنى غدرة ـ ومسجد بذى المروة ومسجد بالفيفا ومسجد بذى خشب»(١٠).

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجداً وجاءوا النبى عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه»، وكان جواب النبى وعداً جميلاً يقول: «إنى على جناح سفر وحال شغل. ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه»(١١).

لكن مع تواتر النفاق فى هذه المرحلة جاء النبى الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم من الأوس تحديداً، حيث يفيدنا الثعلبى النيسابورى أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذى غادر المدينة مخاصماً للرسول (أبو عامر بن النعمان بن صيفى) المعروف باسم الراهب، لكن النبى أسماه بالفاسق، حيث كان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبى اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مغاضباً له، ثم تفيدنا المصادر أنه قبل غزو النبى للروم بقليل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسى، وقال لهم: أعدوا العدة والسلاح وابنوا لى مسجداً، فإنى ذاهب إلى قيصر وآتى بجند لنخرج محمداً وأصحابه من المدينة»، ويزعم الثعلبى أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا﴾(١٢).

ويحكى لنا البيهقى ما حدث بشأن ذلك المسجد الذى وعد النبى أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين، فيقول: «إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل من تبوك حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار.. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى.. فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه، فخرجا سريعاً حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه»(١٣). لقد باتت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

---

(١٠) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٠.

(١١) الموضع نفسه.

(١٢) الثعلبى: عرائس المجالس.. سبق ذكره، ص ١٤٠.

(١٣) البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد جاء الوحى يعقب على إحراق المسجد فى آيات كريمة صريحة تقول:

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ (١٠٧ : ١١٠/ التوبة).

وبحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيراً وحسناً، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين، وأدركوا أن جهاز الدولة الرقابى قد دخل بيوتهم وتصنت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبتل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف:

إنما محمد أُذُنٌ

من حدثه شيئاً صدقه[14].

لكن ليتدخل الوحى مرة أخرى شارحاً موضحاً مبيناً:

﴿ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ (٦١/ التوبة).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التى كدرت صفو الرسول ومدينته، يأتى حدث جديد، يضيف للدولة رصيداً، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكى ابن كثير:

أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ارتحل عن ثقيف، سئل أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أسلم مالك بن عوف النصرى، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى

---

(١٤) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٠.

الدخول في الإسلام، وتقدم أيضاً فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية .. ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا .. ثم أجمعوا أن يرسلوا رجلاً منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير .. ومعه بضعة عشر رجلاً(١٥).

وكان فرح المغيرة بن شعبة الثقفى عظيماً لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليعلمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكيف يؤدون له التحية، لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العريان، وحيوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبى فضربت لهم قبة فى مسجده تكريماً لهم، وجلس النبى فى مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدم لهم طعاماً رفضوا تناوله توجساً وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب.

وإبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرض الرسول إطلاقاً، بل أعلمهم أنه سيرسل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبة ليهدماها، ثم سألوه أن يسقط عنهم الصلاة.

لم يدرك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديداً لآيات القرآن حتى تعتاده آذانهم، ثم إنها تحوى الشهادة للرسول بالنبوة فى كل مرة، وتعود الملتزم بها الانتظام فى نظام صفوف صارم، كل ما رأوه فيها إرغاماً لأنفهم العربية المتأبية المتكبرة على السجود، ولم يدركوا أنها كانت إخضاعاً لسلوكهم اليومى لمؤسسة دقيقة مرتبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة الموحدة، ولم يقبل النبى أى تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم «لا خير فى دين لا صلاة فيه»، فكان ردهم الصريح: «سنؤتيكها»، أبداً لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة «سنؤتيكها وإن كانت دناءة». ثم أصروا ألا يكونوا كبقية الأعراب، فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبى أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا فى معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»(١٦).

---

(١٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٦، ٢٧.

(١٦) نفسه: ج ٥، ص ٢٧.

واستأذن الثقفيون النبى أن يسبقوا رسله المزمع ذهابهم معهم لهدم اللات، «فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوخ العرب.. فألقى الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا»[17].

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبو سفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحلى وذهب وفضة[18]. بينما كان النبى قد أمر على ثقيف عثمان بن أبى العاص أميراً منوياً من قبله، وكان أحدثهم سناً[19].

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتى موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لابد أن تشرف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً منوياً من قبله على حج سنة تسع للهجرة ليقيم للناس حجهم.

ويفاجئ الأمر قريشاً، فحتى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب، نعم إن أبا بكر قرشى، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميراً على الحج، هو معنى يسلب قريشاً وضعها السيادى الباقى فى إقامة الشعائر الدينية للعربان، وهنا تعترض قريش هاتفة: «إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا»، لكن ليأتيهم الرد ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[20].

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، إسلام الجميع دون مواربة، حيث أكدت كتب السير أن «الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم».

ثم تأتى الضربة القاصمة فى نقض النبى - صلى الله عليه وسلم - لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على «ألا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك»، لضمان استمرار التجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك النقض عندما أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - علياً بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر، ومعه أوامر الوحى فى الآيات المعروفة باسم (براءة) وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد

---

(١٧) نفسه: ج ٥، ص ٣٠.
(١٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٩٣.
(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٢٨.
(٢٠) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٦.

فهو إلى مدته .. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أُذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة»[٢١] . وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ (٢٨/التوبة) .

كان معنى ذلك خراب ديار قريش إلى آخر الدهر، فمعنى ذلك توقف التجارة ودمار الأسواق، وزاد الأمر نكاية ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهى بإلغاء العمل بنظام النسىء، وكان النسىء تحريكاً للأشهر الحرم القمرية، لتدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع موعد المحاصيل والرياح الموسمية فى بحر الهند، وهى الرياح والمحاصيل التى تسير وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادى)، وجاءت الآيات تؤكد:

﴿إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ (٣٧/ التوبة) .

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جميعاً، وهو ما قال المسعودى بشأنه شارحاً: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرام قد عادت إلى بدئها على ما كانت عليه فى أصلها، وذلك قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٢٢] .

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعاً بها وتكريماً لها وتوقيراً، لجعلها رمزاً لوحدة البيت الجامع للعرب المتوحدين فى الدولة الواحدة، لكنه كان ضرباً واضحاً للتجارة والأسواق، بل وتراجعاً بالعرب جميعاً عن مركز دولى متميز حققوه من ذلك النظام التجارى الدينى، فأمسكوا بعنان تجارة العالم، وبدأت قريش تشك فعلاً فى أهداف الدولة الجديدة، وصورت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلى، وانتقام مما سبق وقدمت أيديها، وتقف تقول:

لتقطعن عنا الأسواق، فلتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق[٢٣] .

لكن لتفاجأ بسوء ظنها، وتبدأ فى رؤية ما ينتظرها حقاً، عندما يرد عليها الوحى الكريم:

﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ (٢٨/ التوبة) .

---

(٢١) نفسه: ص ١٨٧، ١٨٨ .

(٢٢) نفسه: ص ١٨٩ .

(٢٣) الموضع نفسه.

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تعوضهم عن خراب تجارتهم وبوار أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مؤيداً بآى الله الكريم، فى قوله: «﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، أى من وجه غير ذلك.. ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾، أى ففى هذا عوض عما تخوفتم من قطع الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية»[٢٤].

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب فى الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأى أهل كتاب؟ وهنا توجهت الأنظار بعيداً، إن الآيات تطلب منهم تعويض خسائرهم هناك، فعند الإمبراطوريتين كنوز عظيمة، وهنا تفهم قريش سر كل ذلك التضييق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال. لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيزيح القديم، وجاءت الآيات تؤكد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتوجه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتخل تماماً بنظام التجارة العظمى التى كانت قريش تشرف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتتالى ذلك الإسلام بعد أشهر فى وفود تشهر إسلامها، جعل هناك استحالة فى تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، لقد آن أوان تحقق الوعد المغلظ بالأيمان الذى أطلقه النبى فى مكة عندما كان مهيضاً:

والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر

وجانب آخر، يدركه الوعى النفاذ، أن الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هى تقديم هدف مألوف لهاء البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعيه. لقد أصبح مطلوباً من العرب أن يتحولوا عن مجرد سادة تجارة العالم، ليصبحوا سادة هذا العالم نفسه، أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يعانون من الخراب نفسه، ولم يعد أمامهم سوى الانخراط فى الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المنتظرة، لقد جاءت وثيقة الوحى براءة، لتدفع الجميع دفعاً إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحد وإلى التوجه خارج الجزيرة.

أما ختام المسك فكان موت رأس المعارضة والنفاق، عبد الله بن أُبى بن سلول، الذى خفتت بعده أصوات المعارضة تماماً.

---

(٢٤) المسعودى: مروج الذهب... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٧.

عــــام الوفــــود

«والله؛ لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت
لو أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله»

[إربد بن مقيس]

قال محمد بن إسحاق:

لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام:

حدثنى أبو عبيدة أن ذلك فى سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحاق:

وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت الحرب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم

بحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل أفواجا، يضربون إليه من كل وجه،

يقول الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم -:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر)[٢٥].

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدوم الوفود العربية من بلاقع الجزيرة وفيافيها لتعلن لسيد العرب خضوعها، وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين، وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالا، مدعاة أخرى واضحة أوضحناها لقدوم تلك الوفود الكبرى، أما النبى بكرمه الذى يليق به، وعطاياه للوفود مما أفاء الله عليه، ومن خمسه المقرر وحيا، فكانت عاملا آخر ودافعا غير منكور فى كتبنا الإخبارية لقدوم الوفود تعلن انضمامها لدولة الإسلام، وبين كل وفد كان ينتقى رجلا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم الأوضاع والمتسمة بالطاعة للسلطة النبوية، فيجعله أميراً من قبله على قومه، وللقرار بمنح الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط فى تألف العربان. فيقول محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية، أن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد القبيلة الكبرى تميم، وعلى رأسها عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، والحتحات بن يزيد، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة فى قومهم، وبصلف العربان دخلوا يثرب إلى مركزها الإدارى مباشرة، إلى المسجد، فلم يجدوا سيد المدينة، فكان أن وقفوا ينادون الرسول من وراء حجراته:

- اخرج إلينا يا محمد.

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان، ولا أدرك العربان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون كخطابهم لبعضهم البعض، وهو ما جاء من بعد تنبيها للوفود وتقريعا لأجلاف تميم فى وحى يقول:

﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ (٤-٥/ الحجرات).

لكن تميما ما كانت لتفهم لغة التمدين المدنى بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها

---

(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٣٧.

الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت تؤجل ذلك الإعلان ما أمكن، وتعلنه وهى عزيزة متعالية فى وهمها، ويتمثل ذلك فى قول الوفد التميمى لسيد الخلق: «يامحمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا».

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبى مغزى كل تلك المناورة، إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزتها، وتبسم سيد الخلق، فرد بهدوء الواثق المطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل»، ليقوم عطارد بن حاجب يعدد ممكنات تميم وعظمها يقول:

> الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم؟
>
> فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك.
>
> أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا
>
> وأمر أفضل من أمرنا.

ويجلس عطارد يلبس أثواب التكبر الأنف، ويصبح المطلوب رداً مناسبا يكسر ذلك الكبرياء ويرغم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبى بنفسه، حتى لا يكسبه قيمة لا تليق به، إنما يشير إلى ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى، ويقول له: «قم يا ثابت فأجب الرجل»، ويقوم ثابت ليقول بهدوء هادر المعانى:

> الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله.
>
> ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا
>
> واصطفى من خيرته رسولا
>
> أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا،
>
> فأنزل عليه كتابا وائتمنه على خلقه،
>
> فكان خيرة الله من العالمين،
>
> ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوى رحمه أكرم الناس أحسابا وأحسن وجوها وخير الناس فعالا.

وينتقل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى فى خطابه ليردف مهدداً منذراًمتوعداً:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن!!

فنحن أنصارالله ووزراء رسوله،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات.

والسلام عليكم(٢٦) .

وتفهم تميم الرسالة، وتتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبى الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول ناقلا الحديث إلى مستوى آخر، تخفيفا عنهم وتهدئة لروعهم: «اقبلوا البشرى يابنى تميم»، لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم: «يارسول الله لقد بشرتنا «فاعطنا». وهكذا انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب، ويستجيب الرسول، «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحسن جوائزهم»(٢٧) .

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفداً عارفا أقدار الناس، ومن أعلى من النبى قدراً؟ لذلك ما أن هبطوا عن ركائبهم حتى هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يقبلوها، فاستحقوا أن يصفهم النبى بقوله: «هم خير أهل المشرق»(٢٨) .

وتتوالى الوفود

ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمى بن عامر رأس الوفد ليقول للنبى:

أتيناك نتدرع الليل البهيم

فى سنة شهباء

ولم تبعث إلينا بعثا

(٢٦) نفسه: ص ٣٨، ٣٩.

(٢٧) نفسه: ص ٣٥، ٤١.

(٢٨) نفسه: ص ٤٤.

يريد أن يقول أنهم أتوه طوعا لاكرها، لترد عليهم الآيات ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾ (١٧/ الحجرات) .

ثم وفد عبس، ووفد فزارة، ووفد مرة «فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة»، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواق فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبى أرض عقيق بنى عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتب فى أديم أحمر، ثم وفد جعده، وأقطعهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضيعة بالفلج وكتب لهم بذلك كتابا، ثم وفد قشير بن كعب «فأقطعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قطيعة وكتب له كتابا»، ثم وفد بنى البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر. وربيعة عبد القيس وتغلب. وكانت تغلب نصارى جاءوا النبى يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يقرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا[٢٩]، أما وفد عامر بن صعصعة فقد جاء على رأسه عامر بن الطفيل وإربد بن مقيس. وعامر من القبائل الكبرى الشامخة، وما أن وقف عامر بن الطفيل أمام الرسول حتى دخل فى المفاوضة مباشرة وبسرعة قائلا: «يامحمد» مالى إن أسلمت؟ فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك ولا لقومك، قال: أفتجعل لى الوبر ولك المدر؟ قال: لا، ولكنى أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس، وهو من رد على العريان الذين دعوه للإسلام:

والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟[٣٠] .

فيغضب عامر بن الطفيل، ويخرجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخا:

أوليست لى؟ (أى الخيل)

إذن

لأملأنها عليك خيلا ورجالا[٣١] .

وخرج مع رفيقه إربد ليتبعهم النبى بدعوته: «اللهم اكفنيهما»، وتحكى كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر فى الطريق، أما إربد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

---

(٢٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، من ص ٤٠ : ٥٦ .

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٥١، ٥٢ .

(٣١) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج ١، ج ٢، ص ٥١ .

والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما[٣٢].

وتتتابع الوفود فتأتى شيبان وطى ونجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكنده والصدف وخشين وسعد هزيم وبلى وبهراء وعذره وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداريين والرهاويين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استتمت جزيرة الجزيرة جميعا وأوعبت طاعتها أمام النبى الكريم، تؤكد أن التاريخ على وشك استكمال حلقته الانتقالية الكبرى، وأن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعا وحقيقة، وأن الدولة المركزية قد تسنمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة موحدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مكدرات عكرت صفوه ونصره، فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد الغريب الشأن العجيب الأمر، وفد بنى حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدو له شأن اسمه مسيلمة بن ثمامة، نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة، وهم يرون وفده يحيط به، يسترونه بالبرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبى وبيد النبى قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبى رسالة برقية موجزة:

إن شئت
خليت بينك وبين الأمر
ثم جعلته لنا بعدك

لكن ليرد سيد الخلق هادئا مستصغراً شأن ذلك المتكبر الكبير فى قومه: «لو سألتنى هذا القضيب ماأعطيتكه»[٣٣]. فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان فى قومه نبيا، وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوفا بالاحترام مستوراً بالثياب، وإنه ما جاء يعلن ولاءً بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دولا بين محمد وبينه، حيث أعلن فى أهله من حنيفة اليمامة: إنه قد أشرك مع محمد فى النبوة والحكم (الأمر)، وأخذ يرسل لهم آيات مسجوعة يزعمها وحيا، وشهد للنبى بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعا، وأرسل بعد عودته بلاده للنبى الصادق رسالة تقول:

---

(٣٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ٥٣.
(٣٣) نفسه: ص ٤٦.

من مسيلمة رسول الله

إلى محمد رسول الله

سلام عليك؛ أما بعد؛

فإنى قد أُشركت فى الأمر معك

فإن لنا نصف الأرض

ولقريش نصف الأرض

ولكن قريشا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآبقة بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية موجزة صارمة المعانى هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم:

من محمد رسول الله

إلى مسيلمة الكذاب (!)

السلام على من اتبع الهدى(!)

أما بعد

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين[٣٤].

وتسلم بلاد العرب وتدخل فى طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيين فى البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك منهم، لتظل حنيفة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربى المتوحد ترفض الانضواء، بل ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المتنبىء مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هى السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يضاف إلى مجموع الدوافع التى حثت الوفود تدفعها دفعا إلى يثرب، تطمع فى حكمة قيادة يثرب إزاء الأزمة القاحطة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشقاقية التى نشطت فى ذات العام، يمثلها مسيلمة فى اليمامة، والأسود العنسى فى اليمن.

---

(٣٤) نفسه: ص ٤٧.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادى وليس وحدويا، فهو يطلب مشاركة حنيفة فى أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يدرك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السير الصحيح لخط التاريخ نحو توحد الجزيرة جميعا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة، ومن هنا قام يطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، معبرة عن موقف قبلى يعاكس الحتمية وضرورتها، ومفصحة عن موقف قبلى إقليمى تجزيئى يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعا بعد ذلك.

أما اليمن التى كانت تعانى بشدة من التسلط الفارسى على مقدراتها، فقد كانت إبان تطور أطوار الدعوة الإسلامية فى واد آخر، كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس، ويظهر بين الثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطورى (الأسود العنسى) الذى قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن وتطهيرها من العسكر الكسروى، وفى تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن مع عماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمى له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذى لقب بالأسود العنسى لوفود يثرب وعمال الرسول المنوبين من قبله:

> أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه(٣٥).

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمى نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء(٣٦) العريق فى حضارات الجنوب الحضرمى القحطانى، رافعا إياها كأيديولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، معارضا بها (الله) رب الشمال العدنانى.

أما النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد وقف من تلك الحركات موقفا متأنيا يعتمد الصبر الهادىء، فاليمن قبائل كبرى عسكرية منظمة، كذلك اليمامة لم يكن أمرها بأقل شأنا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالف فى امتداد بوادى الجزيرة نحو الشمال، ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم، ليتيح لعماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمى تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم

---

(٣٥) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص ١٢٦.

(٣٦) ارجع فى ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمى.. سبق ذكره.

القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير الملتبسة.

وفى تلك الحجة بدرت من النبى أقوال تشير إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبى الزبير عن جابر: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عنى مناسككم فلعلى لا أحج بعد عامى هذا»[٣٧]، ثم ما كان من آيات تحمل روح الختام، من قبيل ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال:

نُصرت بالرعب، وأُعطيت الخزائن وخُيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتى، وبين التعجيل،
فاخترت التعجيل[٣٨].

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يقاوم الأوجاع، ويستمر فى سياسة الدولة، وفى صفر بعد حجة الوداع بشهرين، يؤذن فى الناس بغزو القياصرة فى بلاد الشام، ويؤمر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة، ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يوعبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيريه أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. لكن ليقف التاريخ فى مواقفه الناقلة المحولة، لترهف السمع إلى الصحابة يسجلون فى مسامع الرواة، أنه فى أول شهر ربيع الأول يطلب النبى عبده أبا مويهبة، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا فى حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع متحاملا على نفسه، ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

السلام عليكم يا أهل المقابر

ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى (؟!)

---

(٣٧) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج ٥، ص ١٨٩.
(٣٨) نفسه: ص ١٩٧.

ويلتفت إلى أبى مويهبة يقول له:

إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة.

ليقاطعه عبده المخلص

بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى - لهفى عليه:

لا والله يا أبا مويهبة

لقد اخترت لقاء ربى والجنة

ثم يروى أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس (٣٩).

وهنا ننصت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبى بكر تقول:

رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله ياعائشة؛ وارأساه، قالت: ثم قال: ما ضرك لومت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟! قالت: قلت والله لكأنى بك لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك، قالت: فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى، فأذن له.. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تؤكد الروايات أن ذلك الرجل الذى أغفلت عائشة اسمه كان عليا بن أبى طالب)، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتى (٤٠).

ورغم اشتداد الوجع، فقد لحظ سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - أن الناس يتلكأون فى طاعة أوامره، فى بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

---

(٣٩) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

(٤٠) نفسه: ص ٢٤٦، ٢٥٩.

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك وأنفسنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول مناديا:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته، لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، كان أبوه خليقاً بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلغهم أن الوجع قد اشتد بنبيهم، فتوقفوا هناك ينتظرون ما يسفر عنه الأمر[٤١].

وهنا ننقل، فقط مجرد نقل دون أى انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوى رؤيته لما يحدث فى تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبى بكر وعمر وسائر القوم «وقد تعلم أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولا، وتخلفوا عن الجيش أخيراً، ليحكموا قواعد ساستهم، ويقيموا عمدها ترجيحا منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتثاقلهم عن السير، ولا بتخلف من تخلف منهم عن الجيش، أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفوا إلى الغزوة قبل وفاته - صلى الله عليه وسلم - وكان - بأبى وأمى - أراد أن تخلو منهم العاصمة، فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين على بن أبى طالب على سكون وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعلى عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد: وإنما أمر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة لياً لأعنة البعض، ورداً لجماح أهل الجماح منهم، واحتياطا من الأمن فى المستقبل من نزاع أهل التنافس، لو أمر أحدهم كما لا يخفى، لكنهم فطنوا إلى ما دبر - صلى الله عليه وسلم - فطعنوا فى تأمير أسامة، وتثاقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبى بربه، فهموا حينئذ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، وبعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلف منهم عن الجيش وفى أولهم أبو بكر وعمر».

ويحكى لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبد الله بن عبد الرحمن «فتثاقل أسامة وتثاقل الجيش بتثاقله، وجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبى أنت وأمى؛ أتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى، فقال: اخرج وسر على بركة الله، فقال: يارسول الله إن أنا

---

(٤١) نفسه: ص ٢٦٠.

خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفى قلبى قرحة، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يارسول الله إنى أكره أن أسائل عنك الركبان، فقال: نفذ ما أمرتك به، ثم أغمى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، **لعن الله من تخلف عنه**، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبوبكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات فى تلك الساعة»[٤٢].

ويستمر الشيخ شرف الدين فى قراءته لتلك السويعات الفاصلة فى تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبى بكر وعمر لم يفلح، وعادا للمدينة والرسول فى النزع الأخير ومعه على بن أبى طالب، ليورد لنا ما أخرجه البخارى بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

> لما حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال النبى: **هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده**، فقال عمر: إن النبى قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبى كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبى قال لهم - صلى الله عليه وسلم - قوموا - قال عبد الله بن مسعود - فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرفوا فى قول عمر: «إن النبى قد غلب على الوجع» فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت: «إن النبى يهجر»، لكنهم هيئوا العبارة اتقاء لفظاعتها فى حق رسول الله[٤٣].

وبعد....

فقد حاولنا السعى وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى - صلى الله عليه وسلم - نصطفى أهم

---

(٤٢) عبدالحسين شرف الدين الموسوى: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، ١٩٦١، ص ٩٠، ٩٣.
(٤٣) نفسه: ص ١٥٥، ١٥٨.

الأحداث المتعلقة بحروب دولته التى أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهـة التاريخ مع خط سيرها المنطقى، وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخل عاطفى أو وجدانى، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث، ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرين، والقابلة أيضا للسقوط فى خطأ الإنسان بكل ماله وما عليه، وهو الخطأ الذى سنحوز به على ثواب الأجر الواحد. لكن الذى لا مشاحة فيه أنه لا يصح أبداً أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المتميز على العالمين، ولا جدال أنه بعدما سردناه وقرأناه فى عملنا هذا يجب أن نخفف من غلوائنا، ونتحفظ قليلا فى إطلاق الصفات على قادة ورجال لم يصلوا أبداً إلى قامة ذلك السيد الرائع، الذى توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطورى الهادىء لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية، فكان عكس كل السابقين الذين حكى لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه، ليثبتوا نبوتهم، لقد اتسق نبى الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل، فكان مؤسسا للعقل فى النبوة والنبوة فى العقل، وخاتما للنبوات، وبادئا لدور الإنسان على الأرض، وصانعا لكرامة عربية جديدة.

بأبى أنت وأمى يارسول الله، فداك أولادى وأموالى ونفسى. صلى الله عليك وسلم، وعليك صلاتى وسلامى، وتسليمى. ولك ولرب العالمين إسلامى.

المصـــــادر(*)

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الكتاب المقدس.

٣ ـ القاموس المحيط.

٤ ـ المنجـــد.

٥ ـ البخارى
٦ ـ أبو داود
٧ ـ الترمذى
٨ ـ مسـلم
} كتب الحديث الشريف

المصادر مرتبة (ألف . باء) حسب اسم المؤلف

٩ ـ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ .

١٠ ـ أمين (أحمد): فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط ١٤ ، القاهرة، ١٩٨٧ .

١١ ـ ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩ ، ص ٤٢ .

١٢ ـ (البجاوى) محمد، ومحمد أبو الفضل: أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣ .

١٣ـ الدياربكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د. ت.

١٤ ـ البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

١٥ ـ البيهقى: دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨ .

١٦ ـ ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

(*) جميع المصادر بهذه القائمة أساسية ودخلت بشهاداتها فى بحثنا كلها.

١٧ ـ الثعلبى النيسابورى: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت د. ت.

١٨ ـ الجاحظ: الرسائل: جمع ونشر حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣.

١٩ ـ ابن حبيب: المحبر، تحقيق د. إيلزة شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.

٢٠ ـ ابن حبيب: المنمق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط، ١٩٦٤.

٢١ ـ حميد الله (محمد): مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥.

٢٢ ـ ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

٢٣ ـ ابن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، د. ت.

٢٤ ـ ابن خياط (خليفة): الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العانى، بغداد، ط ١، ١٩٦٧.

٢٥ ـ دلو (برهان الدين): مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى، الفارابى، بيروت، ١٩٨٥.

٢٦ ـ الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، ط ١، ١٩٦٠.

٢٧ ـ زيعود (د. على): قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.

٢٨ ـ سالم (د. سالم عبدالعزيز): دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠.

٢٩ ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت. وطبعة دار صادر، تحقيق أوجين متنوح، بيروت، ١٩٥٨.

٣٠ ـ السقاف (أبكار): نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت.

٣١ ـ ابن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ.

٣٢ ـ السهيلى: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.

٣٣ ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

٣٤ ـ الشريف (أحمد إبراهيم) : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، د. ت.

٣٥ ـ شلبى (د. أحمد) : السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١٢، ١٩٨٧.

٣٦ ـ الشهرستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١.

٣٧ ـ الشيبانى: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨.

٣٨ ـ الشيبانى: شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢.

٣٩ ـ صالح (أحمد عباس) : الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤.

٤٠ ـ الأصفهانى: الأغانى، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٢، د. ت.

٤١ ـ الطائى (حاتم) : ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، بيروت، د. ت.

٤٢ ـ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

٤٣ ـ ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.

٤٤ ـ عبدالرحمن (عبدالهادى) : جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨.

٤٥ ـ على (جواد) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الحرية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.

٤٦ ـ على (جواد) : تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، بيروت، ١٩٨٣.

٤٧ ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٤٨ ـ ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٩٨٦.

٤٩ ـ القمنى (سيد محمود) : دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية، مجلة مصرية، القاهرة، العدد التاسع، أكتوبر ١٩٨٦.

٥٠ ـ القمنى (سيد محمود) : الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٠

٥١ ـ القمنى (سيد محمود) : حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)، دار سينا، القاهرة، ١٩٩٣.

٥٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٨ .

٥٣ ـ الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ .

٥٤ ـ مدكور (د. إبراهيم بيومى) : فى الفلسفة الإسلامية .

٥٥ ـ المسعودى: مروج الذهب، تحقيق محيى عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت .

٥٦ ـ مروة (حسين) : النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابى، بيروت، ط٦، ١٩٨٨ .

٥٧ ـ المقدسى: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦ .

٥٨ ـ الموسوى: (عبدالحسين شرف الدين) : النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، العراق، ١٩٦٦ .

٥٩ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ط٢، ١٩٥٥ .

٦٠ ـ الواقدى: كتاب المغازى، تحقيق مرسدن جونز، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، ١٩٦٦، وأيضاً نشر مؤسسة الأعلامى، بيروت، د. ت.

٦١ ـ اليعقوبى: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط ٤، ١٩٧٤ .

٦٢ ـ أبو يوسف: الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩ .

من أعمال المؤلف

١ ـ الموجز الفلسفى: دار السياسة، الكويت، د. ت، (نفد).

٢ ـ مشكلات فلسفية: بالمشاركة مع آخرين، التربية الكويتية.

٣ ـ أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة، مدبولى الصغير، القاهرة.

٤ ـ الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية، مدبولى الصغير، القاهرة.

٥ ـ النبى إبراهيم والتاريخ المجهول، مدبولى الصغير، القاهرة.

٦ ـ الأسطورة والتراث، مدبولى الصغير، القاهرة.

٧ ـ حروب دولة الرسول: الجزء الأول، بدر وأحد، مدبولى الصغير، القاهرة.

٨ ـ حروب دولة الرسول: الجزء الثانى، مدبولى الصغير، القاهرة.

٩ ـ قصة الخلق؛ منابع سفر التكوين، مدبولى الصغير، القاهرة.

١٠ ـ إسرائيل، التوراة، التاريخ، التضليل: مدبولى الصغير، القاهرة.

١١ ـ رب الزمان: مدبولى الصغير، القاهرة.

محتويات الجزء الأول

محتويات الجزء الثانى

الباب الرابع


مطبعة اطلس
imprimerie atlas

حروب دولة الرسول

من أهم الكتب بعد كتاب (الحزب الهاشمي)، وكما كان كتاب (الحزب الهاشمي) كتابا تأسيسيا، ودافعا لعدد من البحوث التي أخذت خطه ومنهجه، فكان بداية لمدرسة، كذلك هذا الكتاب الذي بين يديك.

وبالقدر ذاته الذي أثاره كتاب «الحزب الهاشمي»، جاءت ذات الإثارة في (حروب دولة الرسول)، إذ يعرض باحثنا قراءاته الجديدة للمعارك التي خاضتها دولة الإسلام إبان دورها التأسيسي الأول في عهد المصطفى ﷺ، وما ترتب عليها من نتائج أفرزت صراعات جديدة في سبيل الحرص على استدامة الدولة الناشئة وتقوية دعائمها، إزاء المناخ المعادي الذي أحاط بها.

وإذا كان تاريخ الكتابة العربية في هذه المنطقة، قد ظل يعالجها بمنطق المعجزة والمفاجأة والأحجية، فإن المفكر الكبير سيد القمني يستمر هنا دون تراجع، على العقلنة والموضعة، ليعالج الأحداث كما حدثت بالفعل، ويقدم لنا صورة النبي محمد الإنسان القائد الفذ ﷺ بحيث لا تنتهي من القراءة إلا وأنت أشد فخرا واعتزازاً بتلك القيادة النموذج والمثل الأروع، وأكثر احتراما لجهد علماء الأمة، كتاب السير والأخبار والتاريخ، وأكثر نفورا من وعاظ الإعلام وأصحاب المصالح، الذين كادوا يذهبون بنا إلى قاع مقلب نفايات الأمم الغوابر.

مدبولي الصغير

